# أزهار الرياض فى أخبار عياض

## وما يناسبها مما يحصل به ارتياح وارتياض

تأليف

الشيخ أحمد بن محمد المقرى التلمسانى

(٩٨٦ - ١٠٤١ هـ)

طبعة مزيدة ومنقحة

تحقيق

الدكتور على عمر

بقسم التاريخ والحضارة الإسلامية

بجامعة المنيا والإمام بالرياض

ومن الباحثين بمركز تحقيق التراث (سابقا)

الجزء الخامس

الناشر

مكتبة الثقافة الدينية

obeikandl.com

الطبعة الاولى
1431هـ2010
حقوق الطبع محفوظة للناشر
الناشر
مكتبة الثقافة الدينية
526 شارع بورسعيد – القاهرة
25922620-25938411 / فاكس: 25936277
E-mail: alsakafa_aldinay@hotmail.com

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

المقرى،احمد بن محمد احمد بن يحيى ، 1584-1631
ازهار الرياض فى اخبار عياض
تاليف : شهاب الدين احمد بن محمد المقترى التلمسانى ، تحقيق: على عمر
ط-1 القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية ،2010
5مج ، سم
تدمك : 978-977-341-499-3
1- المحدثون المغاربة
2-القاضى عياض ، عياض بن موسى بن عياض
ا- عمر،على ( محقق )
ب- العنوان

ديوى:922.13

رقم الايداع: 16755

obeikandl.com

obeikandl.com

obeikandl.com

ومما لم يكمله من مـؤلفاته. كتـاب «الفنون الستة، فى أخـبار سبـتة». وكتاب «غنية الكاتب، وبغية الطالب» - فى الصدور والترسيل.

هكذا قـال ابن الخطيب وقال ابن خـاتمة فى «مـزية ألمرية» وكتـاب فيـه سؤالات وترسيل له - فى نحو أربعة أسفار. وانظر هذا الذى قال ابن خاتمة، هل هو «غنية الطالب» المذكـور أو غيره؟ وكتاب تاريخ المرابطين - انتـهى فيه إلى سنة أربعين وخمسمائة، قال ذلك ابن خاتمة فى «المزية».

وقال ابن حـمادة البرنسى: إنه ألف كـتاب جامع التـاريخ. فأربى على جمـيع المؤلفات: فـيه أخـبار الملوك بالأندلـس والمغرب منذ دخـول الإسلام إليهما. واستوعب فـيه أخبار سبتة، وقضاتها وفقهـائها، وجميع ما جرى من الأمور فيها. واستوعب أخبار الدولة الحسنية.

قال جـامع هذا التأليف: انظر هذا، هل هو المذكـور عند ابن خاتمة أو غيره. وكتاب «الأجوبة المحبرة، على المسائل المتخيرة».

قال ابنه: وجدت منها يسيرا فضـممته إلى ما وجدته فى بطائقه. وعند أصحـابه من معـان شاذة فى أنواع شـتى. سئل عنهـا - رحمة الله عـليه - فأجاب: جمـعت ذلك فى جزء. وكتاب أجوبة القرطبـيين. قال ابنه: رأيت هذه الترجـمة بخطه. ولم أجـد لها عنده مبـيضة. غـير أنى وجـدتها بطائق فجمعتها مع أجوبـة غيرهم وأجوبته مما نزل فى أيام قضائه من نوازل الأحكام فى سفرين. وكتاب «سر السراة فى آداب القضاة».

قال ابن خاتمة فى «المزية» للقاضى عيـاض - رحمه الله - تآليف مفيدة كتبها الناس عنه وانتفعوا بها. وكثر استعمال كل طائفة لها - انتهى.

وقال الإمـام الرحال أبو عـبد الله بن جـابر الوادى آشى - رحـمه الله حدثنى شيخنا الفقيـه الكاتب البليغ المجاور بحرم رسول الله - ﷺ. المدفون فى بقيـعه أبو القـاسم خلف ابن الشيخ المرحوم أبى الإصـبغ عبـد العزيز بن محمد الغـافقى القبتورى. أنه تذاكر مع بعض أصحـابه ببجاية أبا الفضل هذا وتواليفه، فأنشد فيـه ارتجالا بها. وذلك فى أواسط ربيع الأول المبارك من عام خمسة وتسعين وستمائة. وسمعـتها منها بتونس بمنزله عند جوازه مشرقا علينا فى أوائل رجب من العام المذكور.

عـيـاض إمـام لا يضـاهى جـلاله ... فما عوض من كـتبه الدهر بالملفى

مـشـارقـــه إكـمـاله شـــهـدا له ... بسـبق أرى السبـاق فـيه له خلفـا

وحسـبك ريا بالشفـاء لذى صدى ... لمودعه من وصف خـير الورى أشفى

وأعـجب تنبـيهـاته اللاء أوسـعت ... غوامض أعيت رائمى فهمـها كشفا

ومـا مـدرك شـــأو له فى مـدارك ... فإحـسانه إحـسان مـا قبلهـا قفى

وكم ذا له من مـــثلهن مـصـنفـا ... تقـرط أذن الدهر من ذهب شنفـا

وليس يوفى الدهر حصـر محاسن ... بها فـخر عصـر كان منجـبه وفى

ومـا غـيـر إحـفـــاء لسن يراعـه ... يفيد الذى فى البـحث عن فضله أحفى

ولما شـرعت فى هذا المجمـوع الموسـوم بـ «أزهار الرياض، فى أخبـار عياض» وذكرت يوما هذه التسمية لصـاحبنا الفقيه النبيه الأديب، سيدى على ابن أحمد الشامى - حفظه الله، واسـتنهضت فكره السليم لنظم يصلح إثباته هنا فى وصف القاضى عياض وكتبه وغير ذلك. فكتب لى من الغد ما نصه:

يمـــينا مـــا الأزاهر فـى رياض ولا الغـــزلان فى ورد الحـيـــاض
ولا الخـيـلان فى الـوجنات تبـدو لصب لامـــعـــات فى بـيـــاض
ولا الغـــدران فى الفلـوات تندى لصـــاد نابعـات فـى افـتـــيـاض
بأبـدع من تآلـف منـتـــمـــــاة إلى قـــاضى أئـمـــتنا عـــيـــاض

وحذف الياء من تآليف. وقد تقـدم مثله فى نظم الإمام أبى القاسم بن رضوان.

وأنشدنى المذكور حفظه الله تعالى أيضا:

عيـاض سمت فخـرا تآليفك التى حوت ما حوت من حسن ربح لمبتاع
من لم تكـن منهـا لديه ذخـيـرة فـلا نال من دنيـاه نفـعـا بإمـتـاع

**فائدة**: فى تعليق البسـيلى على التفسيـر مما التقطه من كلام شـيخه ابن عرفـة – أن تقى الدين بن تيـمية قـال – لما رأى شفـاء القاضى أبى الـفضل عياض – غـلا هذا المغيربى! قال: وإلى الرد عـليه أشار شيخنـا ابن عرفة – رحمه الله – تعالى بقوله:

شـفـاء عيـاض فى كـمـال نبـينا كواصف ضوء الشمـس ناظر قرصها
فـلا غرو فى تبليـغـه كنه وصفـه وفى عجزه عن وصفه كنه شخصها
وإن شـئت شـبـهـه بذكـر أمـارة بأصل لبـرهان مـبـين لنقـصـهـا
وهذا لقـول قـيل عن زائغ: غـلا عيـاض فتبت ذاته عن مـحيصـها

ونسب البسيلى المذكـور لابن تيمية القول بالجهة، وكـتب بعضهم على طرة البسيلى ما نصه: رأيت أسئلته – أى ابن تيمية – فى أسفار فلا تسأل عن

اطلاعه وحسن تصرفه، والتجسيم نسبه له أبو حيان فى آية الكرسى. وأبو حيان مدحه بقصيدة، ثم عاداه، فوجب التوقف فى نقله لأجلها، ولم يزل حاله فى ظهور حتى ناظر السبكيين، ومناظرته معهم حجة باهرة فى فضله، وقد أثنى على عياض فلا يصح عنه ذمه، أو أراد أن القتل لا يقول به من الأربعة غير مالك، ولهذا رد حكم هذا الباب إليه فى البلاد المشرقية - انتهى ما فى الطرة.

قلت: أما علمه، فأمر لا ينكر ولا يجحد، وقد رأيت مؤلفا فى التعريف به، ومحاشاته عما نسب إليه من التجسيم وغيره من المقالات الشنعية، وذكر فيه قصيدة أبى حيان التى مدحه بها وثناء الأكابر عليه. وغير ذلك من أموره. وكتب بالموافقة على ذلك، الحافظ ابن حجر والعينى والبساطى وغيرهم، وقال بعض هؤلاء: إن مسألة الزيارة التى رد عليه فيها السبكى. لا توجب فى حقه بدعة، وغاية ما هنالك أنه أخطأ فيها، والتسليم فى أمره أسلم، وهؤلاء نزهوه عن القول بالجهة، وهم أعرف بحاله من غيرهم - وإن صرح بخلاف ذلك غير واحد من المغاربة. منهم الحاج الرحال ابن بطوطة. فإنه قال فى رحلته، شاهدته نزل درجة وقال: إن الله ينزل كما أنزل انتهى - عياذا بالله من هذه المقالة! وقد صرح بذلك أيضا بعض سلفنا، وهو الإمام القاضى أبو عبد الله محمد بن أحمد المَقَّرِى التلمسانى - رحمه الله - فى أول رحلته المسماة بـ «نظم اللآلى، فى سلوك الأمالى» - عندما تعرض لشيخيه ابنى الإمام التلمسانين، وهأنا أثبت كلامه بطوله لم اشتمل عليه من ذكر أمر ابن تيمية وغير ذلك من الفوائد البديعة. وقد بدأ بهذين الشيخين فى رحلته المذكورة بعد أن قدم ذكر نسب نفسه وأوليته - حسبما

ننقل ذلك بقريب - إن شاء الله سبحانه وتعالى، لأنا سنتعرض للتعريف به إذ قد عرفنا بغيره من الأعلام، فتعين أن نذكره، لأن الإنسان مجبول على خبر أسلافه، ومن له به تعلق، ونص كلامه.

فممن أخذت عنه واستفدت منه، علماها - يعنى تلمسان - الشامخان، وعالماها الراسخان، أبو زيد عبد الرحمن، وأبو موسى عيسى، ابنا محمد بن عبد الله ابن الإمام، وكانا قد رحلا فى شبابهما من بلدهما برشك إلى تونس، فأخذا بها عن ابن جماعة وابن العطار، واليفرنى، تلك الحلبة، وأدركا المرجانى وطبقته من أعجاز المائة السابعة، ثم وردا فى أول المائة الثامنة تلمسان على أمير المؤمنين أبى يعقوب وهو محاصر لها. وفقيه حضرته يومئذ، أبو الحسن على بن يخلف التنسى، وكان قد خرج إليه برسالة من صاحب تلمسان المحصورة فلم يعد، وارتفع شأنه عند أبى يعقوب حتى إنه شهد جنازته، ولم يشهد جنازة أحد ممن قبله، وقام على قبره وقال: نعم الصاحب فقدنا اليوم[1].

حدثنى الحاج الشيخ بعباد تلمسان، أبو عبد الله محمد بن محمد بن مرزوق العجيسى أن أبا يعقوب طلع إلى جنازة التنسى فى الخيل حوالى روضة الشيخ أبى مدين فقال لى، كيف تتركون الخيل تصل إلى ضريح الشيخ؟ هلا عرضتم هنالك - وأشار إلى حيث المعراض الآن خشبة؟ ففعلنا. فلما قتل أبو يعقوب. وخرج المحصوران. أنكرا ذلك فأخبرتهما، فأما أبو زيان - وكان السلطان يومئذ - فنزل وطأطأ رأسه ودخل[2].

(١) نفح الطيب ٥/ ٢١٥.

(٢) نفح الطيب ٥/ ٢١٥.

وأما أبو حمو - وكان أميرا - فوثب وخلفها. ولما رجع الملك إلى هذين الرجلين. اختصا ابنى الإمام، وكان أبو حكو أشد اعتناء بهما. ثم بعده ابنه أبو تاشفين، ثم زادت حظوتهما عند أمير المسلمين أبى الحسن - إلى أن توفى أبو زيد فى العشر الأوسط من شهر رمضان الذى من عام أحد وأربعين وسبعمائة بعد وقعة طريف بأشهر. فزادت مرتبة أبى موسى عنده إلى أن كان من أمر السلطان بإفريقية ما كان فى أول عام تسعة وأربعين، وكان أبو موسى قد صدر عنه قبل الوقعة، فتوجه صحبة ابنه أمير المؤمنين أبى عنان إلى فاس. ثم رده إلى تلمسان - وقد استولى عليها عثمان بن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراس بن زيان، فكان عنده إلى أن مات الفقيه عقب الطاعون العام[1].

قال لى خطيب الحضرة الفاسية، أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله بن مالك بن عباد الرندى - لما أزمع الفقيه ومن أطلق معه على القفول إلى تلمسان بت على تشييعهم، فرأيت كأنى نظمت هذا البيت فى المنام:

وعند وداع القوم ودعت سلوتى وقلت لها بينى فأنت المودع[2]

فانتبهت وهو في فِيَّ، فحاولت قريحتى بالزيادة عليه فلم يتيسر لى مثله. ولما استحكم ملك أبى تاشفين واستوثق، رحل الفقيهان إلى المشرق فى حدود العشرين وسبعمائة، فلقيا علاء الدين القونوى وكان بحيث إنى لما رحلت، فلقيت أبا على حسين بن حسين ببجاية، قال لى، إن قدرت أن لا يفوتك شىء من كلام علاء الدين القونوى حتى تكتب جميعه فافعل، فإنه لا نظير له.

---

(١) نفح الطيب ٥/٢١٦.

(٢) نفح الطيب ٥/٢١٦.

ولقيا أيضا جلال الدين القزوينى صاحب البيان وسمعا صحيح البخارى على الحجـار - وقد سمعـته أنا عليهمـا، وناظرا تقى الدين بن تيميـة وظهرا عليه، وكان ذلك من أسباب محنته.

وكانت له مقـالات شنيعة من إمرار حـديث النزول على ظاهره. وقوله فـيه: كنزولى هذا. وقـوله فـيمن سـافر إلى المدينـة لا ينوى إلا زيارة القبـر الكريم، لا يقصـر حتى ينوى المسجـد لحديث لا تشد الرحال، وكـان شديد الإنكار على الإمام فخر الدين.

حدثنى شـيخى العـلامة أبو عـبد الله الآبلى. أن عبـد الله بن إيراهيم الزمورى أخبره أنه سمع ابن تيمية ينشد لنفسه.

محَـصَّلٌ فى أصول الدين حـاصله  من بعـد تحـصـيله عـلم بلا دين
أصل الضـلالة والإفك المبين فـما  فـيه فـأكـثره وحى الـشيـاطين[1]

قال: وكان فى يده قضـيب فقال: والله لو رأيته لضربته بـهذا القضيب هكذا، ثم رفعه ووضعه[2].

وبحسبك مـا ظهر لهذين الرجلين من الصـيت بالمشرق، أنى لما حللت ببيت المقدس وعرف به مكانى من الطلب. وذلك أنى قـصدت قاضيه شمس الدين بن سـالم ليضع لـى يده على رسم استـوجب به هنالك حـقا. فلمـا أَطْلَلْتُ عليـه عرفه بى بعض من مـعه، فـقام إلى حتى جلسـت، ثم سألنى بعض الطلبة بحـضرته، فقال لى: إنكم - معـشر المالكية - تبيـحون للشامى يمر بالمدينة أن يتعدى ميقاتهـا إلى الجحفة، وقد قال رسول الله - ﷺ - بعد

(١) نفح الطيب ج٥ ص ٢١٦.
(٢) نفح الطيب ٥/ ٢١٦.

أن عين المواقيت لأهل الآفاق: هن لهن ولمن مَرّ عليهن من غير أهلهن، وهذا قد مَرّ على أهل ذى الحليفة، وليس من أهله فيكون له، فقلت له: إن النبى ﷺ قال: من غير أهلهن، أى من غير أهل المواقيت، وهذا سلب كلى، وأنه غير صادق على هذا الفرد ضرورة صدق نقيضه - وهو ألا يجاب الجزئى عليه، لأنه من بعض أهل المواقيت قطعا، فلما لم يتناوله النص، رجعنا إلى القياس، ولاشك أنه لا يلزم أحدا أن يحرم قبل ميقاته وهو يمر به، لكن من ليس من أهل الجحفة لا يمر بميقاته إذا مر بالمدينة. فوجب عليه الإحرام من ميقاتها، بخلاف أهل الجحفة. فإنها بين أيديهم وهم يمرون عليها، فوقعت من نفوس أهل البلد بسبب ذلك، فلما عرفت أتانى آت من أهل المغرب فقال لى: تعلم أن مكانك فى نفوس أهل [هذا] البلد مكين(١)، وقدرك عندهم رفيع، وأنا أعلم انقباضك عن ابنى الإمام. فإن سئلت فانتسب إليهما، فقد سمعت منهما وأخذت عنهما، ولا تظهر العدول عنهما إلى غيرهما، فتضع من قدرك، فإنما أنت عند هؤلاء الناس خليفتهما ووراث علمهما وأن لا أحد فوقهما(٢).

وليس لما تبنى يد الله هادم

وشهدت مجلسا بين يدى السلطان أبى تاشفين، عبد الرحمن بن أبى حمو، ذكر فيه أبو زيد بن الإمام - أن ابن القاسم مقلد مقيد النظر بأصول مالك، ونازعه أبو موسى عمران بن موسى المشدالى، وادعى أنه مطلق الاجتهاد، واحتج له بمخالفته لبعض ما يرويه ويبلغه عنه لما ليس من قوله، وأتى من ذلك بنظائر كثيرة، قال: فلو تقيد بمذهبه لم يخالفه لغيره، فاستظهر أبو زيد بنص لشرف الدين التلمسانى مثل فيه الاجتهاد المخصوص، باجتهاد ابن القاسم بالنظر إلى مذهب مالك والمزنى إلى الشافعى، فقال عمران، هذا

(١) هذا المثبت من نفح الطيب، ومَكنُ فلان عند الناس عَظم عندهم، فهو مَكين. والذى فى المطبوع: «ميكن».

(٢) نفح الطيب ج٥ ص ٧٥١ - ٥١٨، وما بين حاصرتين منه.

مثال، والمثال لا تلزم صحته، فصاح به أبو موسى بن الإمام وقال لأبى عبد الله بن أبى عمرو: تكلم. فقال لا أعرف ما قال هذا الفقيه، والذى أذكره من كلام أهل العلم أنه لا يلزم من فساد المثال فساد الممثل، فقال أبو موسى للسلطان، هذا كلام أصولى محقق، فقلت لهما - وأنا يومئذ حديث السن، ما أنصفتما الرجل، فإن المثل كما تؤخذ على جهة التحقيق، كذلك تؤخذ على طريق التقريب، ومن ثم جاء ما قاله الشيخ - أعنى ابن أبى عمرو، وكيف لا وهذا سيبويه يقول: وهذا مثال ولا يتكلم به. فإذا صح أن المثال قد يكون تقريبا، فلا يلزم صحة المثال، ولا فساد الممثل لفساده، فهذان القولان من أصل واحد(١).

وشهدت مجلسا آخر عند هذا السلطان. قرئ فيه على أبى زيد بن الإمام حديث لقنوا موتاكم لا إله إلا الله فى صحيح مسلم، فقال له الأستاذ أبو إسحاق ابن حكم السلوى، هذا الملقن محتضر حقيقة، ميت مجازا، فما وجه ترك محتضريكم إلى موتاكم - والأصل الحقيقة؟ فأجابه أبو زيد بجواب لم يقنعه(٢).

وكنت قد قرأت على الأستاذ بعض التنقيح فقلت: زعم القرافى أن المشتق إنما يكون حقيقة فى الحال، مجازا فى الاستقبال، مختلفا فيه فى الماضى إذا كان محكوما به. أما إذا كان متعلق الحكم كما هنا، فهو حقيقة مطلقا إجماعا، وعلى هذا التقرير لا مجاز فلا سؤال(٣).

---

(١) نفح الطيب ج٥ ص ٢١٧ - ٢١٨.

(٢) نفح الطيب ٥/ ٢١٩.

(٣) نفح الطيب ٥/ ٢١٩.

لا يقال إنه احتج على ذلك بما فيه نظر، لأنا نقول: إنه نقل الإجماع - وهو أحد الأربعة التى لا يطالب مدعيها بالدليل كما ذكر أيضا، بل نقول إنه أساء حيث احتج فى موضع الوفاق، كما أساء اللخمى وغيره فى الاحتجاج على وجوب الطهارة ونحوها، بل هذا أشنع لكونه مما علم كونه من الدين بالضرورة، ثم إنا لو سلمنا نفى الإجماع، فلنا أن نقول، إن ذلك إشارة إلى ظهور العلامات التى يعقبها الموت عادة لأن تلقينه قبل ذلك - إن لم يدهش، فقد يوحش، فهو تنبيه على وقت التلقين - أى، لقنوا من تحكمون بأنه ميت، أو نقول: إنما عدل عن الاحتضار لما فيه من الإبهام، ألا ترى اختلافهم فيه، هل أخذ من حضور الملائكة أو حضور الأجل، أو حضور الجلاس، ولا شك أن هذه حالة خفية، يحتاج فى نصبها دليلا على الحكم إلى وصف ظاهر يضبطها - وهو ما ذكرناه، أو من حضور الموت، وهو أيضا مما لا يعرف بنفسه بل بالعلامات، فلما وجب اعتبارها. وجب كون تلك التسمية إشارة إليها - والله تعالى أعلم[1].

كان أبو زيد يقول فيما جاء من الأحاديث من معنى قول ابن أبى زيد: وإذا سلم الإمام فلا يثبت بعد سلامه ولينصرف - إن ذلك بعد أن ينتظر بقدر ما يسلم من خلفه، لئلا يمر بين يدى أحد، وقد ارتفع عنه حكمه، فيكون كالداخل مع المسبوق جمعا بين الأدلة. قلت: وهذا من ملح الفقه[2].

اعترض عند أبى زيد قول ابن الحاجب «ولبن الآدمى والمباح طاهر» - بأنه إنما يقال فى الآدمى لبان، فأجاب بالمنع، واحتج بقول النبى - ﷺ «اللبن

(١) نفح الطيب ٥/ ٢١٩.

(٢) نفح الطيب ٥/ ٢١٩.

للفحل». وأجيب بأن قوله ذلك لتشريكه[1] المباح معه فى الحكم، لأن اللبان خاص به، وليس موضع تغليب، لأن اللبان ليس بعاقل، ولا حجة على تغليب ما يختص بالعاقل[2].

تكلم أبو زيد يوما فى مجلس تدريسه فى الجلوس على الحرير، فاحتج إبراهيم السلوى للمنع بقول أنس: فقمت إلى حصير لنا قد اسود من طول ما لبس»، فمنع أبو زيد أن يكون إنما أراد باللباس الافتراش فحسب، لاحتمال أن يكون إنما أراد التغطية معه أو وحدها، وذكر حديثا فيه تغطية الحصير. فقلت: كلا الأمرين يسمى لباسا، قال الله عز وجل: ﴿... **هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ** ... (١٨٧)﴾ [البقرة] وفيه بحث[3]، كان أبو زيد يصحف قول الخونجى فى الجمل، والمقارنات التى يمكن اجتماعه معها. فيقول: والمفارقات. ولعله فى هذا كما قال أبو عمرو بن العلاء للأصمعى لما قرأ عليه:

وغررتنى وزعمت أنك لا بنٌ بالصيف تامرْ

فقال:

وغررتنى وزعمت أنك لا تنى بالضيف تامر[4]

فقال: أنت فى تصحيفك أشعر من الحُطيئة[5]، أو كما حكى عن الشافعى أنه لما صلى بالخليفة فى رمضان، لم يكن يومئذ يحفظ القرآن. فكان ينظر فى المصحف، فصحف آيات، صنعة الله - أصيب به من أساء - إنما

(١) هذا الصواب من نفح الطيب، والذى فى المطبوع: «لتشركيه».
(٢) نفح الطيب ٥/ ٢٢٠.
(٣) نفح الطيب ٥/ ٢٢٠.
(٤) نفح الطيب ٥/ ٢٢٠.
(٥) هذا الصواب من نفح الطيب، والذى فى المطبوع: «الحطئة».

المشركون نحس - وعـدها أباه - تقية الله خير لـكم - هذا أن دعوا للرحمن ولدا - لكل امرئ منهم يومئذ شأن يعنيه[١].

سمعت أبا زيد يقول: إن أبا العبـاس الغمارى التونسى، أول من أدخل «معالم» الإمام فخر الدين للمغرب، وبسبب ما قفل به من الفوائد، رحل أبو القاسم ابن زيتون[٢].

وسمعـته يقول: إن ابن الحاجب ألف كـتابه الفقهى من سـتين ديوانا، وحفظت مـن وجادة أنه ذكر عند أبـى عبد الله بن قطرال المـراكشى. أن ابن الحاجب اختصـر الجواهر. فقال: ذكر هذا لأبى عمرو حـين فرغ منه، فقال: بل ابن شاس اختصر كتـابى. قال ابن قطرال: وهو أعلم بصناعة التأليف من ابن شاس، والإنصاف أنه لا يخرج عنه وعن ابن بشير إلا فى الشىء اليسير، فهـما أصلاه ومعـتمداه، ولا شك أن له زيادات وتصرفـات تنبئ عن رسوخ قدمه وبعد مداه[٣].

وكـان أبو زيد من العلمـاء الذين يخشـون الله. حدثـنى أميـر المؤمنين المتوكل أبو عنان أن والده أمـير المسلمين أبا الحـسن، ندب الناس إلى الإعانة بأموالهم على الجـهاد، فقال له أبو زيد، لا يـصح لك هذا حتى تكنس بيت المال وتصلى فيه ركعتين كما فعل على بن أبى طالب[٤].

وسأله أبو الفضل بن أبى مدين الكاتب ذات يوم عن حاله - وهو قاعد ينتظر خـروج السلطان. فقـال له: أما الآن فأنا مـشرك، فـقال: أعـيذك من

(١) نفح الطيب ٥/ ٢٢١.
(٢) نفح الطيب ٥/ ٢٢١.
(٣) نفح الطيب ٥/ ٢٢١.
(٤) نفح الطيب ج٥ ص ٢٢١.

ذلك، فقال: لم أرد الشرك فى التوحيد، لكن فى التعظيم والمراقبة، وإلا فأى شىء جلوسى ها هنا[1].

والشىء يذكر بالشىء، قمت ذات يوم على باب السلطان بمراكش فيمن ينتظر خروجه، فقام إلى جانبى شيخ من الطلبة، وأنشدنى لأبى بكر بن خطاب:

أبصرت أبواب الملوك تغص بالر ... اجين إدراك العُلا والجاه
مترقبين لها فمهما فتحت ... خروا لأذقان لهم وجباه
فأنفت من ذاك الزحام وأشفقت ... نفسى على إنضاء جسمى الواهى
ورأيت باب الله ليس عليه من ... متزاحم فقصدت باب الله
وجعلت من دونهم لى عدة ... فأنفت من غيى وطول سفاهى[2]

قال جامع هذا، أحمد بن محمد المقرى - وفقه الله - رأيت على قوله ورأيت باب الله - البيت بخط الإمام عالم الدنيا، أبى عبد الله بن مرزوق شارح خليل وصاحب التآليف البديعة، بطرة رحلة القاضى أبى عبد الله المقرى، مشيرا إلى البيت المذكور ما نصه.

قلت ذلك لسعته أو لقلة أهله

إن الكرام كثير فى البلاد وإن ... قلوا كما غيرهم قل وإن كثروا

قل: ﴿ ... لاَّ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ ... (١٠٠) ﴾ [المائدة] - انتهى[3].

---

(١) نفح الطيب ٥/ ٢٢١.
(٢) نفح الطيب ٥/ ٢٢١.
(٣) نفح الطيب ٥/ ٢٢٢.

رجع: وحدثنى شيخ من أهل تلمسان، أنه كان عند أبى زيد مرة فذكر القيامة وأهوالها، فبكى، فقلت، لا بأس عليك وأنتم أمامنا، فصاح صيحة واسود وجهه، وكاد يتفجر دما، فلما سرى عنه، رفع يديه وطرفه إلى السماء وقال: اللهم لا تفضحنا مع هذا الرجل، وأخباره كثيرة[١].

وأما شقيقه أبو موسى، فسمعت عليه كتاب مسلم، واستفدت منه كثيرا، فمما سألته عنه قول ابن الحاجب فى الاستلحاق، وإذا استلحق مجهول النسب إلى قوله أو الشرع بشهرة[٢] نسبه - كيف يصح هذا القسم مع فرضه مجهول النسب؟ فقال: يمكن أن يكون مجهول النسب فى حال الاستلحاق، ثم يشتهر بعد ذلك فيبطل الاستلحاق، فكأنه يقول: ألحقه[٣] ابتداء ودواما ما لم يكذبه أحد. هذه فى أحد الحالين، إلا أن هذا إنما يتصور فى الدوام فقط[٤].

ومما سألته عنه أن الموثقين يكتبون الصحة والجواز والطوع على ما يوهم القطع، وكثيرا ما ينكشف الأمر بخلافه، ولو كتبوا مثلا ظاهر الصحة والجواز والطوع، لبرئوا من ذلك، فقال لى، لما كان مبنى الشهادة وأصلها العلم - لم يجمل ذكر الظن ولا ما فى معناه احتمال، فإذا أمكن العلم بمضمونها، لم يجز أن يحمل على غيره، فإذ تعذر كما ها هنا، بنى باطن أمرها على غاية ما يسعه فيه الإمكان عادة، وأجرى ظاهره على ما لا ينافى أصلها، صيانة لرونقها ورعاية لما كان ينبغى أن تكون عليه لولا الضرورة. قلت ولذلك عقد

---

(١) نفح الطيب ٥/ ٢٢٢.

(٢) فى الأصل: «فشهرة» والمثبت من نفح الطيب.

(٣) فى الأصل: «لحقه» والمثبت رواية المصنف فى النفح.

(٤) نفح الطيب ٥/ ٢٢٢.

ابن فتوح وغيره عقـود الجوائح على ما يوهم العلم بالتقدير، مع أن ذلك إنما يدرك بما غايته الظن فى الحرز والتخمين، وكانا معا يذهبان إلى الاختيار وترك التقليد - انتهى[1] كلام القاضى المقرى فى حق ابنى الإمام

وإذا قد بلغنا إلى هذا الموضع، فلنذكر التعريف بهذا الإمام الذى هو من أشهر أسلافنا فنقول:

قال - رحمه الله - أول كتابه المسمى بـ «نظم اللآلي فى سلوك الأمالي» يقول محـمد المقرى - سمح الله تعالى له ولطف به - كان مـولدى بتلمسان أيام أبى حمو[2] موسى بن عثـمان بن يغمراس بن زيان، وقـد وقفت على تاريخ ذلك، ولكنى رأيت الـصفح عنه، لأن أبـا الحسن ابن مـؤمن سـأل أبا الطاهر السلفى عن سنه فـقال: أقبل على شـأنك، فإنى سألـت أبا الفتح بن زيان عن سنه فقال لى: أقبل على شأنك، فـإنى سألت على بن محمد اللبان عن سنه فـقال لى: أقـبل على شأنك، فـإنى سألت أبا القـاسم، حمـزة بن يوسف السهمى عن سنه فقال: أقبل على شـأنك، فإنى سألت أبا بكر محمد ابن عدى المنقرى عن سنه، فقال: أقبل على شأنك، فإنى سألت أبا اسماعيل الترمـذى عن سنه، فـقال: أقبل علـى شأنك، فإنـى سألت بعض أصـحاب الشافـعى عن سنه، فقال: أقبل على شـأنك، فإنى سألت الشـافعى عن سنه فقال: أقبل على شانك، فإنى سألت مالك بن أنس عن سنه فقال: أقبل على شأنك، ليس من المروءة للرجل أن يخبر بسنه[3].

---

(١) نفح الطيب ٥/ ٢٢٣.

(٢) فى الأصل: «حم» والمثبت لدى المصنف فى نفح الطيب ٥/ ٢٠٦.

(٣) نفح الطيب ٥/ ٢٠٦.

وكان الذى اتخذها من سلفنا قرارا، بعد أن كانت لمن قبله مزارا، عبد الرحمن بن أبى بكر بن على المقرى، صاحب الشيخ أبى مدين، الذى دعا له ولذريته بما ظهر فيهم قبوله وتبين، وهو أبى الخامس، فأنا محمد بن محمد ابن أحمد بن أبى بكر بن يحيى بن عبد الرحمن، وكان هذا الشيخ عروى[1] الصلاة، حتى إنه ربما امتحن بشىء فلم يؤنس منه التفات، ولا استشعر منه شعور، ويقال إن هذا الحضور مما أدركه من مقامات شيخه أبى مدين[2].

ثم قال القاضى أبو عبد الله المقرى بعد كلام فى ذكر طبقات أسلافنا ما نصه: ولما درج هؤلاء الأشياخ، جعل أبناؤهم ينفقون مما تركوا لهم، ولم يقوموا بأمر التشمير قيامهم، وصادفوا توالى الفتن، ولم يسلموا من جور السلاطين، فلم يزل حالهم فى نقصان إلى هذا الزمان فهأنذا لم أدرك من ذلك إلا أثر نعمة، اتخذنا فضوله عيشا، وأصوله حرمة، ومن جملة ذلك خزانة كبيرة من الكتب، وأسباب كثيرة تعين على الطلب، فتفرغت - بحول الله عز وجل للقراءة، فاستوعبت أهل البلد لقاء، وأخذت عن بعضهم عرضا وإلقاء، سواء المقيم القاطن، والوراد الظاعن[3].

فممن أخذت عند واستفدت منه علماها الشامخان، وعالماها الراسخان، أبو زيد عبد الرحمن، أبو موسى عيسى، ابنا محمد بن عبد الله بن الإمام، ثم ذكر جميع ما قدمناه قريبا ثم قال: وممن أخذت عنه أيضا، حافظها ومدرسها ومفتيها، أبو موسى عمران بن موسى بن يوسف المشدالى. صهر شيخ المدرسين[4] أبى على ناصر الدين على ابنته، وكان قد فر من حصار

---

(١) نسبة إلى عروة، لعله عروة بن الزبير، فقد كان يطيل الصلاة ويكثر من الدعاء حتى كان يقول: إنى لأسأل الله فى صلاتى كل شىء حتى الملح.

(٢) نفح الطيب ٥/ ٢٠٣.

(٣) نفح الطيب ج٥ ص ٢٠٦.

(٤) فى الأصل: «المتأخرين» والمثبت رواية المصنف فى نفح الطيب ٥/ ٢٢٣.

بجاية فنزل الجزائر، فبعث فيه أبو تاشفين، وأنزله من التقريب والإحسان بالمحل المكين، فدرس بتلمسان الحديث والفقه والأصلين والنحو والمنطق والجدل[1] والفرائض. وكان كثير الاتساع فى الفقه والجدل، مديد الباع فيما سواهما مما ذكر[2].

سألته عن قول ابن الحاجب فى السهو: «فإن أخال الإعراض، فبطل عمده» فقال: معناه: فإن أخال غيره أنه معرض، فحذف المفعول الأول لجوازه، وأقام المصدر مقام المفعولين كما يقوم مقامه ما فى معناه من أَنَّ وأَنْ. قال الله العظيم: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا ... ۝٢﴾ [العنكبوت][3].

قلت: وأقوى من هذا، أن يكون المصدر هو المفعول الثانى، وحذف الثالث اختصارا لدلالة المعنى عليه. أى فإن أخال الإعراض كائنا، كما قالوا، خلت ذلك وقد أعربت الآية بالوجهين، وهذا - عندى أقرب[4].

ومن هذا الباب ما يكتب به القضاة من قولهم: أعلم ياستقلاله فلان، أى أعلم فلان من يقف عليه بأن الرسم مستقل، فحذفوا الأول، وصاغوا ما بعده المصدر[5].

سئل عمران - وأنا عنده - عما صبغ من الثياب بالدم، فكانت حمرته منه، فقال: يغسل فإن لم يخرج شىء من ذلك فى الماء. فهو طاهر، لأن

(١) هذا الصواب فى نفح الطيب، والذى فى المطبوع: «الجدول».
(٢) نفح الطيب ٥/ ٢٢٣.
(٣) نفح الطيب ج٥ ص ٢٢٣ - ٢٢٤.
(٤) نفح الطيب ٥/ ٢٢٤.
(٥) نفح الطيب ٥/ ٢٢٤.

المتعلق به على هذا التقـدير ليس إلا لون النجاسة، وإذا عسر قلعـه بالماء فهو عفو. وإلا لوجب غسله إلى أن لا يخرج منه شيء[١].

قلت: فى البخارى: قال معمـر: رأيت الزهرى يصلى فيما صبغ بالبول من ثياب اليـمن - يعنى - والله تعالى أعلم - بالإرشـالة، وتفسيـره على ما ذكره عمران، وكان قد صاهر قاضى الجماعة أبا عبد الله بن هدية على ابنته، فلم تزل عنده إلى أن توفى عنها[٢].

ومنهم مـشكاة الأنوار، الـذى يكاد زيتـه يضىء ولو لم تمسـسـه نار، الأسـتاذ أبو إسـحـاق إبراهيم بن حكم الكنانى الـسلوى - رحمـه الله، ورد تلمسان بعـد العشرين، ثم لم يزل بها إلى أن قتل يـوم دُخِلَتْ على بنى عبد الواد، وذلك فى الثامن والعشـرين من شهر رمضان، من عام سـبعة وثلاثين [وسبعمائة][٣].

قال لى الشيخ ابن مرزوق: ابتدأ أمـر بنى عبد الواد بقتلهم لأبى الحسن السعيد، وكان أسمر لأم ولد تسمى العنـبر، وختم بقتل أبى الحسن بن عثمان إياهم - وهو بصفته المذكورة حذوك النعل بالنعل، فـسبحان من دقت حكمته فى كل شيء[٤].

ولما وقف الرفيـقان أبو عبـد الله محـمد بن عمـر بن رشيد الفـهرى، ومحمـد بن عبد الرحمن بن الحكيم الرندى. فى رحلتـهما على قبر السـعيد بعباد تلمسان، تناول ابن الحكيم فحمة، ثم نقش بها على جدار هنالك.

---

(١) نفح الطيب ٥/ ٢٢٤.

(٢) نفح الطيب ج٥ ص ٢٢٤.

(٣) نفح الطيب ج٥ ص ٢٢٤ وما بين حاصرتين منه.

(٤) نفح الطيب ٥/ ٢٢٤.

انظر فَفِيَّ إليك اليوم معتبر  إن كنت ممن بعين القلب قد لحظا

بالأمس أدعى سعيدا-والورى خولى  واليوم يدعى سعيدا من بى اتعظا[1]

قال ابن حكم: كان أول اتصالى بالأستاذ أبى عبد الله بن آجروم. أنى دخلت عليه وقد حفظت بعض كتاب المفصل. فوجدت الطلبة يعربون بين يديه هذا البيت.

عهدى به الحى الجميع وفيهم  قبل التفرق ميسر وندام

وقد عمى عليهم خبر «عهدى» فقلت له: قد سدت الحال - وهى الجملة بعده - مسده، فقال لى بعض الطلبة: وهل يكون هذا فى الجملة كما كان فى قولك: «ضربى زيدا قائما»؟ فقلت له: نعم، قال رسول الله - ﷺ: أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد[2].

ذكر أبو زيد ابن الإمام يوما فى مجلسه، أنه سئل بالمشرق عن هاتين الشرطيتين ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ (٢٣)﴾ [الأنفال] فإنهما يستلزمان بحكم الإنتاج، ولو علم الله فيهم خيرا، لتولوا، وهو محال. ثم أراد أن يرى ماعند الحاضرين فقال ابن حكم، قال الخونجى، والإهمال بإطلاق لفظ لو وإنْ فى المتصلة، فهاتان القضيتان على هذا مهملتان، والمهلة فى قوة الجزئية، ولا قياس على جزئيتين: فلما اجتمعت ببجاية بأبى على حسن بن حسين، وأخبرته بهذا وبما أجاب به الزمخشرى وغيره مما يرجع إلى انتقاء تكرر الوسط، فقال لى: الجوابان[3] فى المعنى

(١) نفح الطيب ٥/ ٢٢٤.

(٢) نفح الطيب ٥/ ٢٢٥.

(٣) تحرف فى المطبوع إلى: «الجوبان» وصوابه من نفح الطيب.

سواء. لأن القياس على الجزئيتين، إنما امتنع لانتقاء أمر تكرر الوسط، فأخبرت بذلك شيخنا الآبلى، فقال: إنما يقوم القياس على الوسط، ثم يشترط فيه بعد ذلك أن لا يكون من جزئيتين ولا سالبتين - إلى سائر ما يشترط، فقلت، ما المانع من كون هذه الشروط تفصيلا لمجمل ما ينبنى عليه من الوسط وغيره، وإلا فلا مانع غير ما قاله ابن حسين، قال الآبلى: وقد أجبت بجواب السلوى، ثم رجعت إلى ما قاله الناس لوجوب كون مهملات القرآن كلية، لأن الشرطية لا تنتج جزئية، فقلت: هذا فيما يساق منها للحجة مثل ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا ... ﴿٢٢﴾﴾ [الأنبياء]. أما فى مثل هذا فلا[1].

ولما ورد تلمسان الشيخ الأديب أبو الحسن بن فرحون - نزيل طيبة - على تربتها السلام - سأل ابن حكم عن معنى هذين البيتين:

رأت قمر السماء فأذكرتنى ليالى وصلها[2] بالرقمتين

كلانا ناظر قمرا ولكن رأيت بعينها ورأت بعينى

ففكر ثم قال: لعل هذا الرجل كان ينظر إليها وهى تنظر إلى قمر السماء، فهى تنظر إلى القمر حقيقة، وهو لإفراط الاستحسان يرى أنها الحقيقة، فقد رأى بعينها، لأنها ناظرة الحقيقة، وأيضا فهو ينظر إلى قمر مجازا وهو لإفراط استحسانه لها، يرى أن قمر السماء هو المجاز، فقد رأت بعينه لأنها ناظرة المجاز[3].

---

(١) نفح الطيب ٥/ ٢٢٥.

(٢) فى المطبوع: «وصلنا» والمثبت رواية نفح الطيب.

(٣) نفح الطيب ٥/ ٢٢٦.

قلت: ومن هنا تعلم وجه الفاء فى قوله: «فأذكرتنى» لأنه لما صارت رؤيتها رؤيته، وصار القمر حقيقة إياها، كان قوله «رأت قمر السماء فأذكرتنى» بمثابة قولك، أذكرتنى فتأمله، فإن بعض من لا يفهم كلام الأستاذ حق الفهم ينشده وأذكرتنى، فالفاء فى البيت الأول مبنية على معنى البيت الثانى، لأنها مبنية عليه، وهذا النحو يسمى: الإيذان فى علم البيان[1].

ولما اجتمعنا بأبى الوليد بن هانئ - مقدمه علينا من غرناطة - سأل ابن حكم عن تكرار من فى قوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ ... ﴿١٠﴾﴾ [الرعد]، دون ما بعده، فقال: لولا تكررها أولا، لتوهم التضاد بتوهم اتحاد الزمان، فارتفع بتكرر الموضوع، أما آخر، فقد تكرر الزمان، فارتفع توهم التضاد، فلم يحتج إلى زائد على ذلك[2].

فقلت: فهلا اكتفى بسواء عن تكرر الموضوع، لأن التسوية لا تقع إلا بين أمرين وإنما الجواب عندى أنها تكررت أولا على الأصل لأنهما صنفان يستدعيها كل واحد منهما أن تقع عليه، ثم اختصرت ثانيا لفهم المراد من التفصيل بالأول مع أمن اللبس. وقد أجاب الزمخشرى بغير هذين فانظره[3].

سألنى ابن حكم المذكور عن نسب المجيب فى هذا البيت:

ومهفهف ألا عطاف قلت له انتسب فأجاب ما قتل المحب حرام

(١) نفح الطيب ٥/ ٢٢٦.
(٢) نفح الطيب ٥/ ٢٢٧.
(٣) نفح الطيب ٥/ ٢٢٧.

ففكرت ثم قلت: أراه تميميا لإلغائه «ما» النافية، فاستحسانه منى لصغر سنى يومئذ[1].

تذاكرت[2] يوما مع ابن حكم فى تكملة محمد بن محمد بن مالك لشرح التسهيل لأبيه، ففضلت عليه كلام أبيه. ونازعنى الأستاذ فقلت:

عهود من الآبا توارثها ألا بنا

فما رأيت بأسرع من أن قال:

بنوا مجدها لكن بنوهم لها أبنى

فبهت من العجب[3] وتوفى الشيخ ابن مالك سنة اثنتين وسبعين [وستمائة] وفيها ولد شيخنا عبد المهيمن الحضرمى، فقيل مات فيها إمام نحو، وولد إمام نحو[4].

سألت ابن حكم عن قول فخر الدين فى أول المحصل: «وعندى أن شيئا منها غير مكتسب - بمعنى لا شىء ولا واحد، هل له أصل فى العربية أو هو كما قيل من بقايا عجمته؟ فقال لى: بل له أصل، وقد حكى ابن مالك مثله عن العرب فلم يتفق أن استوقفه عليه، ثم لم أزل أستكشف كل من أظن أن لديه شيئا عنه فلم أجد من عنده أثارة منه حتى مر بى فى باب الأفعال الداخلة على المبتدأ والخبر الداخل عليها، «كان» - من «شرح التسهيل» قوله: «فإن تقدم على الاستفهام أحد المفعولين» نحو: «علمت زيدا

---

(١) نفح الطيب ٥/ ٢٢٧.

(٢) فى المطبوع: «نظرت» والمثبت رواية نفح الطيب.

(٣) فى المطبوع: «التعجب» والمثبت من نفح الطيب.

(٤) نفح الطيب ٢٢٧ وما بين حاصرتين منه.

أبو من هو» اختير نصبه، لأن الفعل مسلط عليه فلا مانع، ويجوز رفعه لأنه والذى بعد الاستفهام شىء واحد فى المعنى، فكأنه فى حيز الاستفهام، والاستفهام مشتمل عليه، وهو نظير قولهم «إن أحد إلا[1] يقول ذلك» وأحد هذا لا يقع إلا بعد نفى، ولكن لما كان هنا والضمير المرفوع بالقول شيئا واحدا فى المعنى، تنزل منزلة واقع بعد نفى، فعلمت أنه نحا إلى هذا، لأن شيئا ها هنا والضمير المرفوع بمكتسب المنفى فى المعنى شىء واحد، فكان شيئا كأنه وقع بعد غير، أى بعد النفى[2].

سأل ابن فرحون ابن حكم: هل تجد فى التنزيل ست فاءات مرتبة ترتيبها فى هذا البيت:

رأى فحب فرام الوصل فامتنعت فسام صبرا فأعيا نيله فقضى

ففكر ثم قال: نعم ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ ... ﴿١٩﴾﴾ [القلم] إلى آخرها، فمنعت له البناء فى «فتنادوا» فقال لابن فرحون: فهل عندك غيره؟ فقال: نعم، فقال لهم رسول الله - إلى آخر السورة [الآيات ١٣ - ١٥ من سورة الشمس]، فمنع له بناء الأخيرة لقراءة الواو، فقلت: امنع ولا تسند فيقال لك إن المعانى قد تختلف باختلاف الحروف، وإن كان السند لا يسمع الكلام عليه، وأكثر ما وجدت الفاء تنتهى فى كلامهم إلى هذا العدد سواء بهذا الشرط وبدونه، كقول نوح عليه السلام، ﴿... فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ ... ﴿٧١﴾﴾ [يونس]، وكقول امرئ القيس:

غشيت ديار الحى بالبكرات

(١) فى الأصل: «لا» والمثبت رواية نفح الطيب.

(٢) نفح الطيب ٥/٢٢٨.

البيتين[1].

لا يقال: فالحب سابع لأنا نقول: إنه عطف على عاقل المجرد منها، ولعل حكمة الستة أنها أول الأعداد التامة، كما قيل فى حكمة خلق السموات والأرض فيها. وشأن اللسان عجيب[2].

وقوله فى هذا البيت: فحب لغة قليلة جرى عليها محبوب كثيرا حتى استغنى به عن محب، فلا تكاد تجده إلا فى قول عنترة:

ولقد نزلت فلا تظنى غيره  منى بمنزلة المحب المكرم

ونظيره محسوس من حس[3]، والأكثر أحس ولا تكاد تجد محسا، وهذا التوجيه أحسن[4] من قول القرافى فى شرح التنقيح إنهم أجروا محسوسات مجرى معلومات لأن الحس أحد طرق[5] العلم[6].

سمعت ابن حكم يقول: كتب بعض أدباء فاس إلى صاحب له:

ابعث إلى بشىء  مدار فاس عليه

وليس عندك شىء  مما أشير إليه

---

(١) نفح الطيب ٥/ ٢٢٨ والبيتان هما قوله:

غشيت ديار الحى بالبكرات  فعارمة فيرقة العبرات

الغول فحليت فأكناف منعج  إلى عاقل فالجب ذى الأمرات

(٢) نفح الطيب ٥/ ٢٢٩.

(٣) تحرف فى المطبوع إلى: «حسن» وصوابه من نفح الطيب.

(٤) فى المطبوع: «أحسّ» والمثبت رواية نفح الطيب.

(٥) فى المطبوع: «الطرق» والمثبت رواية نفح الطيب.

(٦) نفح الطيب ٥/ ٢٢٩.

فبعث إليه ببطة من مرى[1] - يشير بذلك إلى الرياء[2].

وحدثت أن قاضيها أبا محمد عبد الله بن أحمد بن الملجوم، حضر وليمة، وكان كثير البلغم، فوضع بين يديه صهره أبو العباس بن الأشقر غضارا من اللون المطبوخ بالمرى لمناسبته لمزاجه، فخاف أن يكون قد عرض له بالرياء، وكان ابن الأشقر يذكر بالوقوع فى الناس، فناوله القاضى غضار المقروض، فاستحسن الحاضرون فطنته[3].

ومنهم عالم الصلحاء، وصالح العلماء، وجليس التنزيل، وحليف البكاء والعويل، أبو محمد عبد الله بن عبد الواحد بن إبراهيم بن الناصر المجاصى، خطيب جامع القصر الجديد، وجامع خطتى التحديث والتجويد[4]، ويسميه أهل مكة البكاء، ولما قدم أبو الحسن على ابن موسى البحيرى، سأل عنه فقيل له: لو علم بك أتاك، فقال: أنا آتى من سمعت

---

(١) البطة: إناء كالقارورة يعمل على شكل بطة، والمرى - بتشديد الراء - أنواع من مستحضرات تتخذ فى صنع الأطعمة منها المرى النقيع والطيب ومرى الخبز ومرى الحوت. وبعض أنواعه يصنع من عصير العنب بالأفاويه دون خبز محرق، والعامة تصنعه من العسل المحرق والخبز المحرق وغيرهما. ويقول دوزى: إنه مركب يصنع من الدقيق والملح والعسل والتمر وأشياء أخرى. ويقول ابن البيطار: إن نوعًا منه يعمل من السمك المالح واللحوم المالحة، وينقل عن الجاحظ قوله: «المرى هو جوهر الطعام وروح البارد المستظرف والحار المستنظف...»

(انظر قاموس دوزى «مادة مرى» ومفردات ابن البيطار ٤/ ١٤٩ وكتاب الطبيخ ٨٢ ومواضع أخرى منه).

(٢) نفح الطيب ٥/ ٢٢٩.

(٣) نفح الطيب ٥/ ٢٣٠، وتحرف فى المطبوع: «...بن أحمد بن الملجوم» إلى: «...المجوم».

(٤) فى الأصل: «التجديد» والمثبت رواية نفح الطيب.

سيدى أبا زيد الهـزميرى يقول له - لأول ما رآه ولم يكن يعـرفه قبل ذلك - مرحبا بالفتى الخاشع، أسمعنا من قراءتك الحسنة[١].

دخلت عليه بالفقيه أبى عبد الله الـسطى فى أيام عيد، فقدم لنا طعاما، فقلت له: لـو أكلت معنا، فرجـونا بذلك ما يرفع من حـديث: من أكل مع مغـفور غفر له، فـتبسم وقال لى: دخـلت على سيدى أبى عبـد الله الفاسى بالإسكندرية، فقدم طعاما، فـسألناه عن هذا الحديث، فقال لى: دخلت على شرف الدين الدمياطى، فقدم لى طعامـا فسألته عن هذا الحديث، فقال: وقع فى نفسى منه شىء، فرأيت النبى - ﷺ فى المنام، فسألته عنه، فقال لى: لم أقله، وأرجو أن يكون كذلك[٢].

وصافحته بمصافحة الشيخ أبا عبد الله زيان بمصافحته أبا سعيد عثمان بن عطية الصـعيدى، بمصـافحتـه أبا العباس أحـمد الملثم، بمصافـحته المعـمر، بمصافحته رسول الله - ﷺ[٣].

وسمعته يحدث عن شيخه أبى محمد الدلاصى، أنه كان للملك العادل مملوك اسمه محمد، فكان يخـصه لدينه وعقله بالنداء باسمه، وإنما كان ينعق بمماليكه: يا ساقى، يا طبـاخ، يا مزين، فنادى به ذات يوم: يا فراش، فظن ذلك لموجـدة عليه، فلـما لم ير أثر ذلك، وتصـورت له به خلوة سـأله عن مخالفته لعادته معه، فـقال: لا عليك كنت حينئذ جنبا، فكرهت ذكر رسول الله - ﷺ - على تلك الحالة[٤].

---

(١) نفح الطيب ٥/ ٢٣٠.

(٢) نفح الطيب ٥/ ٢٣٠.

(٣) نفح الطيب ٥/ ٢٣٠.

(٤) نفح الطيب ٥/ ٢٣١.

نقلت من خط المجاصى ثم قرأته عليه، فحدثنى قال: حدثنى القاضى أبو زكرياء يحيى بن محمد بن يحيى بن أبى بكر بن عصفور، قال: حدثنى جدى يحيى المذكور، أخبرنا محمد بن عبد الرحمن التجيبى المقرئ بتلمسان، حدثنا الحافظ أبو محمد - يعنى والله أعلم - عبد الحق الإشبيلى. حدثنا أبو غالب أحمد بن الحسن المستعمل. حدثنا أبو الفتوح: عبد الغافر بن الحسين ابن أبى الحسن بن خلف الألمعى، أخبرنا أو نصر أحمد بن إسحاق النيسابورى، أملى علينا أبو عثمان إسماعيل بن عبد الرحمن الصابونى، حدثنا محمد بن على بن الحسين العلوى، حدثنا عبد الله بن إسحاق اللغوى - وأنا سألته - حدثنا إبراهيم بن الهيثم البلدى، حدثنا عبد الله بن نافع، عن عيسى بن يونس، عن الأعمش، عن أبى وائل، عن عبد الله بن مسعود، قال: قال رسول الله - ﷺ: قال لى جبريل: ألا أعلمك الكلمات التى قالهن موسى حين انفلق البحر، قلت: بلى، قال: قل: اللهم لك الحمد، وإليك المشتكى، وبك المستغاث، وأنت المستعان، ولا حول ولا قوة إلا بالله. قال ابن مسعود، ما تركتهن منذ سمعتهن من رسول الله - ﷺ، ثم تسلسل الحديث على ذلك كل أحد من رجاله - يقول: ما تركتهن منذ سمعتهن من فلان - لشيخه، وقد سمعت المجاصى يكررها كثيرا وما تركتهن منذ سمعتهن منه[1].

وأنشدنى المجاصى وقال: أنشدنى نجم الدين الواسطى، وقال: أنشدنى شرف الدين الدمياطى وقال: أنشدنى تاج الدين الأرموى مؤلف «الحاصل» وقال: أنشدنى الإمام فخر الدين لنفسه[2]:

(١) نفح الطيب ج٥ ص ٢٣١.

(٢) نفح الطيب ج٥ ص ٢٣٢.

نهاية إقدام العقول عقال وأكثر سعى العالمين ضلال
وأرواحنا فى وحشة من جسومنا وحاصل دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا
وكم من رجال قد رأينا ودولة فبادوا جميعا مسرعين وزالوا
وكم من جبال قد علت شرفاتها رجال فماتوا والجبال جبال

وتوفى المجاصى فى العشر الآخر من شهر ربيع الأول من عام أحد وأربعين(١).

ومنهم الشيخ الشريف القاضى الرحلة المعمر، أبو على حسن بن يوسف بن يحيى الحسينى السبتى، أدرك أبا الحسين بن أبى الربيع وأبا القاسم العزفى، واختص بابن عبيدة وابن الشاط، ثم رحل إلى المشرق فلقى ابن دقيق العيد وحَلْبته، ثم قفل فاستوطن تلمسان - إلى أن مات فيها سنة أربع وخمسين أو ثلاث وخمسين وسبعمائة. قرأ علينا حديث الرحمة، وهو أول حديث سمعته منه. قال: حدثنا الحسن بن على بن عيسى بن الحسن اللخمى - وهو أول حديث سمعته منه. قال: حدثنا على بن المظفر بن القاسم الدمشقى - وهو أول حديث سمعته منه، قال: حدثنا أبو الفرج محمد بن عبد الرحمن بن أبى العز الواسطى - وهو أول حديث سمعته منه، قال: حدثنا أبو العز عبد المغيث بن زهير - وهو أول حديث سمعته منه، قال: حدثنا زاهر بن طاهر بن محمد الشحامى - وهو أول حديث سمعته منه.

(١) نفح الطيب ج٥ ص ٢٣٢.



obeikandi.com

(ح)[1] قال الحسن بن على: وحدثنا أيضا - عـاليا - الحسن بن محمد ابن محمد البكرى - وهو أول حديث سمعتـه منه، أخبرنا أبو الفتوح محمد ابن محـمد بن محـمد بن الجنيد الصـوفى - وهو أول حديث سـمعناه منه، حدثنا زاهر بن طاهر - وهو أول حديث سـمعته منه، حدثنا أبو الفـضل عبد الرحمـن بن أبى الفضـائل عبد الوهاب بـن صالح عرف بابـن المعزم[2] إمام جامع همـذان بها - وهو أول حديث سـمعتـه منه - حدثنا أبو منصور عـبد الكريم بن محـمد بن حامد المعروف بابن الخـيام - وهو أول حديث سمـعته منه، حدثنا أبو صـالح أحمد بن عبـد الملك - وهو أول حديث سمعـته منه حفظا، حدثنا أبو الطاهر مـحمد بن محمـد بن مخمش الزيادى - وهو أول حديث سمعته منه، حدثنا أبو حامد أحـمد بن محمد بن محمد بن يحيى بن هلال البزار - وهو أول حديث سـمعته منه، حدثنا عبـد الرحمن بن بشر بن الحكم - وهو أول حديث سـمعته منه، حـدثنا سفيان بن عـيينة - وهو أول حديث سمـعته منه، عن عمرو بن دينار، عن أبى قابوس مـولى لعبد الله بن عمرو بن العـاص، عن عبد الله بن عمـرو بن العاص، أن رسول الله - ﷺ قال: الراحـمون يرحـمهم الرحـمن، ارحموا أهل الأرض يرحـمكم من فى السماء[3].

(ح). وحـدثنى الشريف أيـضا كـذلك قال: حـدثنى السلفى كـذلك بأسانيده المشهورة فيه. وهذا الحديث أخرجه الترمذى.

---

(١) جرت عـادة علماء مصطلح الحـديث - إذا كان للحديث إسنادان فـأكثر. وجمـعوا بين الأسانيـد فى متن واحد - أنهم إذا انتقلـوا من إسناد إلى إسناد آخر، كتـبوا بينهمـا حاء مفردة مهملة كذا (ح) اختصاراً من كلمة «تحويل».

(٢) فى نفح الطيب: «المغرم».

(٣) نفح الطيب ٥/ ٢٣٢.

وقال حديث حسن صحيح. قال لى الشريف: قال لى القاضى أبو العباس الرندى، لما قدم أبو العباس بن الغماز من بلنسية، نزل بجاية، فجلس بها فى الشهود مع عبد الحق بن ربيع، فجاء عبد الحق يوما وعليه برنس أبيض وقد حسنت شارته وكملت هيئته، فلما نظر إليه ابن الغماز أنشده:

لبس البرنس الفقيه فباهى وأرى[1] أنه المليح فتاها

لو زليخا رأته حين تبدى لتمنته أن يكون فتاها[2]

وبه أن ابن الغماز جلس لارتقاب الهلال بجامع الزيتونة، فنزل الشهود من المئذنة وأخبروا أنهم لم يُهِلّوه، وجاء حفيد له صغير، فأخبره أنه أَهَلَّه، فردهم معه فأراهم إياه، فقال: ما أشبه الليلة بالبارحة! وقع لنا مثل هذا مع أبى الربيع بن سالم، فأنشدنا فيه:

توارى هلال الأفق عن أعين الورى وأرخى حجاب الغيم دون محياه

فلما تصدى لارتقاب شقيقه تبدى له دون الأنام فحياه[3]

وقال - رحمه الله: سمعت الشريف يقول: أول زجل عمل فى الدنيا:

بالله يا طير مدلل مر بى وسط القفار

إياك نجدك لعاده ترمى حجيره فى دارى[4]

ومنهم قاضى جماعتها، وكاتب خلافتها، وخطيب جامعها، أبو عبد الله محمد بن منصور بن على بن هدية القرشى، من ولد عقبة بن عامر

(١) فى نفح الطيب: «ورأى».

(٢) نفح الطيب ٥/ ٢٣٣.

(٣) نفح الطيب ٥/ ٢٣٤.

(٤) نفح الطيب ٥/ ٢٣٤.

الفـهرى، نزلهـا سلفه قـديما، وخلـفه بهـا إلى الآن، توفى فى أواسط سنة خمس وثلاثين وسبعـمائة. وشهد جنازته سلطانها يومـئذ أبو تاشفين، وولى ابنه أبا على منصورا - مكانه - يومئذ، ولما ثقل لسانه، دعا ابنه هذا فقال له: اكتب هذين البيتين، فإنى نظمتهما على هذه الحالة، فكتب:

إلهى مضت للعـمر سبعـون حجة جنيت بـهـا لما جـنيت الدواهيـا

وعـبـدك قـد أمـسى عـليل ذنوبه فجد لى برحـمى منك نعم الدواهيا[1]

ولما ورد الأديب أبو عـبـد الله محـمـد بن عبـد الرحـمن المكودى من المغرب، رفع إليه قصيدة أولها:

سرت والدجى لم يبق إلا يسـيرها نسيم صـبا يحيى القلوب مسـيرها

وفيها الأبيات العجاب التى سارت سير الأمثال، وهى قوله:

وفى الكلة الحمـراء حمراء لو بدت لثكـلى لولى ثكـلهـا وثبـورها

فما بسوى مثوى لها من سوى القنا خيـام ومن بيض الصفاح سـتورها

وما بـسوى صدق الـغرام أرومـها ولا بسـوى زور الخـيـال أزورها

فأحـسن إليه، وكلم السلطان حـتى أرسل جرايتـه عليه، وقد شـهدت المكودى وهذه القصيدة تقرأ عليه[2].

ومنهم القاضـى أبو عبد الله مـحمد بن أحـمد بن على بن أبى عـمرو التمـيمى، أدرك ابن زيتون، وأخـذ عن أبى الطاهر بن سرور وحَلْبـته، وعنه

(١) نفح الطيب ٥/ ٢٣٤.

(٢) نفح الطيب ٥/ ٢٣٥.

أخذت شرح المعالم له، وولى القضاء بتلمسان مرات، فلم تستفزه الدنيا، ولا باع الفقر بالغنى[1].

ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد النور.

قاضى الجماعة - بعد ابن أبى عمرو، وكانت له رحلة إلى المشرق، لقى بها جلال الدين القزوينى وحلبته، وتوفى بتونس فى الوباء العام فى حدود الخمسين وسبعمائة[2].

ومنهم الشيخ أبو عبد الله محمد بن الحسن البرونى،

قدم عليها من الأندلس، فأقام إلى أن مات. سمعته يقول: البقر العدوية، كالإبل المهملة فى الصحراء، لا يجوز أن تباع بالنظر إليها، لكن بعد أن تمسك ويستولى عليها[3].

ومنهم أبو عمران موسى بن يمويمن المصمودى، الشهير بالبخارى.

سمعت البونى يقول: كان الشيخ أبو عمران يدرس صحيح البخارى، ورفيق له يدرس صحيح مسلم، فكانا يعرفان بالبخارى ومسلم، فشهدا عند قاض، فطلب المشهود عليه الإعذار فيهما، فقال له أبو عمران: أتمكنه من الإعذار فى الصحيحين؟ فضحك القاضى وأصلح بين الخصمين.

سألته عما ضربه ابن هدية عليه من إباحته الاستياك فى رمضان بقشر الجوز، فقال لى: نعم ويبلع ريقه. تأول - رحمه الله - أن الخصال المذكورة

---

(١) نفح الطيب ٥/ ٢٣٥.

(٢) نفح الطيب ٥/ ٢٣٥.

(٣) نفح الطيب ٥/ ٢٣٦.



obeikandl.com

فى السواك إنما تجمع فى الجوز، فكان يحمل كل ما روى فيه عليه، وهذا غلط فاحش، لأن العرب لا تكاد تعرفه، ونظر إلى ما فى البخارى من قوله بعد أن ذكر جواز السواك للصائم، ولا بأس أن يبتلع ريقه - يعنى الصائم فى الجملة، فحمله على المستاك بالجوز.

وكان رحمه الله - قليل الإصابة فى الفتيا كثير المصيبات عليها[1].

ومنهم: نادرة الأعصار، أبو عبد الله محمد بن يحيى بن على بن النجار.

قال لى العلامة الآبلى: ما قرأ أحد على حتى قلت له: لم يبقى عندى ما أقول لك غير ابن النجار.

سمعت ابن النجار يقول: مر عمل الموقتين على تساوى فضلتى ما بين المغرب والعشاء والفجر والشمس، فيؤذنون بالعشاء لذهاب ثمانى عشرة درجة، وبالفجر لبقائها، والجارى على مذهب مالك أن الشفق الحمرة، وأن تكون فضلة ما بين العشائين أقصر، لأن الحمرة ثانية الغوارب والطوالع، فتزيد فضلة الفجر بمقدار ما بين ابتداء طلوع الحمرة والشمس، فعرضت كلامه - هذا على المزوار أبى زيد عبد الرحمن بن سليمان اللجائى فصوبه[2].

وذكرت يوما حكاية ابن رشد الاتفاق فى الخمر إذا تخللت بنفسها أنها تطهر، واعترضته بما فى الإكمال عن ابن وضاح أنها لا تطهر. فقال لى: لا

---

(١) نفح الطيب ٥/ ٢٣٦.

(٢) نفح الطيب ٥/ ٢٣٦.

معتبر بقول ابن وضاح هذا، لأنه يلزم عليه تحريم الخل، لأن العنب لا يصير خلا حتى يكون خمرا. و- وفيه بحث[1].

وذكرت يوما قول ابن الحاجب فيما يحرم من النساء بالقرابة، وهى أصوله وفصوله أول أصوله، وأول فصل من كل أصل وإن علا فقال: إن تركب لفظ التسمية العرفية من الطرفين حلت وإلا حرمت، فتأملته فوجدته كما قال، لأن أقسام هذا الضابط أربعة: التركب من الطرفين، كابن العم وابنة العم، مقابله: كالأب والبنت، التركب من قبل الرجل، كابنة الأخ والعم، مقابلة: كابن الأخت والخالة[2].

وأنشدت يوما عنده على زيادة اللام:

باعد أُمَّ العمر من أسيرها[3] - البيت.

فقال لى: وما يدريك أنه أراد العمر الذى أراده المعرى فى قوله:

وعمر هند كأن الله صوره عمرو بن هند يعنى الناس تعنيتا

وأضاف اللام إليه - كا قالوا، أم الحليس، قلت: ولا يندفع هذا بثبوت كون المعنية تكنى أم عمرو. لأن ذلك لا يمنع إرادة المعنى الآخر فتكون: أم عمرو، وأم العمر[4].

قال ابن النجار: بعثت بهذه الأبيات من نظمى إلى القاضى أبى عبد الله ابن هدية، فأخرج لغزها:

---

(١) نفح الطيب ٥/ ٢٣٧.

(٢) نفح الطيب ٥/ ٢٣٧.

(٣) فى المطبوع: «باعد العمر...» وهو غير صحيح عروضيًا والبيت من الرجز، وتمامه: «حراس أبواب على قصورها».

(٤) نفح الطيب ٥/ ٢٣٨.

إن حـــروف اسم مـن كلفـت به خـــــفت عـلى كل نـاطق بـفم
سـائـغـة سـهلـة مـخـارجـهـا أجل بـهـــــذا تزاد فـى الكـلم
صَـحِّـفْـه ثم أقـبلن مُـصَـحَّـفَـه فِـعْـلَ ذكى مـهـذب فـــهم
واطلبـه فى الشـعـر جـد مطلبـه تجـده كـــالصـبح لاح فـى الظلم
فـــــإن تـأملـت بت مـنه عـلى علـم وإلا فـــأنت عنـه عـــمى

واللغز سلمان وموضعه «تأملت بت» وتوفى - رحمه الله - بتونس أيام الوباء العام[1].

ومنهم الأستـاذ المقرئ الرواية الرحلة، أبو الحـسن على بن أبى بكر بن سبع[2] بن مزاحم المكناسى، ورد علينا من المـشرق، فأقام معنـا أعواما، ثم رحل إلى فاس، فتوفى بها فى الوباء العام، جمعت عليه السبع، وقرأت عليه البخارى والشاطبتين وغير ذلك، فأمـا البخارى، فحدثنى به قراءة على أحمد ابن الشحنة الحجار فى سنة ثلاثين وسبعمائة، وكان الحجار قد سمعه على بن الزبيدى فى سنة ثلاثين وستمائة، وهذا ما لا يعرف له نظير فى الإسلام، وقد قال عبد الغنى الحافظ: لا نعرف فى الإسلام من وازاه غير عبد الله بن محمد البغوى فى قدم السماع، فإنه توفى سنة سبع عشرة وثلاثمائة. قال ابن خلاد: سمـعناه يقول: حدثنا إسـحاق بن إسماعـيل الطالقانى سنة خمس وعـشرين ومائتين، وسمعه ابن الزبيدى على أبى الوقت بسنده قال لى ابن مزاحم: هذا طريق كله سماع. ةأما الشاطبـيتان، فحدثنى بهما قراءة عليه جمـيعهما، عن بدر الدين بن جـماعة بقـراءتهمـا عليه، عن أبى الفضـل هبة الله بن الأزرق

(١) نفح الطيب ٥/ ٢٣٨.

(٢) هذا المثبت من نفح الطيب، والذى فى المطبوع: «بن سبوع».

بقراءتهما عليه عن المؤلف - كذلك، وحدثنى بتسهيل الفوائد عن ابن جماعة عن المؤلف ابن مالك وغير ذلك[1].

وممن ورد عليها لا يريد الإقامة بها، شيخى وبركتى وقدوتى: أبو عبد الله محمد بن حسين القرشى الزبيدى التونسى.

حدثنى بالصحيحين قراءة لبعضهما ومناولة لجميعهما، عن أبى اليمن ابن عساكر، لقيه بمكة سنة إحدى وثمانين وستمائة بسنده المشهور. وحدثنى أيضا، أن أبا منصور العجمى حدثه بمحضر الشيخين، والده حسين وعمه حسن، وأثنى عليه دينا وفضلا - أنه أُدخل ببعض بلاد المشرق على المعمَّر أدخله عليه بعض ولد ولده، فألقاه ملفوفا فى قطن، وسمع له دويا كدوى النحل، فقال له: ألقيت رسول الله - ﷺ ورأيته؟ قال: نعم، قلت ليس فى هذا ما يستراب منه إلا الشيخ المعمر، فإنا لا نعرف حاله، فإن صح، فحديثنا عنه ثلاثى، وقد تركت سنة خمس وأربعين بمصر رجلا يسمى بعثمان، معه تسعون حديثا، يزعم أنه سمها من المعمر. وقد أخذت عنه وكتبت منه، فهذا ثُنائى[2]، وأمر المعمر غريب، والنفس أميل إلى نفيه[3].

ومنهم إمام الحديث والعربية، وكاتب الخلافة العثمانية والعلوية، أبو محمد عبد المهيمن بن محمد الحضرمى السبتى.

جمع فأوعى، واستوعب أكثر المشاهير وما سعى، فهو المقيم الظاعن، الضارب القاطن، سألنى عن الفرق بين علم الجنس واسم الجنس، فقلت له: زعم الخسروشاهى أنه ليس بالديار المصرية من يعرفه غيره، وأنا أقول: ليس

---

(١) نفح الطيب ٥/ ٢٣٨.

(٢) هذا المثبت من نفح الطيب، والذى فى المطبوع: «ثنانى».

(٣) نفح الطيب ٥/ ٢٣٩.

فى الدنيا عالم إلا وهو يعلمه غـيره، لأنه حكم لفظى أوجب تقديره المحافظة على ضبط القوانين كعـدل عمر ونحوه، فاستحـسن ذلك، وكان ينكر إضافة الحول إلى الله عز وجل، فـلا يجيز أن يقال بحـول الله وقوته، قال: لأنه لم يرد إطلاقـه، والمعنى يقتـضى امتناعـه، لأن الحول كالحـيلة أو قريب مـنها، وتوفى بتونس أيام الوباء العام[1].

ومنهم الفقيه المحقق الفرضى المدقق، أبو عبد الله محمد بن سليمان[2] ابن على السطى.

قرأت عليه كتاب الحوفى علمـا وعملا، قال لى فى قول ابن الحاجب: والثمن والثلـث والسدس من أربعة وعـشرين - هذا لا يصح، إذ لا يجـتمع الثلث والثـمن فى فريضـة، وقد سـبقه إلى هذا الـوهم صاحب المقـدمات، وسـألت عنه ابن النجار فـقال لى: إنما أراد المـقام لأنه يجـتمع مع الثلثـين، والإنصاف أنه لا يحسن التعبير بما لا تصح إرادة نفسه عن غيره، فكان الوجه أن يقـول: والثلثان أو ومـقـام الثلث ونحو ذلـك، لأن الثلث إنما يدخل هنا تقديرا لا تحقيقا - كمـا فى الجواهر. وانظر باب المدبر من كتاب الحوفى، فإن فيـه وافقة السـبعة لعـدد لا توافقه، فـهو من باب الفرض، وعليـه ينبغى أن يحمل كلام ابن الحاجب[3].

ومنهم: الأستاذ أبو عـبد الله الرندى. والقاضى أبو عبد الله مـحمد بن على بن عبد الرازق الجزولى. والقاضى أبو إسـحاق إبراهيم بن عبد الرحمن ابن أبى يحيى - فى كثير من الخلق. فلنضرب عن هذا[4].

---

(١) نفح الطيب ٥/ ٢٤٠.

(٢) هذا المثبت من نفح الطيب، والذى فى المطبوع: «أبو عبد الله بن سليمان».

(٣) نفح الطيب ٥/ ٢٤٠.

(٤) نفح الطيب ٥/ ٢٤١.

ومن شيوخى الصلحاء الذين لقيت بها، خطيبها الشيخ أبو عثمان سعيد ابن إبراهيم بن على الخياط.

أدرك أبا إسحاق الطيار، وقد صافحته - وأنا صغير، لأنه توفى سنة تسع وعشرين بمصافحته إياه بمصافحته الشيخ ابا تميم، بمصافحته أبا مدين، بمصافحته أبا الحسن بن حرزهم، بمصافحته ابن العربى، بمصافحته الغزالى، بمصافحته أبا المعالى، بمصافحته أبا طالب المكى، بمصافحته أبا محمد الجزيرى، بمصافحته الجنيد، بمصافحته سريا، بمصافحته معروفا، بمصافحته داود الطائى، بمصافحته حبيبا العجمى، بمصافحته الحسن البصرى، بمصافحته على بن أبى طالب، بمصافحته رسول الله - ﷺ[1].

ومنهم خطيبها المصقع، أبو عبد الله محمد بن على بن الجمال.

أدرك محمد بن رشد البغدادى. صاحب الزهر والوتريات على حروف العجم، والمذهبة، وغيرها، حدثنى عنه أنه تاب بين يديه لأول مجلس جلسه بتلمسان سبعون رجلا[2].

ومنهم الشقيقان الحاجان الفاضلان، أبو عبد الله محمد وأبو العباس أحمد، ابنا ولى الله أبى عبد الله محمد بن محمد بن أبى بكر بن مرزوق العجيسى.

كسانى محمد خرقة التصوف بيده كما كساه إياها الشيخ بلال بن عبد الله الحبشى، خادم الشيخ أبى مدين، كما كساه أبو مدين، قال محمد بن

---

(١) نفح الطيب ٥/ ٢٤١.

(٢) نفح الطيب ٥/ ٢٤٢.

مرزوق، وكان مولد بلال سنة تسع وخمسين وخمسمائة. وخدم أبا مدين - نحوا من خمسة عشر عاما - إلى أن توفى فى عام تسعين وخمسمائة، ثم عاش بعده أكثر من مائة سنة، ولبس أبو مدين من يد ابن حرزهم، ولبس ابن حرزهم من يد ابن العربى. واتصل اللباس اتصال المصافحة[1].

ومنهم أبو زيد عبد الرحمن[2] بن يعقوب بن على الصنهاجى.

المكتب، حدثنا عن قاضيها أبى زيد عبد الرحمن بن على الدكالى، أنه اختصم عنده رجلان فى شاة ادعى أحدهما أنه أودعها الآخر، وادعى أنها ضاعت منه، فأوجب اليمين على المودع [عنده] أنها ضاعت من غير تضييع. فقال: كيف أضيع وقد شغلتنى حراستها عن الصلاة حتى خرج وقتها؟ فحكم عليه بالغرم. فقيل له فى ذلك، فقال: تأولت قول عمر، ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع[3].

ومنهم أبو عبد الله محمد بن محمد القرمونى.

مكتبى الأول، ووسيلتى إلى الله عز وجل، قرأ على الشيخين أبوى عبد الله القصرى وابن حريث وحج حجات، وكان عقد بقلبه أنه كلما ملك مائة دينار عيونا، سافر إلى الحج، وكان بصيرا بتعبير الرؤيا، فمن عجائب شأنه فيه أنه كان فى سجن أبى يعقوب يوسف بن يعقوب بن عبد الحق فيمن كان من أهل تلمسان أيام محاصرته لها، فرأى أبو جمعة بن على التلاسى الجرائحى منهم كأنه قائم على سانية دائرة وجميع قواديسها يصب فى نقير فى وسطها، فجاء ليشرب، فلما اغترف الماء إذا فيه فرث ودم فأرسله، ثم اغترف

---

(١) نفح الطيب ٥/ ٢٤٢.

(٢) هذ الصواب من نفح الطيب، والذى فى المطبوع: «أبو زيد بن عبد الرحمن».

(٣) نفح الطيب ٥/ ٢٤٢، وما بين حاصرتين منه.

فإذا هو كذلك ثلاثا أو أكثر، فعدل عنه فرأى خصة ماء. وشرب منها، ثم استيقظ وهو [فى][1] النهار. فأخبره فقال: إن صدقت رؤياك فنحن عن قليل خارجون عن هذا المكان. قال: كيف؟ قال: السانية الزمان، والنقير السلطان، وأنت جرائحى تدخل يديك فى جوفه، فينالها الفرث والدم[2].

وهذا ما لا نحتاج معه، فلم يكن إلا ضحوة الغد، وإذا النداء عليه، فأخرج فوجد السلطان مطعونا بخنجر. فأدخل يده، فنالها الفرث والدم، فخاط جراحته ثم خرج فرأى خصة ماء، فغسل يديه وشرب، ثم لم يلبث السلطان أن توفى وسرحوا[3].

وتعداد أهل هذه الصفة يكثر. فلنصفح عنهم ولنختم فصل من لقيته بتلمسان بذكر رجلين هما بقيد الحياة، أحدهما عالم الدنيا: والآخرة نادرتها.

أما العالم فشيخنا ومعلمنا العلامة أبو عبد الله محمد إبراهيم بن أحمد العبدرى الآبلى التلمسانى سمع جده لأمه أبا الحسين بن غلبون المرسى القاضى بتلمسان، وأخذ عن فقهائها أبى الحسين التنسى وابنى الإمام، ورحل فى آخر المائة السابعة، فدخل مصر والشام والحجاز والعراق، ثم قفل إلى المغرب، فأقام بتلمسان مدة، ثم فر أيام[4] أبى حمو موسى بن عثمان إلى المغرب.

حدثنى أنه لقى أبا العباس أحمد بن إبراهيم الخياط، شقيق شيخنا أبى عثمان المتقدم ذكره، فشكا له ما يتوقعه من شر أبى حمو، فقال له: عليك

(١) تكملة من نيل الابتهاج.

(٢) نفح الطيب ٥/ ٢٤٣.

(٣) نفح الطيب ٥/ ٢٤٣، والإحاطة ٢/ ٢٠١، ونيل الابتهاج، ج٢/ ٨٠.

(٤) فى المطبوع: «أمام» والمثبت رواية النفح.

بالجبل، فلم يدر ما قال حتى تعرض له رجل من غمارة، فعرض عليه الهروب به، قال: فخفت أن يكون أبو حمو قد دسه على، فتنكرت له فقال لى: إنما أنا أسير بك على الجبل، فتذكرت قول أبى إسحاق، فواطأته وكان خلاصى على يده، ولقد وجدت العطش فى بعض مسيرى معه، حى غلظ لسانى، واضطربت ركبتاى فقال لى، وإن جلست قتلتك لئلا أفتضح بك، فكنت أقوى نفسى، فمر على بالى فى تلك الحالة استسقاء عمر بالعباس وتوسله به. فوالله ما قلت شيئا حتى رفع لى غدير ماء. فأريته إياه، فشربنا ونهضنا[1].

ولما دخل المغرب. أدرك أبا العباس ابن البناء. فأخذ عنه وشافه كثيرا من علمائه، قال لى: قلت لأبى الحسن الصغير: ما قولك فى المهدى؟ فقال: عالم سلطان. فقلت: قد أبنت[2] عن مرادى، ثم سكن جبال الموحدين، ثم رجع إلى فاس، فلما افتتحت تلمسان، لقيته بها، فأخذت عنه، فقال لى الآبلى، كنت يوما مع القاسم بن محمد الصنهاجى، فوردت عليه طومارة من قبل القاضى أبى الحجاج الطرطوشى فيها:

خيرات ما تحويه مبذولة ومطلبى[3] تصحيف مقلوبها

فقال لى: ما مطلبه؟ فقلت: نارنج[4].

دخل على الآبلى - وأنا عنده بتلمسان - الشيخ عبد الله الدباغ المالقى المتطبب، فأخبرنا أن أديبا استجدى وزيرا بهذا الشطر:

---

(١) نفح الطيب ٥/ ٢٤٤.

(٢) فى الأصل: «أنبأت» والمثبت رواية نفح الطيب.

(٣) فى المطبوع: «ومطلب» والمثبت رواية نفح الطيب.

(٤) نفح الطيب ٥/ ٢٤٤.

ثم حبيب[1] قل ما ينصف

فأخذته فكتبته ثم قلبته وصحفته، فإذا هو قصبتا ملف شحمى[2].

ومر الدباغ علينا يوما بفاس، فدعاه الشيخ فلباه، فقال: حدثنا بحديث اللظافة، فقال: نعم، حدثنى أبو زكرياء بن السراج الكاتب بسجلماسة، أن أبا إسحاق التلمسانى وصهره مالك بن المرحل، وكان ابن السراج قد لقيهما، اصطحبا فى مسير، فآواهما الليل إلى مجشر، فسألا عن طالبه، فدلا فاستضافاه فأضافهما، فبسط قطيفة بيضاء، ثم عطف عليهما بخبز ولبن، وقال لهما: استعملا من هذه اللظافة حتى يحضر عشاؤكما، وانصرف فتحاورا فى اسم اللظافة لأى شىء هو منهما حتى ناما، فلم يرع أبا إسحاق إلا مالك يوقظه ويقول: قد وجدت اللظافة، قال: كيف؟ قال: أبعدت فى طلبها حتى وقعت بما لم يمر قط على سمع هذا البدوى، فضلا عن أن يراه، ثم رجعت القهقرى حتى وقعت على قول النابغة:

بمخضب رخص كأن بنانه عنم يكاد من اللطافة يعقد

فسنح لبالى أنه وجد اللطافة وعليها مكتوب بالخط الرقيق: اللين، فجعل إحدى النقطتين للطاء، فصارت اللطافة اللظافة، واللين: اللبن، وإن كان صحف عنم بغنم، وظن أن يعقد جبن فقد قوى عنده الوهم، فقال أبو إسحاق: ما خرجت عن صوبه، فلما جاء سألاه، فأخبرهما أنها اللبن، واستشهد بالبيت كما قال مالك[3].

(١) هذا المثبت فى نفح الطيب ٥/ ٢٤٥ ونيل الابتهاج ٢/ ٩٧ والذى فى المطبوع: «طبيب».

(٢) نفح الطيب ٥/ ٢٤٥.

(٣) نفح الطيب ٥/ ٢٤٥.

ولا تعجب من مـالك، فقد ورد فـاسا شيخنا أبـو عبد الله محـمد بن يحيى الباهلى - عرف بابن المسفـر - رسولا عن صاحب بجاية، فزاره الطلبة فكان فيما حدثهم أنهم كانوا على زمان ناصر الدين يستشكلون كلاما وقع فى تفسـير سورة الفـاتحة من كتـاب فخر الدين ويسـتشكله الشيخ مـعهم. وهذا نصـه: ثبت فى بعض العلوم العقـلية، أن المركب مـثل البسـيط فى الجنس، والبسيط مـثل المركب فى الفصل، وأن الجنس أقوى من الفصل، فـرجعوا به إلى الشيخ الآبلى، فتأمله ثم قال: هذا كلام مصحف، وأصله أن المركب قبل البـسيط فى الحس، والبـسيط قـبل المركب فى العقل، وأن الحس أقـوى من العقل، وأخبروا ابن المسفر فلج. فقـال لهم الشيخ: التمسوا النسخ، فوجدوه فى بعضها كما قال الشيخ: «والله يؤتى فضله من يشاء»(١).

قال لى الآبلى: لمـا نزلت تازة، بت مع أبى الحسن بن برى وأبى عـبد الله التـرجـالى، فـاحـتـجت إلى النوم، وكـرهـت قطعـهـمـا عن الكلام. فاستكشفتهما عن معنى هذا البيت للمعرى:

أقـــول لعـبد الله لما ســـقاؤنا ونحن بوادى عبد شمس وهاشم

فجـعلا يفكران فـيه، فنمت حتى أصـبح ولم يجداه، فـسألانى عنه، فقلت: معناه أقول لعبد الله لما وهى سقاؤنا ونحن بوادى عبد الشمس شم لنا برقا. قلت وفى جواز مثل هذا نظر(٢).

سمعت الآبلى يقول: دخل قطب الدين الشـيرازى والدبيران على فضل

(١) نفح الطيب ٥/٢٤٦.

(٢) نفح الطيب ٥/٢٤٦.

الدين الخونجى بـبلده - وقد تزيا بزى القـونوية. فسأله أحـدهما عن مـسألة فأجابه، فتعايا عن الفهم. وقرب التقرير فتعايا، فقال الخونجى متمثلا:

على نحت[1] المعانى من معادنها وما على لكـم أن تفـهم البـقر

فقال له: ضم التاء يا مولانا، فعرفهما فحملهما إلى بيته.

قلت: سمعت شمس الدين الأصبهانى بخانقاه قوصون[2] بمصر يقول: إن شيخه القطب توفى عام أحد عشر وسبعمائة، وله سبع وسبعون سنة وهذا يضعف هذه الحكاية - عندى[3].

سمعت الآبلى يقول إن الخونجى ولى قضاء مصر بعد عز الدين ابن عبد السلام، فقدم شاهدا كان عز الدين أخـره. فعذله فى ذلك. فقال: إن مولانا لم يذكر السبب الذى رفع يده من أجله، وهو الآن غير متمكن من ذكره[4].

سمـعت الشيخ الآبلى يحدث عن قطب الدين القـسطلانى أنه ظهر فى المائة السابـعة من المفاسـد العظام ثلاث: مذهب ابن سـبعين، وتمـلك الكفار للعراق. واستعمال الحشيشة[5].

سمعت الآبلى يقول: قال أبو المطرف بن عميرة:

فضل الجمال على الـكمال بوجهه فـالحق لا يخـفى عـلى من وَسَّطه

وبطرفـه سـقـم وسـحـر قـد أتى مـستظهـرا بهمـا على ما اسـتنبطه

(١) فى الأصل: «جلب» والمثبت رواية نفح الطيب.

(٢) هذا الصواب من نفح الطيب، والذى فى المطبوع: «بخانقة قيسوم».

(٣) نفح الطيب ٥/ ٢٤٧.

(٤) نفح الطيب ٥/ ٢٤٧.

(٥) نفح الطيب ٥/ ٢٤٧.

عـــجـــبـــا له برهانـه بشـــروطه مـعه فـمـا مقـصوده بـالسفـسطه

قال: فأجابه أبو القاسم بن الشاط فقال:

علم التـبـاين فـى النفـوس وأنهـا منهـــا مـغـلطة وغـيـــر مـــغلطهْ

فـئـة رأت وجـه الـدليل وفـرقـة أصغت إلى الشبـهات فهى مورطهْ

فـأراد جـمـعـهـا مـعـا فى ملكه هذى بمـنتـــــجـــة وذى بمغلـطهْ

يعنى قولهم فى التـام هو ما تحمل فى البرهان الفـصل. وأخبار الآبلى وأَسْمِعَتِى منه تحتمل كتابا، فلنقف على هذا القدر منها(١).

وأمـا النادرة، فأبو عـبـد الله محـمـد بن أحمـد بن شـاطر الجمـحى المراكشى.

صحب أبا زيد الهزميرى كثيرا، وأبا عبد الله بن تَجِلاَّت(٢) وأبا العباس ابن البناء، وأضرابه من المراكـشيين ومن جـاورهم، ورزق بصحبة الصـالحين حلاوة القـول، فلا تكاد تجد من يسـتثقله وربما سئـل عن نفسه فيـقول: ولى مفسود(٣).

قلت له يومـا: كيف أنت؟ فـقـال: محـبوس فى الروح وقـال: الليل والنهار حـرسيان، أحدهمـا أبيض، والآخر أسود، وقد أخـذا بمجامع الخلق يجرانهم إلى يوم القيامة وإن مردنا إلى الله. وسـمعته يقول: المؤذنون يدعون أولياء الله إلى بيته لعبادته، فلا يصدهم عن دعائهم ظلمة ولا شتاء ولا طين.

---

(١) نفح الطيب ٥/ ٢٤٧.

(٢) هذا الصواب فى نفح الطيب، والذى فى المطبوع: «تيجلات».

(٣) نفح الطيب ٥/ ٢٤٨.

ويصرفونهم عن الاشتغال بما لم يبن له، فيخرجونهم ويغلقون الأبواب دونهم[1].

ووجدته ذات يوم فى المسجد ذاكرا، فقلت: كيف أنت؟ فقال: ﴿...فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الروم] فهممت بالانصراف، فقال: أين تذهب من روضة من رياض الجنة، يقام بها على رأسك بهذا التاج[2] - وأشار إلى المنار مملوءا: الله أكبر[3].

مر ابن شاطر يوما على أبى العباس أحمد بن شعيب الكاتب - وهو جالس فى جامع الجزيرة - طهره الله - وقد ذهبت به الفكرة، فصاح به، فلما رفع رأسه إليه، قال له: انظر إلى مركب عزرائيل هذا، وأشار إلى نعش هنالك - وقد رفع شراعه، ونودى عليه: الطلوع يا غزى[4].

وأكل يوما مع أبى القاسم عبد الله بن رضوان الكاتب جلجلانا، فقال لهم أبو القاسم: إن فى الجلجلان لضربا[5] من طعم اللوز، فقال: ابن شاطر: وهل الجلجلان إلا لوزة دقة؟ وسئل عن العلة فى نضارة الحداثة، فقال: قرب عهدها بالله، قيل له: فمم تغير الشيوخ؟ فقال: من بعد العهد من الله وطول الصحبة مع الشياطين، فقيل له: فَبَخَرُ أفواههم؟ فقال: من كثرة ما تفل الشياطين فيها: وكان يسمى الصغير فأر المصطكى.

---

(١) نفح الطيب ٥/ ٢٤٨.

(٢) هذا الصواب من نفح الطيب، والذى فى المطبوع: «الباجى».

(٣) نفح الطيب ٥/ ٢٤٨.

(٤) نفح الطيب ٥/ ٢٤٨.

(٥) فى المطبوع: «لطعما» والمثبت رواية نفح الطيب.

قال لى ابن شاطر: لقيت عمى ميمونا المعروف بدبير لقرب موته وقد اصفر وجهه. وتغيرت حاله فقلت ما بالك؟.

فقال لى انسدت الزربطانة[1] فطلع الخراء - يعنى العذرة. يشير إلى الاحتقان للطبيعة.

أنشدنى ابن شاطر قال أنشدنى أبو العباس بن البناء لنفسه.

قصدت إلى الوجازة فى كلامى لعلمى بالصواب فى الاختصار
فلم أحذر فهوما دون فهمى ولكن خفت إزراء الكبار
فشأن فحولة العلماء شأنى وشأن البسط تفهيم الصغار

وأخبار ابن الشاطر عندى تحتمل كراسة، فلنقنع بهذا القدر[2].

فصل: ولما دخلت تلمسان على بنى عبد الواد تهيأ لى السفر منها، فرحلت إلى بجاية، فلقيت فيها أعلاما درجوا، فأمست بعدهم خلاء بلقعا.

فمنهم: الفقيه أبو عبد الله محمد بن يحيى الباهلى، عرف بابن المسفر. باحثته واستفدت منه. فسألنى عن اسم كتاب الجوهرى. فقلت له: من الناس من يقول: الصحاح بالكسر. ومنهم من يفتح، فقال: إنما هو بالفتح بمعنى الصحيح كما ذكره فى باب صح، قلت: ويحتمل أن يكون مصدر صح، وكتب لبعض أصحابه رسالة صدرها بهذين البيتين:

(١) فى هامش المطبوع: «الزربطانة: مجمع المياه القذرة يسد بزرب وشبهه وفى فاس حى يعرف اليوم بالزربطانة».
(٢) نفح الطيب ٥/ ٢٤٩.

وصلت صحيفتكم فهزت معطفى فكأنما أهدت كئوس القرقف

وكأنها نيل الأمانى لخائف أو وصل محبوب لصب مدنف[1]

ومنهم قاضيها: أبو عبد الله محمد بن الشيخ أبى يوسف يعقوب الزواوى.

فقيه ابن فقيه، كان يقول: من عرف ابن الحاجب أقرأ به المدونة، قال: وأنا أقرأ به المدونة[2].

ومنهم أبو على حسين بن حسين، إمام المعقولات - بعد ناصر الدين[3].

ومنهم: خطيبها أبو العباس أحمد بن عمران، وكان قد ورد تلمسان، وأورد بها على قول ابن الحاجب فى حد العلم: صفة توجب تمييزا لا يحتمل النقيض - الخاصة إلا أن يزاد فى الحد لمن قامت به، لأنها إنما توجب فيه تمييزا لا تمييزا، وهذا حسن[4].

ومنهم الشيخان أبو عزيز، وأبو موسى بن فرحان وغيرهم من أهل عصرهم، ثم رحلت إلى تونس، فلقيت بها قاضى الجماعة وفقيهها، أبا عبد الله بن عبد السلام، فحضرت تدريسه، وأكثرت مباحثته، ولما نزلت بظاهر تلقائى رجل من الطلبة، فسألنى عن هذه الآية: ﴿... **وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ** ... ﴿٦٧﴾﴾ [المائدة] فإن ظاهرها أن الجزاء هو الشرط - أى: وإن لم

(١) نفح الطيب ٥/ ٢٤٩.

(٢) نفح الطيب ٥/ ٢٥٠.

(٣) نفح الطيب ٥/ ٢٥٠.

(٤) نفح الطيب ٥/ ٢٥٠.



obeikandi.com

تبلغ، فما بلغت، وذلك غير مفيد، فقلت: بل هو مفيد - أى: وإن لم تبلغ فى المستقبل، لم ينفعك تبليغك فى الماضى، لارتباط أول الرسالة بآخرها، كالصلاة ونحوها، بدليل قصة يونس، فعبر بانتقاء ماهية التبليغ عند انتقاء المقصود منه، إذ كان إنما يطلب له ولا يعتبر بدونه، كقوله عليه السلام: لا صلاة إلا بطهور(١).

ثم اجتمعت بابن عبد السلام بجامع بتونس، فسألته عن ذلك، فلم يزد على أن قال هذا مثل قوله عليه السلام، فمن كانت هجرته إلى الله - الحديث. وقد علمت ما قال الشيخ تقى الدين فيه. قلت: كلام تقى الدين لا يعطى الجواب عن الآية - فتأمله(٢).

وقاضى المناكح أبا محمد الأجمى - وهو حافظ فقهائها فى وقته، والفقيه أبا عبد الله بن هارون، شارح ابن الحاجب فى الفقه والأصول، والخطيب أبا عبد الله بن الستار، وحضرت تدريسه بمدرسة المعرض. والعلامة أبا عبد الله بن الجياب الكاتب والفقيه أبا عبد الله بن سلامة. والشيخ الصالح أبا الحسن المنتصر. وارث طريقة الشيخ أبى محمد المرجانى. آخر المذكورين بإفريقية(٣).

ورأيت ابن الشيخ المرجانى فحدثنى أبو موسى بن الإمام - أنه أشبه به من الغراب بالغراب!(٤).

---

(١) فى المطبوع: «قسطنطينة» والمثبت رواية نفح الطيب.

(٢) نفح الطيب ٥/ ٢٥٠.

(٣) نفح الطيب ٥/ ٢٥١.

(٤) نفح الطيب ٥/ ٢٥١.

وسيدى أبا عبد الله الزبيدى المتقدم ذكره، وأوقفنى على خطأ فى كتاب الصحـاح وذلك أنه زعم أن السالم جلدة ما بين العـينين والأنف، قال: ومنه قول ابن عمر فى ابنه سالم - رضى الله عنه:

يديـرونني عن ســـالم وأديـرهم وجلدة بين الـعـين والأنف سـالم

قـال: وهذا أراد عـبد الملـك - حيث كـتب إلى الحـجـاج: أنت منى كسالم، وهذا خطـأ فاحش، وكان يلزمه أن يسمـيها بالعمـارة أيضا لقوله - عليه الصـلاة والسلام: عمارة جلدة مـا بين عينى وأنفى، وإنما المراد بمثل هذا القرب والتحمد[1].

ولقيت بتونس غير واحد من العلماء والصلحاء يطول ذكرهم، ثم قفلت إلى المغرب يسـايرنى رجل من أهل قسنطينة[2] يعرف بمـنصور الحلبى، فـما لقيت رجـلا أكثر أخبـارا ولا أظرف نوادر منه، فممـا حفظته من حـديثه أن رجلا من الأدباء، مر برجل من الغرباء، وقد قام بين ستة أطفال، جعل ثلاثة عن يمينه، وثلاثة عن شماله، وأخذ ينشد:

ما كنت أحـسب أن أبقى كذا أبدا أعـيش والدهر فى أطرافـه حـتف

سـاس بســـتـة أطفـال تـوسطهم شخصى كأحـرف ساس وسطها ألف

قال: فـتقدمت إلـيه وقلت: وأين تعريقـة السين؟ فـقال: طالب ورب الكعبـة، ثم قال للآخـر من جهة يمـينه: قم فقـام يجر رجله كـأنه مبطول، فقال: هذا تمام تعريقة السين[3].

---

(١) نفح الطيب ٥/ ٢٥١.

(٢) فى المطبوع: «القسطنطينة» والمثبت رواية نفح الطيب.

(٣) نفح الطيب ٥/ ٢٥٢.

ثم رحلت[1] من تلمسان إلى المغرب، فلقيت بفاس الشيخ الفقيه الحاج أبا إسحاق إبراهيم بن عبد الله بن عبد الرحيم اليزناسنى والشيخ الفقيه أبا محمد عبد المؤمن الجاناتى، والشيخ الفقيه الصالح: أبا زرهون عبد العزيز بن محمد القيروانى، والفقيه أبا الضياء مصباح بن عبد الله اليالصوتى وكان حافظ وقته، والفقيه أبا عبد الله بن عبد الكريم، وشيخ الشيوخ أبا زيد عبد الرحمن بن عمران الجزولى، والأستاذ أبا العباس المكناسى، وكنت لقيت الأستاذ أبا العباس ابن حزب الله، والأستاذ أبا عبد الله محمد بن القصار بتلمسان، ولقيت غير هؤلاء ممن يكثر عددهم[2].

وكنت لقيت بتازى الفقيه أبا عبد الله بن عطية، والأستاذ ابا عبد الله المجاصى. والأستاذ أبا الحسين الجيار[3]. وغيرهم.

ثم بلغت بالرحلة إلى أغمات، ثم وصلت إلى سبتة، فاستوعبت بلاد المغرب، ولقيت بكل بلد من لابد من لقائه من علمائه وصلحائه، ثم قفلت إلى تلمسان فأقمت بها ما شاء الله، ثم أعملت الرحلة إلى الحجاز، فلقيت بمصر الأستاذ أثير الدين أبا حيان الغرناطى، رويت عنه واستفدت منه، وشمس الدين الأصبهانى الآخر، وشمس الدين بن عدلان، وقرأ على بعض شرحه لكتاب المازنى، وناولنى إياه. وشمس الدين بن اللبان آخر المذكورين بها، والشيخ الصالح أبا محمد المنوفى فقيه المالكية بها، وتاج الدين التبريزى الأصم، وغيرهم ممن يطول ذكرهم[4]، ثم حججت، فلقيت بمكة إمام الوقت[5]

(١) فى المطبوع: «دخلت» والمثبت رواية نفح الطيب.
(٢) نفح الطيب ٥/ ٢٥٢.
(٣) هذا الصواب من نفح الطيب، والذى فى المطبوع: «أبا الحَسَن الجبار».
(٤) نفح الطيب ٥/ ٢٥٣.
(٥) هذا الصواب من نفح الطيب، والذى فى المطبوع: «أبا الموقف».

أبا عبد الله محمد بن عبد الرحمن التوزرى المعروف بخليل، وسألته يوم النحر حين وقفت بالمشعر الحرام عن بطن محِّسر لأحرك فيه الجمل، فقال لى: تمالأ الناس على ترك هذه السنة حتى نسى بتركها محلها، والأقرب أنه هذا - وأشار إلى ما يلى الجابية التى على يسار المار من المشعر إلى منى من الطريق من أول ما يحاذيها إلى أن يأخذ صاعدا إلى منى، وما رأيت أعلم بالمناسك منه، والإمام أبا العباس رضى الدين الشافعى، وغير واحد من الزائرين والمجاورين وأهل البلد. وبالمدينة - أعجوبة الدنيا أبا محمد عبد الوهاب الجبرتى وغيره(١).

ثم أخذت على الشام، فلقيت بدمشق شمس الدين بن قيم الجوزية - صاحب الفقيه ابن تيمية، وصدر الدين الغمارى المالكى، وأبا القاسم ابن محمد اليمانى الشافعى وغيرهم، وببيت المقدس الأستاذ أبا عبد الله ابن مثبت، والقاضى شمس الدين بن سالم، والفقيه المذكر أبا عبد الله ابن عثمان وغيرهم(٢).

ثم رجعت إلى المغرب فدخلت سجلماسة ودرعة، ثم قطعت إلى الأندلس فدخلت الجبل وأصطبونة ومربلة ومالقة وبلش والحامة، وانتهت بى الرحلة إلى غرناطة، وفى علم الله ما لا أعلم، وهو المسئول أن يحملنا على الصراط الأقوم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم - انتهى ما قصدناه من رحلة أشهر أسلافنا الإمام القاضى أبى عبد الله المقرى - رحمه الله - ذكرته بطولة لما فيه من الفائدة(٣).

---

(١) نفح الطيب ٥/ ٢٥٣.

(٢) نفح الطيب ٥/ ٢٥٤.

(٣) نفح الطيب ٥/ ٢٥٤.

وقد أَلَمَّ بذكر هذا الشيخ المَقَّرِى - رحمه الله تعالى - العلامة ولى الدين بن خلدون[1] - رحمه الله - فى تاريخه الكبير، وقال فيه إنه كبير العلماء بالمغرب، وذلك عندما عرف بنفسه آخر التاريخ، ونص محل الحاجة منه: ولما رحلت من تونس منتصف شعبان من سنة أربع وثمانين، أقمنا فى البحر نحوا من أربعين ليلة، [ثم] وافينا مرسى الإسكندرية يوم الفطر ولعشر ليال من جلوس الملك الظاهر - على التخت، واقتعاد كرسى الملك دون أهله بنى قلاوون، وكنا على ترقب ذلك لما كان يؤثر بقاصية البلاد من سموه لذلك وتمهيده له، وأقمت بالإسكندرية شهرا لتهيئ أسباب الحج، ولم يقدر عامئذ، فانتقلت إلى القاهرة من أول ذى القعدة، فرأيت حضرة الدنيا، وبستان العالم، ومحشر الأمم، ومدرج الذر من البشر، وإيوان الإسلام، وكرسى الملوك، تاج القصور والأواوين فى أوجه، وتزهو الخوانق والمدارس بآفاقه، وتضىء البدور والكواكب من عليائه، وقد امتلأ بساط بحر النيل نهر الجنة، ومدفع مياه السماء، يسقيهم النهل والعلل بسيحه، ويجبى إليهم الثمرات والخيرات بثجه، ومررت فى سكك المدينة تغص بزحام المارة. وأسواقها تزخر بالنعم، وما زلنا نحدث عن هذه البلدة وبعد مداه فى العمران واتساع الأحوال، وقد اختلفت عبارات من لقيناه من شيوخنا وأصحابنا بفاس، وكبير العلماء بالمغرب أبا عبد الله المقرى، فقلت له: كيف كانت القاهرة؟ فقال: من لم يرها لم يعرف عز الإسلام، فسألت شيخنا أبا العباس ابن إدريس كبير العلماء ببجاية، فقال. كأنما انطلق أهله من الحساب - يشير إلى كثرة أممه وأمنهم العواقب. وحضرت صاحبنا قاضى العسكر بفاس، الفقيه الكاتب أبا القاسم البرجى بمجلس السلطان أبى عنان - منصرفه من السفارة عنه إلى ملوك مصر وتأدية رسالته النبوية إلى الضريح الكريم سنة

(١) نقله المؤلف بنصه فى نفح الطيب ج٥ ص ٢٥٤ وما بين الحاصرتين منه.

خمس وخمسين، وسألته عن القاهرة فـقال: أقول فى العبارة عنها على سبيل الاختصار – الذى يتخيله الإنسان، إنما يراه دون الصورة التى يتخيلها، لاتساع الخيال عن كل محـسوس، إلا القاهرة، فإنها أوسع من كل ما يتخـيل فيها، فأعجب السلطان والحاضرون بذلك انتهى.

وصلى الله على سيـدنا ومولانا مـحمد وآله وصـحبه وسلم تسليـما، والحمد لله رب العالمين.

❊ ❊ ❊

obeikandl.com

## ٨ - روضة النيلوفر، فى ثناء الناس عليه وذكر بعض مناقبه التى هى أذكى من المسك الأذفر

أقول: لا سبيل إلى حصر ثناء الناس على هذا الإمام. ولكن لابد من الإلماع بالنزر اليسير والإلمام.

قال القاضى أبو البركات بن الحاج البلفيقى - رحمه الله: لما قدم أبو الفضل عياض على قرطبة، ولقى أبا الوليد بن رشد. ورأى نبله وفضل ذكائه قال: عجبا لرجل ينشأ فى البلاد البحرية على أكل السمك من أين يكون له هذا النبل والذكاء، قال: فبلغ كلامه القاضى أبا الفضل فقال: والله ما أكلت سمكا منذ عقلت. انتهى.

قال بعض الأشياخ: يريد - والله أعلم - منذ عقل أضرار السمك بالحفظ وتبليده للذهن - والله أعلم.

وهكذا ذكر غير واحد. وسمعت فى بعض المجالس العلمية ما فيه بعض مخالفته لهذا، وهو أن ابن رشد كتب إلى القاضى عياض، عجبا - ولم يزد على هذه اللفظة شيئا. فأجابه القاضى عياض بقوله: والله قط - ولم يزذ فلم يفهم الناس، فسألوا ابن رشد فقال: أردت بقولى عجبا: عجبا لرجل ينشأ فى البلاد البحرية إلى آخره. وأراد أبو الفضل عياض بقوله: والله قط - أنه لم يأكله قط. غير أنى لم أر ذلك على هذا الوجه منصوصا. وإنما هو شىء سمعته.

وأما الوجه الأول. فذكره ابن خاتمة وأبو البركات وغير واحد - والله أعلم.

وقال ولده: أخبرنى ابن عمى الزاهد، أن القاضى أبا عبد الله بن حمدين كان يقول له - وقت رحلته إليه - وحقى يا أبا الفضل إن كنت تركت فى المغرب مثلك! وقال: وأخبرنى أن أبا الحسين بن سراج قال له - وقد أراد الرحلة إلى بعض الأشياخ - لهو أحوج إليك منك إليه. وقال إن الفقيه أبا محمد بن أبى جعفر قال له: ما وصل إلينا من المغرب مثل عياض.

قال ابن الخطيب - رحمه الله - ومثل هذا كثير - يعنى ثناء الأعلام على القاضى عياض - رحمه الله.

وحكى غير واحد منهم: ابن جابر الوادى آشى - أن القاضى أبا الفضل. لما ألف كتاب الشفا. أوقف عليه شيخه الإمام الحافظ أبا بكر بن العربى - رحمهما الله تعالى، فقال له: بارك الله فيك يا أبا الفضل، واستحسنه جدا! وأثنى عليه الناس سواه، وما أحسن قول الإمام أبى عمرو المالقى - رحمه الله يمدح القاضى أبا الفضل عياضا.

ظلموا عياضا وهو يحلم عنهم ... والظلم بين العالمين قديم

جعلوا مكان الراء عينا فى اسمه ... كى يكتموه وإنه معلوم

لولاه ما فاحت أباطح سبتة ... والروض حول فنائها معدوم

قلت: تذكرت هنا من هذا المعنى، ما كتب إلى به صاحبنا الكاتب البليغ، جام أشتات الآداب، سيدى محمد المكلاتى فى شأن هذا الكتاب الموسم بـ «أزهار الرياض فى أخبار عياض» ونصه:

أتى برياض فى عياض وردها ... مظالم كانت قبل معضلة الداء

وفاضت بنيل العلم منه أصابع ... فلا تنكرن نبع الأصابع بالماء

خليلى هذى معجزات لأحمد فلا تعجبن إن رد عينا إلى الراء

ووصل هذه الأبيات بنثر نصه: تأملت ما سطره سيدنا - لا زال قلمه فرعا يشمل بظله، ويتصرف فى ثناء الثناء بمعرفته وعدله - فرأيت الكواكب الوقادة تهاوت بهذا الرياض، وسالت به المجرة نهرا فراقت منها الخلجان والحياض، فسجد لك الكلام واقترب، وبايعتك رعايا المعانى منشدة "فسمعا لأمر أمير العرب «والسلام» انتهى.

ولاخفاء أنه أشار بالبيت الأول إلى معنى أبيات المالقى الثلاثة، ثم أتى فى البيت الثانى والثالث بالعجب العجاب حسبما يدركه من له أدنى تعلق بالبلاغة، وما رأيت ولا سمعت قط بمثل هذا الاتفاق الذى اتفق له فى هذين البيتين، لا سيما قوله: إن رد عينا إلى الراء، على أن مثل هذا ليس فيه إلا ترفيع قدر النبى - ﷺ، والإشارة إلى بعض معجزاته الشهيرة على طريق التلميح، لا كما توهمه بعض الأغمار مما لا يليق ذكره - والأعمال بالنيات.

وللفقيه الأديب الماهر، أبى محمد محارب بن محمد بن محارب الوادى آشى يمدح القاضى عياضا أثناء مقامه من إنشائه:

غدا سلس القياد فما يراض وعم جميع لمته البياض

وأضحى القلب لا تصيبه هند ولا سلمى ولا الحدق المراض

ولا يشجعه طيب نسيم نجد ولا تسليه بالزهر الرياض

وأن غنى الحمام بغصن أيك فمن عض الزمان به عضاض

وقائله: أتكرع فى ثماد وقد لاحت لرائدها الحياض

إلى كم ذا تقول لكل خطب مقالة من ألم بها المخاض

وتنقبض انقباض العى حتى أضر بك السكون والانقباض
ووجد بنى عياض بالمعالى مدى الدنيا حديث مستفاض
إذا قصدوا أثاروا الجود بحرا وسالوا بالمكارم ثم فاضوا
فقلت لها: ومن منهم عياذى فقالت: ذاك سيدهم عياض
إمام زانه علم وحلم له بالخطة العليا انتهاض
يقارض من أساء بحسن صبر وأمر الدين والدنيا قراض
ففى الآداب جدول ماء مزن وفى الآراء بحر لا يخاض
ويبرم ما يروم فليس يخشى على أمر إن أبرمه انتقاض
يهيم بكل معلوة وفضل كما قد هام بالعليا مضاض
ومن تعلق حبال بنى عياض يداه فلا يضام ولا يهاض

وإذا تتبع هذا الباب، وقفت دون بلوغ مداه الألباب.

وأما مناقب الإمام أبى الفضل عياض - رحمه الله - فكثيرة، وكلها دال على ما له فى الرتبة الدينية من المزية الأثيرة، فمن ذلك ما حدث به المشيخة عن بعض الصالحين. قال: رأيت القاضى أبا الفضل - بعد موته فى المنام - وهو فى قصر عظيم جالس على سرير قوائمه من ذهب. قال: فكان يسألنى عن مسألة. فأقول له: يا سيدى، ذكر فيها فى كتابك الموسوم بـ «الشفا» كيت وكيت. قال: فكان يقول لى: أعندك ذلك الكتاب؟ فأقول له: نعم، فيقول لى: شد يدك عليه، فبه نفعنى الله وأعطانى ما تراه.

وحدث بعضهم قال: رأيت القاضى أبا الفضل فى النوم إلى جانبه رجل

طيب الرائحة، جميل الصورة، حسن الثياب - كصفة النبى ﷺ، قال الرائى: فكنت أقصد إلى سيدى عياض فأسلم عليه، فكان يقول لى: سلم على هذا فأقول له: من هذا؟ فيقول لى: هذا هو الذى نفعنى الله به.

نقلت هاتين المنقبتين من خط الشيخ الإمام أبى عبد الله سيدى محمد ابن صعد التلمسانى رحمه الله، وأظن أنه نقل ذلك عن الإمام الرحلة أبى عبد الله بن رشيد الفهرى - والله أعلم.

ومن مناقب عياض، ما رأيت بخط ابن صعد التلمسانى المذكور، ونصه: حدثوا عن عياض أنه لما توفى والده - وكان من عباد الله الصالحين. وخيار أهل العلم - ترك موروثا عنه سبعة عشر ألفا من الذهب، فتنزه عنها القاضى أبو الفضل، وتركها لأخيه - مع علمه بطيب مكسب والده، ونزاهته. انتهى.

ومن مناقبه - رحمه الله - ما ذكره السيد الفقيه أبو الحسن الوضاحى - رحمه الله فى كتابه - أن أحد الملوك رُئى فى منامه - بعد موته فى القيامة، والنار تسوق الناس إلى المحشر، وهو فى حالة حسنة، وثياب حسان، يقول الرائى: لا أقدر أن أصف حسن ثيابه، فكلما همت النار أن تلحقه أو تقرب إليه، مد إليها يده، فترجع النار عنه مسيرة خمسمائة عام، فقلت له: ماهذا؟ فقال: كنت فى الدنيا قد كتبت الشفا لعياض وحبست عليه، وكسوت عليه شرين كسوة فى كل سنة كسوة للقارئ. فلما وقفت بين يدى ربى، أمر بى إلى النار، فأنا كلما همت النار بى مددت إليها يدى، فترجع النار - كما ترى - عنى، وكسانى بكل كسوة عشرين ألف حلة من حلل الجنة، فقلت له: وما تنتظر؟ فقال: وهل تكون فى النار ثياب الجنة؟ قلت: فادخل الجنة، قال:

الرسول - ﷺ - يشفع لى ويجازى عنى أصحاب المظالم والحقوق التى وجبت على للناس، فحينئذ أدخل الجنة - لأنه حرام على أحد أن يدخل الجنة ولأحد عليه مظلمة حتى يشفع فيها - انتهى. من خط بعض الأعلام من تلاميذه الشيخ ابن غازى - رحمه الله.

وحكى أن بعض الملوك كان مسرفا على نفسه فى اللهو وما لا يرضى الله، فرفعت إليه رقعة فيها مكتوب: «حتى متى وإلى متى من هذا اللهو - والموت يطلبك»؟ فأعرض عن ذلك مدة، ثم رجع وندم، وشاور بعض خواصه فى وجه الخلاص، فدل على بعض صلحاء وقته، فلما شكا إليه، قال له: ما أرى أفضل من خدمة الرسول - ﷺ، فقال له: وبأى وسيلة أتقرب إليه - وأنا بعيد من طريقته؟ فقال له: بكتاب الشفا للقاضى عياض، ومن هناك يقع الصلح بينك وبين الرسول - ﷺ، فمن ذلك اشتغل بنسخه والعطاء عليه، وكان يقرأه دائما، ورتب فى مجلسه قارئا له، فظهرت عليه آثار القبول والمحبة شيئا بعد شىء فى باطنه، واستنار من فيض حبيبه وشفيعه، وكبر شأن ملكه، وهادته الملوك بحسن نيته - إذ الأعمال بالنيات، ورأى الرسول - ﷺ - فى المنام، وأخبره بأمور من الغيب، وأمره بأشياء امتثلها، وكان يقول: ذلك كله من بركة الشفا لعياض، نقلته ملخصا من خط من ذكر. ونقلت من خطه أيضا - مانصه: وقد تكرر السماع من علماء فاس - ولا سيما من السيد القدوة أبى عبد الله بن غازى - رحمهم الله - أنهم قالوا: رأى بعض صلحاء فاس - نفع الله بهم - فى المنام - السلطان أبا عنان وهو بحالة حسنة وثياب حسان، فقال له: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لى وأدخلنى الجنة، فقال له: وبم ذلك؟ قال: بتحبيسى على قراءة الشفا للقاضى

عياض بمساجد فاس، غفر الله لى وضمن عنى الحقوق، وهنا رجاء عظيم، وذلك قليل فى حق المصطفى - ﷺ - انتهى.

قلت: رأيت بخط الفقيه القاضى، الكاتب الرحال: أبى إسحاق إبراهيم ابن الحاج النميرى - رحمه الله - فى تاريخ له بعد الكلام - ما نصه: ثم ولى بعده ابنه المتوكل على الله أبو عنان - وهو الذى تميز بأمير المؤمنين من بنى مرين - وحده، وتلقب المتوكل، وهو الجامع لكمالات الملوك والمنفرد بما لم ينفرد به أحد منهم، وكان محبا فى العلم وأهله، يحصل المسائل العلمية، ويطالع الكتب ليله أجمع، لم تهزم له قط راية، وخلد آثارا عظيمة، وبنى بكل بلدة من بلاده - زاوية لإطعام الطعام، ولم يكن له قصد إلا فى تحصيل الأجور، واكتساب المحامد والمعالى، ورُئى فى النوم فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لى وأدخلنى الجنة، فقيل له: بصدقاتك؟ قال: لا، رجع كل ذلك إلى أربابه، وإنما نفعنى قراءتى سورة الأنعام فى كل ليلة، ورآه بعضهم أيضا فقال له: كيف حالك؟ فقال: أنا فى أتم النعم، وأكمل الخيرات بمحبتى فى آل رسول الله - ﷺ - انتهى.

وقد يجمع بين هذه الأشياء بأن جميعها حصلت به المغفرة - وفضل الله واسع، نسأله - سبحانه - أن يمن علينا بالرضوان، ويقينا فى الدارين مسالك الذل والهوان، بجاه سيدنا محمد - ﷺ.

ومن فضائل الشفا ما وقفت عليه لبعض أعلام المتأخرين من أهل فاس فى كتاب له يخاطب به السلطان الوطاسى. ونص محل الحاجة منه، ومن فضائل الشفا، مما اتفق فى زمننا هذا - وهو ما أبرزه الله فى وجهتك العجيبة، وإيالتك السعيدة - فأصبحت النفوس منشرحة يوم الخصلة المأثورة،

وغنيمة المعمورة وذلك أن السيد الفقيه، المبارك الصالح، سيدى عبد العزيز اللمطى رحمه الله ورضى عنه رأى فى منامه فى عام عشرين من هذ القرن، كأن دخل القرويين، فوجد فى وسط الجامع جمعا من الناس - وهم يطلبون الله - قال: وإذا برجل داخل على الباب الشرقى المدرج وبيده مصباح، فلما دخل واجتمع مع الناس، صار يقلع حصر المسجد قال: وإذا برجل داخل على الباب المذكور لوجهه نور، أضاء منه المسجد على برنس أبيض، فقال قائل للناس: هذا رسول الله - ﷺ - قد جاء فأتى الناس للقائه، فسلموا عليه، فدخل حتى أتى الصف الذى فيه الكرسى الذى أنا أقرأ عليه الشفاء ثم جاء إلى ناحية الكرسى، حتى وصل إليه، قال سيدى عبد العزيز - رحمه الله - وأنا على الكرسى أقول: قال الشيخ الفقيه القاضى عياض، قال الرسول عليه - الصلاة والسلام - نعم، أحسن عياض، أحسن عياض، أحسن عياض! ثم جلس مع الناس فى المجلس، فلما فرغت من القراءة، شرعت فى الدعاء، ونصب الرسول - ﷺ - يديه، فلما فرغت - يقول سيدى عبد العزيز - أتيت رسول الله - ﷺ، وقبلت يديه، وجعل يده الكريمة على كتفى، ثم قال الرسول - ﷺ - لسيدى عبد العزيز: لم أنت تكره هذا القارئ؟ ألم تعلم أنه يحبنى ويكثر من الصلاة على؟ قال: قلت: أنا تائب لله، قال: قل: أستغفر الله. فقلت: أستغفر الله، قال: قلت: يا رسول الله، أما ترى ما نحن فيه فى هذا الغرب من الغفلة؟ قال: قل لهذا المحب القارئ يقرأ الشفا فى مقام هذا الشيخ أربعين أربعاء، ولابد من النصر بإثر ذلك، قلت: ومن هذا الشيخ؟ قال: أبو جيدة، ثم قال أشياء أخرى، قال سيدى عبد العزيز للقارئ: أحمد الله - تعالى - أن خصك الرسول - ﷺ - بقراءة أوصافه، فشرعت فى القراءة فى مقام الولى المذكور، فلما كان آخر أربعاء

منها - وأنت يـاعين الزمان أعطاك الله النـصر والتمكن والأمـان بالناس على المعـمورة، فكانت هزيـمة الروم يوم الأحـد، فكان بين التـمام والنصـر يوم الخميس والجمـعة والسبت وصدق الله قول سيدى عبـد العزيز - رحمه الله، وذلك من بركة الشـفا المبارك، وبسـعادة أيامك - والحمد لله - أسـعدك الله ونفعنا وإياك بالشفا آمين - انتهى بحروفه.

وكتب بعضهم إلى الأمير على بن يوسف الوطاسى - يزعم أنه رآه يقرأ كتاب الشفا فى الجامع، فأول ذلك الوطاسى بالصدقة، لكونها شفاء.

قال صاحب «الروض الأنف، فى مـآثر على بن يوسف»: وهذه مناسبة حسنة جدا - انتهى.

وحدث الشيخ أبو محمد بن الصـائغ، أنه رأى القاضى عياضا فى النوم فى قـصر قـوائمه من ذهب، قـال: فكان يسـألنى عن مسـألة، فأقـول له: سيدى، ذكـرت فيها فى كتـاب الشفا كذا، فيـقول لى: عندك ذلك الكتاب؟ فأقول له: نعم، فيقول لى: شد عليه، فبذلك نفعنى الله - أو نحو هذا.

قال الراوى عـن ابن الصائغ المذكـور: قال لى أبو مـحمد بن الـصائغ المذكور: قد أخبرت بهذه الرؤيا ابن عـمك أبا عبد الله، فقال لى: رأى إنسان - لا أدرى أعن نفسه كنى أم عن غيره - أنه كان يرى الشيخ - رضى الله عنه - فى النوم، وإلى جانبه رجل طيب الرائحة، حـسن الملبس، جميل الصورة كهيئـة النبى - ﷺ، قال الراوى فكنت أقوم إلى الشيخ فأسلم عليـه، فيقول لى: سلم على هذا، فأقول: ومن هو؟ فـيقول لى: هذا الذى نفعنى الله به، أو نحو هذا - انتهى.

وقد قدمنا عن ابن صعد مثله، وكررته لأن هذا أتم فائدة مع ما فيه من

تسمية الرائى وغـير ذلك، على أن ابن صعد، جعلهما حكايتين مـختلفتين، وهذا جعلهما - حكاية واحدة - حـسبما لقيته على نسخة عتـيقة من الشفا، عليها خط جماعة من الأعلام - والله أعلم.

ومن مناقب الإمام القاضى أبى الفضل عياض، الداخلة فى أعمال بره، إقامته الحد على الفتح بن عبـيد الله صاحب القلائد، وذلك أنه قصد مجلس قضـائه - مخـمرا، فـتنسم بعض شهـود المجلس منه رائحـة الخمر، فـأعلم القاضى بذلك، فأمر به، فاستثـبت فى استنكاهه وحده حدا تاما. وقد حكى هذه المنقبة أبو عبد الله بن عياض، وعن نقلها صاحب المعيار، ونص ما تعلق به الغرض من كـلامه فى ذلك، وفى بعض تواريخ الأندلس، أن رجـلا كان مع حمدين وابن رشـد - حين كان يتعلمان العلم، فارتفع ابن حـمدين حين بلغ القضاء والفـتيا، وابن رشد كذلك، وخـرج هذا الرجل متخلفا، فرفـعته العامة أيام قضـاء ابن حمدين، وذكروا له أنه شرب الخمـر، فلما وقعت عينه عليه، قال له: يا شـيخ، إنك أحمق؟ فقال الرجل: ما يعرفنى غـيرك، فأمر بإرساله من أيديهم، ثـم أخذوه ثانية، وذكروا أنهـم وجدوه - ومعه الخـمر، فقـال: ما شـأنك أيها الشـيخ؟ فقال له: يا أخـى، فساد الزمـان، ومخـافة الإخـوان، ومعـاداة العوام، هـذا شأنى: فـقال لهـم: أعرف هذا مـجنونا، أرسلوه، فـقال بعـضهم لـبعض: إن هذا القـاضى لا يمكنكم منه، اقطعـوا مادته، وكـان له حمام وعتـبة أخرى يسـتغلهمـا. فأتوا إليهـما فهدمـوهما، وحملوا جمـيع أنقاضهمـا وترابهما، وبقيـتا عرصتـين كأنهما مـا عمرا قط، وقطعوا مادته من قطع معاشه، وهذا من نحـو العفو عن شارب الخمر، لقوله - عليه السلام - أقيلوا ذوى الهيئات زلاتهم. أخرجه ابن أبى شيبة والنسائى.

وهو محمول على الندب، وقد يحتمل الوجوب، وهذا عكس ما اتفق للقاضى الفاضل، أبى الفضل عياض - رحمه الله - وهى من نوادره التى اضطره الشرع إليها، إقامته حد الخمر على الفتح بن خاقان، وذلك أنه قصد إلى مجلس قضائه مخمرا، فتنسم بعض شهود المجلس منه رائحة الخمر، فأعلم القاضى بذلك، فأمر فاستثبت فى استنكاهه، وحده حدا تاما.

قال ولد القاضى - محمد بن عياض: قال لى بعض أصحابنا، بعث أبوك إلى الفتح بن خافان بعد أن أقام عليه الحد - صحبتى - ثمانية دنانير وعمامة.

وأخبرنى بعض أصحاب الفتح بن خاقان، أن الفتح قال له - بعد أن أقام عليه والدى الحد - عزمت على إسقاط اسم القاضى أبى الفضل من كتابى الموسوم بـ «قلائد العقيان»، قال: فقلت: لا تفعل وهى نصيحة، قال لى: وكيف ذلك؟ قال: فقلت له: قصتك معه من الجائز أن تنسى وأنت تريد أن تخلدها مؤرخة، فقال لى، وكيف؟ فقلت له: كل من نظر فى كتابك، يجدك قد ذكرت مثله ودونه فى العلم والصيت، فيسأل عن السبب، فيقال له، فيتوارث العلم بذلك الأصاغر عن الأكابر، قال: فتبين له ذلك وعلم صحته - انتهى.

قلت: وقريب[٢] مما وقع لابن حمدين، حكى عن القاضى أبى عبد الله محمد بن عبد الله بن أبى عيسى، قاضى الجماعة بقرطبة لعبد الرحمن الناصر، قال القاسم بن محمد كاتبه - أيام قضائه بإِلبيرة - ركبنا مع القاضى فى موكب حافل من وجوه البلد، إذ عرض لنا فتى متأدب قد خرج من بعض

(١) هذا المثبت هو الصواب، والذى فى المطبوع: «خافان» بالفاء.

(٢) المرقبة العليا ص ٦١.

الأزقة يتمـايد سكرا، فلما رأى القاضى هابه، وأراد الفرار، فخـانته رجلاه، فاستند إلى الحـائط وأطرق، فلما قرب منه القاضى، رفع رأسـه إليه ثم أنشأ يقول:

ألا أيهـا القـاضى الذى عم عـدله فـأضـحى به فى الـعـالمين فـريدا
قـرأت كـتـاب الله ألفـين مـرة فلم أر فـيـه لـلشـراب حـدودا
فـإن شـئم جلدى فـدونك منكبـا صبـورا على ريب الخطوب جليدا
وإن شـئت أن تعفـو تكن لك منة تروح بهـا فى العـالمين حـمـيـدا
وإن كنت تختـار الحدود فـإن لى لسـانا على هجـو الرجال حـديدا

قال: فلمـا سمع القـاضى شعـره، وتبين له أدبه، أعرض عـنه ومضى لشأنه - كأن لم يره - انتهى.

قال القاضى أبو الحسن[1] النباهى، الظاهر من القاضى ابن أبى عيسى، أنه ذهب إلى الأخذ فى القضية التى تضمنتـها أبيات الفتى المتأدب بقول زفر: إنّ حد الخـمر لا يقـوم بالإقرار مرة واحـدة، حتى يقـر الشارب على نفـسه بالشرب مرتين. أو بقـول الشافعى والكوفى[2]: أنه لا يحد إلا من الشـهادة على شربها أو قيئهـا، لا من الرائحة وتخيل السكر، أو ظن القاضى أن الفتى ممن لم يبلغ سن التكليف، أو قيل له عنه إنه كان مكرها، وحسب النازلة من باب درء الحدود بالشـبهـات - والله أعلم أى ذلك كان، فـلا وجه لحكم فى إسقاط حد لغـير عذر ولا تأويل، فإجماع المسلمين، منعقـد على تحريم خمر

(١) تحرف فى المطبوع إلى: «ابن» وصوابه من المرقبة العليا.
(٢) فى المرقبة ص ٦١: «والكافى».

العنب النيئ قليله وكثيره، وعلى وجوب الحد فيه، وإنما الخلاف فى التفضيل والقدر، فمذهب الجمهور من السلف والفقهاء، مالك وأبى حنيفة والثورى والأوزاعى وأحمد وإسحاق وغيرهم، أن حده ثمانون جلدة. وقال قوم - منهم أهل الظاهر: أن حده أربعون. قال الشافعى: بالأيدى والنعال، وأطراف الثياب، وعند مالك وغيره، الضرب فيه بسوط بين سوطين، وضرب بين ضربين، والحدود كلها سواء. وعند الزهرى والثورى وإسحاق وأحمد والشافعى، أن حد الخمر أضعف الحدود(١).

قال عياض فى الإكمال، ورأى مالك وبعض أصحابنا فى المدمن، عليه التغليظ بالفضيحة والطواف والسجن، واختلفوا فى المريض الذى لا يرجى برؤه، فذهب مالك والكوفيين وجمهور العلماء، أنه لا يجرى فيه إلا ما يجرى فى الصحيح ويترك حتى يبرأ أو يموت. وقال الشافعى: يضرب بعثكول نخل، يصل جميع شماريخه إليه، أو ما يقوم مقامه. والمذهب إلزام السكران جميع أحكام الصحيح. لأنه أدخل ذلك على نفسه، وهو حقيقة مذهب الشافعى، وفرق بين الشارب مختارا وبين المستكره(٢).

وأكثر العلماء ذهب إلى أن الحدود كفارة، ومنهم من وقف واحتج بقوله تعالى: ﴿ ...لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ ﴾ [المائدة]، وفى حديث: ما عز الثابت فى الصحيح، ما يدل على أن التوبة لاتسقط حد الزانى والسرقة والخمر، وإنما تنفع عند الله(٣).

---

(١) المرقبة العليا ص ٦١.

(٢) المرقبة العليا ص ٦١.

(٣) المرقبة العليا ص ٦٢.

وروى عن الشافعى، أن التوبة تسقط حد الخمر، وعلى كل تقدير، فمن الواجب على من وقع فى معصية وترتب بسببها قبله حق الله، وللناس من دم أو مال أو عرض أو انتهاك حرمة أن يبادر - أولا - إلى التوبة، ثم يرجع بعدها إلى الإقادة من نفسه للخلق والتحلل من التبعات بجهده على الوجوه المقررة فى الفقهيات. وأن يكثر من ذلك مدة حياته من العمل الصالح، ومن الدعاء والبكاء، وبخصوص فيما يرجع إلى الدماء، فالمنقول عن مالك - وقد سئل عمن كتب إليه وال فى قتل رجل فقتله، ثم أراد التنصل والتوبة، فعرض نفسه على أولياء المقتول وأخبرهم فقالوا: لسنا بقاتليك، وإنا نخاف - إن قتلناك - عاقبة ذلك، وعرض عليهم الدية، فأبوا أن يقبلوها - فكان من جوابه - رضى الله عنه - أن قال: أحب إلى أن يؤدى دينه إليهم، وأن يعتق الرقاب ويتصدق، ويكرر الحج والغزو، وإن استطاع أن يلحق بالثغور ويكون فيها أبدا حتى يموت فهو أحب إلى[1].

وفى الحديث: أقيلوا ذوى الهيئات عثراتهم. والمراد بذلك أهل المروءة والصلاح، ويبينه ما روى أن رسول الله - ﷺ - قال: تجافوا عن عقوبة ذوى المروءة والصلاح، والمأمورون بالتجافى عن زلات ذوى الهيئات عند العلماء. هم الأئمة الذين إليهم إقامة العقوبات على ذوى الجنايات، والإقالة هى فيما عدا الحدود. والزلات التى أمر بالتجافى عنها، هى ما لم يخرج بها فاعلها عن أن يكون من ذوى المروءات والهيئات التى هى الصلاح، فأما من أتى ما يوجب حدا ما، إما قذف محصنة أو ما سوى ذلك من الأشياء التى توجب الحدود، فلا يجب التجافى عنه، لأنه قد خرج بذلك عن ذوى الهيئات

(١) المرقبة العليا ص ٦٢.

والصلاح. وصار من أهل الفسق، فوجب إقامة الحد عليه، ليكون ذلك ردعا له ولغيره، رزقنا الله الاستقامة، وسلك بنا مسالك السلامة[1].

انتهى كلام النباهى. وذكرته بجملته تتميما للفائدة: وبالجملة، فما فعله القاضى عياض من إقامة الحد على الفتح، هو الحق الذى لا غبار عليه، ولا يتوجه الاعتذار إليه، وعكسه يحتاج إلى تأويل، والله يهدى من يشاء إلى سواء السبيل.

والفتح المذكور، هو إمام البلاغة والكتابة، وصاحب التآليف الشهيرة التى منها «قلائد العقيان، فى محاسن الأعيان» و«مطمح الأنفس، ومسرح التأنس، فى ملح أهل الأندلس» وغير ذلك.

وهو الفتح بن محمد بن عبيد الله، يكنى أبا نصر، ويعرف بابن خاقان، الكاتب الشهير القيسى، وهو من قرية تعرف بصخرة الوادى من قرى قلعة يحصب، خرج من موضعه وتجول فى البلاد، وبرع فى الكتابة والشعر، وامتدح الملوك، وشهر فى الأمصار، وكان مترسلا بليغا، آية من آيات الله فى البلاغة، لا يشق غباره، ولا يدرك شأوه عذب الألفاظ ناصعها، أصيل المعانى وثيقها، لعوبا بأطراف الكلام، معجزا فى باب الحلى والصفات، إلا أنه كان مقدورا عليه فى الرزق، محروما فى الدنيا على غالب عادة أهل الأدب، لا يمل من المعاقرة والقصف، حتى هان قدره، وابتذلت نفسه، وساء ذكره، لذا قال ابن الأبار فى معجم أصحاب الصدفى - إذ لم يذكره فى التكملة: لم يكن مرضيا، وحذفه أولى من إثباته[2] - انتهى.

---

(١) المرقبة العليا ص ٦٢.

(٢) معجم أصحاب الصدفى، ص ٣٠٠.

ولم يدع بلدا من بلاد الأندلس، إلا ودخله - مسترفـدا أميره، وواغلا على عليتـه، وكان كثـير الأسفار، سـريع التنقل، مرهب الشبـا، قادرا على إظهار المثـالب، وقد قال فى أبى بكر بن باجـة - الشهير بابن الصـائغ، آخر فلاسفة الإسلام بجزيرة الأندلس - علـى ما قال ابن الخطيب وغيره - ما هو مخلد فى كتابه «قلائد العقيان» إلى غابر الدهر، وبه ختم الكتاب المذكور.

وحدث بعض الأشـياخ، أن سـبب حقـده عليه، ما كـان من إزرائه به وتكذيبه إياه فى بعض المجـالس، إذ جعل ذكر مـا وصله به أمراء الأندلس، ووصف حليا - وكان يبـدو من أنفه فضلة خضراء اللون - زعمـوا، فقال له ابن باجة - فمن تلك الجواهر إذن الزمردة التى على شاربك؟ فثلبه أبو نصر، وعلى ذلك كله فهو نسيج وحده - غفر الله له. قال ابن خاتمة: لم يعرف من المعارف بغير الكتابة والشعر والآداب.

قـال الأستـاذ فى الصلة - وكان مـعـاصرا للكاتب المجـيد، المحـدث الجليل، أبى عبـد الله بن أبى الخصـال، إلا أن بطالته أخلدت به عن مـرتبه. سمع - رحمـه الله - من الأستاذ أبى على الصدفى، وأبى محمـد ابن السيد البطليوسى، والقاضى أبى بكر بـن العربى، وخططاه بذى الوزارتين، وحدث عن أبى الحسين بن سراج بحكايـات، وروى عن أبى بكر بن القصيرة، وابن اللبانة، وأبى جعفر بن سعدون الكاتب، وأبى خالد بن بشتغير، وأبى الطيب ابن زرقون، وأبى عبد الله بن خلصـة الكاتب، وأبى عبد الرحمن بن طاهر، وأبى محمد بن عبدون، وأبى الوليد بن حجاج - وغير واحد.

وروى عنه أبو عبد الله بن زرقون جميع تواليفه، وسمع كثيرا من نوادره وأخباره، وروى عنه أيضـا، أبو بكر يحيى بن محمـد الأركشى - فى آخرين يطول تعدادهم.

وألف - رحمه الله - كتبا جمة، ظهرت فيها براعته، وتبينت بلاغته وصناعته، منها: «قلائد العقيان، فى محاسن الأعيان» وكتاب «المطمح الكبير» وكتاب «المطمح الصغير» - كذا قال ابن خاتمة، وابن الخطيب، وقال ابن خلكان: «مطمح الأنفس ومسرح التأنس، فى ملح أهل الأندلس» - وهو ثلاث نسخ: كبرى. ووسطى، وصغرى، وهو كتاب كثير الفوائد، وكلامه فيه يدل على غزارة مادته[1] - انتهى.

ومن تآليفه: «راية المحاسن وغاية المحاسن» ومجموع فى ترسيله: وتوفى - رحمه الله - ذبيحا بفندق لبيب من حضرة مراكش، قيل: ليلة الأحد لثمان بقين من محرم، من عام تسع وعشرين وخمسمائة، حكاه ابن الخطيب، وقال ابن الآبار: ليلة عيد الفطر، من سنة ثمان وعشرين وخمسمائة، قال: قرأت ذلك بخط من يوثق به[2]. وهذا الذى حكاه ابن الآبار هو المعتمد - عندى، وحكى ابن خلكان أنه توفى سنة خمس وثلاثين وخمسمائة، وهو - عندى - خطأ، على أنه قد حكى القول الآخر، الذى هو سنة تسع وعشرين، وقد قيل إن قتله كان بإشارة أمير المسلمين: على بن يوسف بن تاشفين، أخى إبراهيم بن يوسف بن تاشفين، الذى ألف برسمه «قلائد العقيان» وذكره فى خطبته، وقد أشار إلى هذا ابن خلكان[3] - والله أعلم.

وبالجملة، فقد ذبح - رحمه الله - فى هذا الفندق، وعبث به فى أحد بيوت الفندق المذكور، وما شعر به إلا بعد ثلاث ليال من مقتله. ودفن بباب الدباغين من محروسة مراكش - تجاوز الله عنه.

---

(١) انظر وفيات الأعيان ج٣ ص ٤٩٨.

(٢) المعجم ص ٣٠١.

(٣) وفيات الأعيان ٣/ ٤٩٨.

ونثره – رحمه الله – شهير، وكتابته فائقة، فمما ثبت له من غير المتعارف من السلطانيات. ظهير كتبه عن بعض الأمراء لصاحب الشُرَط، ولا خفاء بإدلاله وبراعته[1]، وهو: هذا كتاب تأكيد اعتناء، وتقليد ذى منة وغناء، أمر بإنقاذه فلان – أيده الله – لفلان بن فلان – صانه الله – ليتقدم لولاية المدينة الفلانية وجهاتها، ويصوح ما تكاثف من العدوان بجنباتها، – تنويها أحظاه بعلائه. وكساه رائق ملائه، لما علمه من سنائه، وتوسمه من غنائه، ورجاه من حسن منابه، وتحققه من طهارة ساحته وجنابه، وتيقن – أيده الله – أنه مستحق بما ولاه، مستقل بما تولاه، لا يعتريه الكسل، ولا تثنيه عن المضاء الصوارم والأسل، ولم يكل الأمر منه إلى وكل، ولا ناطه بمناط عجز ولا فشل، وأمره أن يراقب الله – تعالى – فى أوامره ونواهيه، ويعلم أنه زاجره عن الجور وناهيه، وساله عما حكم به وقضاه، وأنفذه وأمضاه: ﴿يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾ [الانفطار]، فليتقدم لذلك بحزم لا يخمد توقده، وعزم لا ينفد تفقده، ونفس مع الخير ذاهبة، وعلى متن البر والتقوى راكبة، ويقدم للاحتراس من عرف اجتهاده، وعلم أرقه فى البحث وسهاده، وحمدت أعماله، وأمن تفريطه وإهماله، ويضم إليهم من يحذو حذوهم، ويقفو شأوهم، مما لا يستراب بمناحيه، ولا يصاب خلل فى ناحية من نواحيه، وأن يذكى العيون على الجناة، وينفى عنها لذيذ السناة، ويفحص عن مكامنهم، حتى يغص بالروع نفس أمنهم، فلا يستقر بهم موضع، ولا يقر منهم مخب ولا موضع، فإذا ظفر منهم بمن ظفر بحث عن باطنه، وبث السؤال فى مواضع تصرفه ومواطنه، فإن لاحت شبهة أبداها الكشف والاستبراء، وتعداها البغى والافتراء، نكله بالعقوبة أشد نكال، وأوضح له منها ما كان ذا إشكال، – بعد أن يبلغ إناه. ويقف على طرف

(١) نفح الطيب ج٧ ص ٣١.

مداه، وحد له ألا يكشف بشرة إلا فى حد يتعين، وإن جاءه فاسق أن يتبين، وأن لا يطمع فى صاحب مال موفور، وأن لا يسمع من مكشوف فى مستور، وأن يسلك السنن المحمود، وينزه عقوبته من الإفراط وعفوه من تعطيل الحدود، وإذا انتهت قصة مشكلة أخرها إلى غده، فهو على العقاب أقدر منه على رده، فقد يتبين فى وقت، ما لا يتبين فى وقت، والمعاجلة بالعقوبة من المقت، وأن يتغمد هفوات ذوى الهيئات، وأن يستشعر الإشفاق، ويخلع التكبر فإنه من ملابس أهل النفاق، وليحسن لعباد الله اعتقاده، ولا يرفض زمام العدل ولا مقاده، وأن يعاقب المجرم قدر زلته، ولا يعتز عند ذلته وليعلم أن الشيطان أغواه، وزين له مثواه، فيشفق من عثاره، وسوء آثاره، وليشكر الله على ما وهبه من العافية، وألبسه من ملابسه الضافية، ويذكره - جل وعلا - فى جميع أحواله، ويفكر فى الحشر وأهواله، ويتذكر وعدا بنجز فيه ووعيدا، "يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا" والأمير - أيده الله - ولى له - ما عدل وأقسط، وبرئ منه أن جار وقسط، فمن قرأه فليقف عند حده ورسمه، وليعرف له حق قطع الشر وحسمه، ومن وافقه من شريف أو مشروف، وخالفه فى نهى عن منكر أو أمر بمعروف، فقد تعرض من العقاب لما يذيقه وبال فعله. ﴿ ... وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ ... (٤٣) ﴾ [فاطر] - انتهى.

ومن مكاتباته الرائقة. قوله[1]: أطال الله بقاء الوزير الأجل، عتادى الأسرى. وزنادى الأورى. وأيامه أعياد. وللسعد فى زمانه انقياد: أما أنا - أدام الله عزه - فجوى عاتم، وأعيادى مآتم، وصبحى عشاء. ومالى إلا من الخطوب انتشاء، أبيت بين فؤاد خافق وطرف مسهد. نائى الملحة من مزار

(١) نفح الطيب ج٧ ص ٣٦.

العود، حين لا أرى الروض المنور، ولا أحس سهيلا إذ لاح ثم تَغَوَّر: وقد بعدت دار إلى حبيبة، ودنت منى حوادث بأدناها توذى الشبيبة، وأى عيش لمن لزم المفاوز لا يريمها، حتى ألفه ريمها، قد رمته النوائب فما اتقى، وارتقت له الجوانح فى وعور المرتقى، يواصل النوى ولا يهجر سيرا، ولا يزجر فى الإراحة طيرا، قد هام بالوطن، هيام ابن طالب بالحوض والعطن، وحن إلى تلك البقاع، حنينه إلى أثلاث القاع، ولا سبيل أن يشعب صدع بينه شاعب، أو تكملة أحجار للدار وملاعب، وليس له إلى أمين يجنح، ولا يرى أمله ينسج، قد طوى البلاد وبسطها، وتطرف الأرض وتوسطها، ولم يلف مقيلا، ولا وجد مقيلا، إلى الله أشكو ما أقاسى وأقاصى، وبيده الأقدام والنواصى، ولقاؤه موعد كل موعد، وكل معمر سيدركه يوما حمام الموعد، وأنفذته - وقد صدرت عن فلانة بعد أهوال لقيتها، وأنكال سقيتها، وسفر لقيت منه نصبا، وكدر أعقبنى وصبا، وإلى متى يعتزلنى السعد، و﴿ ... لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ ... ﴿٤﴾ ﴾ [الروم].

قال بعضهم: ومن أحسن ما رأيت له، قوله[1]: معاليك أشهر رسوما، وأعطر نسيما، من أن يغرب شهاب مسعاها، أو يجدب لرائد مرعاها، فإن نبهتك فإنما نبهت عمرا وإن استنرتك فإنما أستنير قمرا: والأمير - أيده الله - أجل من أن أعتصم فى ملكه. وأنتظم فى سلكه، فإنه حسام بيد الملك طلاقته فرنده، وشهامته حده، وقضيب فى دوحة الشرف رطيب، بشره زهره، وبره ثمره، وقد توسمت نارك لعلى أفوز منها بقبس، أو تكون كنار موسى بالواد المقدس، وعسى الأمل أن تعلو بكم قداحه، ويشف من أفقكم مصباحه فجرد - أيدك الله - صارم عزم لا يفل غروبه. واطلعْ كوكب سعد لا يخاف غروبه - انتهى.

(١) نفح الطيب ج٧ ص ٣٨.

المطمح ولنذكر بعض كلام الفتح فى المطمح، فإنى رأيت منه أوراقا بخزانة الكتب بتلمسان. ولفظه كلفظ القلائد، غير أنه زاد فى عدد الرجال، ووقفت فى مقيداتى على جملة من ذلك، وهأنا أثبته - وإن كنت لم أر الكتاب المذكور، ولم أقف منه على غير هذه الأوراق، على أنى لست على يقين أن ذلك هو المطمح، وإنما غلب على ظنى بموافقته لفظ القلائد.

فمن ذلك، قوله عند ذكر المنصور بن أبى عامر - رحمه الله - بعد كلام ما نصه[1]: وتمرس المنصور ببلاد الشرك أعظم تمرس، ومحا من طواغيتها كل تعجرف وتغطرس، وغادرهم صرعى البقاع، وتركهم أذل من وتد البقاع، ووالى إلى بلادهم الوقائع، وسدد إلى أكبادهم سهام الفجائع، وأغص بالحمام أرواحهم[2]، ونغص بتلك الآلام بكورهم ورواحهم، ومن أوضح الأمور هنالك، وأفصح الأخبار فى ذلك - أن أحد رسله كان كثير الانتياب، لذلك الجناب، فسار فى بعض مسيراته إلى غرسية صاحب البشكنش فوالى فى إكرامه، وتناهى فى بره واهتمامه، فطالت مدته فلا متنزه إلا مر عليه متفرجا، ولا موضع إلاّ سار عليه معرجا، فحل فى ذلك، أكثر الكنائس هنالك، فبينا هو يجول فى ساحتها، ويجيل العين فى مساحتها، إذ عرضت له امرأة قديمة الأسر، قويمة - على طول الكسر، فكلمته، وعرفته بنفسها وأعلمته، وقالت له: أيرضى المنصور أن ينسى بتنعمه بؤسها، ويتمتع بلبوس العافية وقد نضت لبوسها، وزعمت أن لها عدة من السنين بتلك الكنيسة محبسة، وبكل ذل وصغار ملبسة، وناشدته الله فى إنهاء قصتها، وإبراء غصتها، واستحلفته بأغلظ الأيمان، وأخذت عليه فى ذلك أوكد

(١) نفح الطيب ١/ ٤٠٣.

(٢) هذا الصواب من النفح، والذى فى المطبوع: «أوراحهم».

مواثيق الرحمن، فلما وصل إلى المنصور عـرفه بما يجب تعريفه به وإعلامه، وهو مصغ إليـه حتى تم كلامه، فلمـا فرغ من قصته، قـال له المنصور: هل وقفت هنالك على أمر أنكرته، أم لم تقف على غير ما ذكرته، فأعلمه بقصة المرأة وما خرجت عنه إليـه. وبالمواثيق التى أخذت عليه، فعتـبه ولامه، على أن لم يبدأ بها كلامه، ثم أخذ فى الجهاد من فوره، وعرض [مَنْ] مِنَ الأجناد فى نجد وغور، وأصبح غازيا على سرجـه، مباهيا مروان يوم مرجه[1]، حتى وافى ابن شانجة فى جمعه، فأخذت مهابته ببصره وسمعه، فبادر بالكتاب إليه يتعـرف ما الجنيـة، ويحلف له بأعظم ألية، أنه مـا جنى ذنبا، ولا جـفا عن مضجع الطاعة جنبا، فعنف أَرساله وقال لهم: كان قد عاقدنى ألا يبقى ببلاده مأسورة ولا مـأسور، ولو حملته فى حـواصله النسور، وقد بلغنى بعـد مقام فلانة المسلـمة بتلك الكنيسـة. ووالله لا أنتهى عن أرضـه حتى أكـتسحـها، فأرسل إليـه المرأة فى اثنتين معهـا، وأقسم أنه ما أبصـرهن، ولا سمع بهن، وأعلمه أن الكنيـسة التى أشار بعلمـها، قد بالغ فى هدمهـا، تحقيقـا لقوله، وتضرع إليه فى الأخذ فيه بطوله، فاستحيا منه، وصرف الجيش عنه، وأوصل المرأة إلى نفسه، وألحق توحشها بأنسه، وغير من حالها، وعاد بسواكب نعماه على جدبها وإمحالها، وحملها إلى قـومها، وكحلها بما كان شرد من نومها. انتهى.

ومن ذلك قوله فى المنصور أيضـا ما نصه[2]: فرد نابه لى من تقدمه، وصرفه استـخدمه، فإنه كان أمضـاهم سنانا، وأذكاهم جنانا، وأتمهم جلالا،

(١) يعنى يوم مرج راهط.

(٢) نفح الطيب ١/ ٤٠٥.

وأظمهم استقلالا، فآل أمره إلى ما آل، وأوهم العقول بذلك المآل، فإنه كان آية الله فى اتفافق سعده، وقربه من الملك بعد بعده، بهر برفعة القدر، واستظهر بالأناة وسعة الصدر، وتحرك فلاح نجم الهدو، وتملك فأخفق بأرضه كل عدو، بعد خمول كابد منه غصصا وشرقا، وتعذر مأمول طارد فيه سهرا وفرقا، حتى أنجز له الموعود، وفر نحسه أمام تلك السعود، فقام بتدبير الخلافة، وأقعد من كان له فيها إنافة، وساس الأمور أحسن سياسة، وداس الخطوب أخشن دياسة، فانتظمت له الممالك، واتضحت له المسالك، وانتشر الأمن فى كل طريق، واستشعر اليمن كل فريق، وملك الأندلس بضعا وعشرين حجة، لم تدحض لسعادته حجة، ولم تزخر لمكوره بها حجة، لبست فيها البهاء والإشراق، وتنفست عن مثل أنفاس العراق، وكانت أيامه أحمد أيام، وسهام بأسه أشد سهام، غزا الروم شاتيا وصائفا، ومضى فيما يروم زاخرا وعائفا، فأوغل فى تلك الشعاب، وتغلغل حتى راع ليث الغاب، ومشى تحت ألويته صيد القبائل، واستجرت فى ظلها بيض الظبا وسمر الذوابل، وهو يقتضى الأرواح بغير سوم، وينتضى الصفاح على كل روم، ويتلف من لا ينساق للخلافة وينقاد، ويختطف منهم كل كوكب وقاد، حتى استبد وانفرد، وأنس إليه من الطاعة ما نفر وشرد، وانتظمت له الأندلس بالعدوة، واجتمعت له اجتماع قريش فى دار الندوة، ومع هذا لم يخلع اسم الحجابة، ولم يدع السمع لخليفته والإجابة، ظاهرا يخالفه الباطن، واسما ينافره مواقع الحكم والمواطن، وأذل قبائل الأندلس بإجازة البرابر، وأخمل بهم أولئك الأعلام الأكابر، فإنه قاومهم بأضدادهم، واستكثر من أعدادهم، حتى تغلبوا على الجمهور، وسلبوا منهم الظهور، ووثبوا عليهم الوثوب المشهور، الذى أعاد أكثر الأندلس قفرا يبابا، وملأها وحشا وذئابا، وأعراها

من الأمان، برهة من الزمان، وعلى هذه الهنة فهو وابنه المظفر كان آخر سعد الأندلس، وحد السرور بها والأنس، وغزواته فيها شائعة الأثر، رائعة كالسيف ذى الأثر، وحسبه وافر، ونسبه معافر، ولذلك قال يفخر:

رميت[1] بنفسى هول كل كريهة وخاطرت والحر الكريم يخاطر

وما صاحبى إلا جنان مشيع وأسمر خطى وأبيض باتر

وأنى لزجاء الجيوش إلى الوغى أسود تلاقيها أسود خوادر

فسدت بنفسى أهل كل سيادة وكاثرت حتى لم أجد من أكاثر

وما شدت بنيانا ولكن زيادة على ما بنى عبد المليك وعامر

رفعنا المعالى بالعوالى حديثه وأورثناها فى القديم معافر

وكانت أمه تميمية[2] فحاز الشرف بطرفيه، والتحف بمطرفيه، قال القسطلى:

تلاقت عليه من تميم ويعرب شموس تلالا فى العلا وبدور

من الحميريين الذين أكفهم سحائب تهمى بالندى وبحور

وتصرف[3] قبل ولايته فى شتى الولايات، وجاء من التحدث بمنتهى أمره بآيات، حتى صح زجره وجاء بصحبة فجره، تؤثر عنه فى ذلك أخبار، فيها عجب واعتبار، وكان أديبا محسنا، وعالما متفننا، فمن ذلك قوله - يمنى نفسه بملك مصر والحجاز، ويستدعى صدور تلك الأعجاز:

---

(١) نفح الطيب ١/ ٤٠٦.

(٢) نفح الطيب ١/ ٤٠٦.

(٣) نفح الطيب ١/ ٤٠٦.

منع العين أن تذوق المناما حبها أن ترى الصفا والمقاما[1]

لى ديون بالشرق عند أناس قد أحلوا بالمشعرين الحراما

إن قضوا نالوا الأمانى وإلا جعلوا دونها رقابا وهاما

عن قريب ترى خيول هشام يبلغ النيل خطوها والشآما

وفى سنة ثمان وستين وثلاثمائة[2]، أمر المنصور بن أبى عامر ببناء قصره المعروف بالزاهرة، وذلك عندما استفحل أمره، واتقد جمرة وظهر استبداده، وكثر حساده، وخاف على نفسه فى الدخول إلى قصر السلطان، وخشى أن يقع فى أشطان، فتوثق لنفسه، وكشف له ما ستر عنه فى أمسه، من الاعتزاز عليه، ورفع الاستناد إليه، وسما إلى ما سمت إليه الملوك من اختراع قصر ينزل فيه، ويحله بأهله وذويه، ويضم إليه رئاسته، ويتم به تدبيره وسياسته، ويجمع فيه فتيانه وغلمانه، فارتاد موضع مدينته المعروفة بالزاهرة، الموصوفة بالقصور الباهرة، وأقامها بطرف البلد على نهر قرطبة الأعظم، ونسق فيها كل اقتدار معجز ونظم، وشرع فى بنائها فى هذه السنة المؤرخة، وحشد إليها الصناع والفعلة، وجلب إليها الآلات الجليلة، وسربلها بهاء يرد العيون كليلة، وتوسع فى اختطاطها، وتولع بانتشارها فى البسيطة وانبساطها، وبالغ فى رفع أسوارها، وثابر على تسوية أنجادها وأغوارها، فاتسعت هذه المدينة فى المدة القريبة، وصار بناؤها من الأنباء الغربية، وبنى معظمها فى عامين.

(١) نفح الطيب ١/ ٤٠٦.

(٢) نفح الطيب ١/ ٥٧٨.

وفى سنة[1] سبعين وثلاثمائة، انتقل المنصور إليها، ونزلها بخاصته وعامته، فتبوأها وشحنها بجميع أسلحته وأمواله وأمتعته، واتخذ فيها الدواوين والأعمال، وعمل فى داخلها الأهراء. وأطلق بساحتها الأرحاء، ثم أقطع ما حولها لوزرائه وكتابه، وقواد وحجابه، فابتنوا بها كبار الدور، وجليلات القصور، واتخذوا خلالها المستغلات المفيدة، والمَنَازِه المشيدة، وقامت بها الأسواق، وكثرت فيها الأرفاق، وتنافس الناس فى النزول بأكنافها، والحلول بأطرافها، للدنو من صاحب الدولة، وتناهى الغلو فى البناء حوله، حتى اتصلت أرباضه بأرباض قرطبة، وكثرت بحوزتها العمارة، واستقرت فى بحبوحتها الإمارة، وأفرد الخليفة من كل شىء إلا من الاسم الخلافى، وصير ذلك هو الرسم العافى، ورتب فيها جلوس وزرائه، ورءوس أمرائه، وندب إليها كل ذى خطة بخطته، ونصب ببابها كرسى شرطته، وأجلس عليها واليا على رسم كرسى الخليفة، وفى صفة تلك الرتبة المنفية.

وكتب إلى الأقطار[2] بالأندلس والعدوة بأن تحمل إلى مدينته تلك أموال الجبايات، ويقصدها أصحاب الولايات، وينتابها طلاب الحوائج، وحذر أن يعوج عنها إلى باب الخليفة عائج، فاقتضيت لديها اللبانات والأوطار، وانحشد الناس إليها من جميع الأقطار، وتم لمحمد بن أبى عامر ما أراد، وانتظم بلبة أمانيه المراد، وعطل قصر الخليفة من جميعه، وصيره بمعزل من سامعه ومطيعه، وسد باب قصره عليه، وجد فى خبر أن لا يصل إليه، وجعل فيه ثقة من صنائعه يضبط القصر، ويبسط فيه النهى والأمر،

(١) نفح الطيب ١/ ٥٧٩.

(٢) نفح الطيب ١/ ٥٧٩.

ويشـرف منه على كل داخل، ويمنع مـا يحـذره من الدواخل، ورتب عليـه الحراس والبوابين، والسـمار والمنتابين، يلازمون حراسة من فـيه ليلا ونهارا، ويراقبون حركاتهم سرا وجهارا، قـد حجر على الخليفة كل تدبير، ومنعه من تملك قبيل أو دبير، وأقام الخليفة هشام مـهجور الفناء، محجور الغناء، خفى الذكر، عليل الفكر، مسدود الباب، محجوب الشخص عن الأحباب، لا يراه خاص ولا عـام، ولا يخاف منه بأس ولا يرجى له إنعام، ولا يعـهد منه إلا الاسم السلطانى فـى السكة والدعـوة، وقد نسـخـه ولبس أبهـتـه، وطمس بهـجته، وأغـنى الناس عنه، وأزال أطماعـهم منه، وصيـرهم لا يعرفـونه، وأمرهم أن لا يذكروه، اشتد ملك محمد بن أبى عامر منذ نزل قصر الزاهرة، وتوسع مع الأيام فى تشيـيد بنيتهـا، حتى كملت أحسن كـمال، وجاءته فى نهاية الجـمال، نقاوة بناء وسعة فـناء، واعتدال هواء رق أديمه، وصـقالة جو اعتل نسيمه، ونضـرة بستان، وبهجة للنفوس فيها افتنان، وفـيها يقول صاعد اللغوى[1]:

يا أيهـــا الملك المنصـــور من يمن ... والمبـتنى نسبـا غـير الذى انتـسبـا

بغـــزوة فى قلوب الشـرك رائـعـة ... بين المنايا تناغى السـمر والقـضبـا

أما ترى العين تجـرى فوق مرمرها ... هوى فيجرى على أحـفافها الطربا

أجـريتهـا فطما الزاهى بجـريتهـا ... كما طموت فـسدت العجم والعربا

تخـــال فـــيـــه جنود المـاء رافلة ... مـستلـئمـات تريك الدرع واليلبـا

تحـــفـهـــا من فنـون الأيك زاهرة ... قـد أورقت فضـة إذ أورقت ذهبـا

(١) نفح الطيب ١/ ٥٨٠.

بديعة الملك ما ينفك ناظرها يتلو على السمع منها آية عجبا
لا يحسن الدهر أن ينشي لها مثلا ولو تعنت فيها نفسه طلبا

ودخل عليه ابن أبى الحباب[1] فى بعض قصوره من المنية، المعروفة بالعامرية، والروض قد تفتحت أنواره، وتوشحت أنجاده وأغواره، وتصرف فيها الدهر متواضعا، ووقف بها السعد خاضعا، فقال:

لا يوم كاليوم فى ايامك الأول بالعامرية ذات الماء والظلل
هواؤها فى جميع الدهر معتدل طيب وإن حل فصل غير معتدل
ما إن يبالى الذى يحتل ساحتها بالسعد أن لا تحل الشمس بالحمل

وما زالت هذه المدينة[2] رائقة، والسعود بلبتها متناسقة، تراوحها الفتوح وتغاديها، وتجلب إليها منكسرة أعاديها، لا تزحف منها راية إلا إلى فتح، ولا يصدر عنها تدبير إلا إلى نجح، إلى أن حان يومها العصيب وقيض لها من المكروه أوفر نصيب، فتولت فقيدة، وخلت من بهجتها كل عقيدة - انتهى.

ولست أتيقن أن جميعه كلام الفتح، مع أنى وجدت فى بعض التواريخ نسبته إليه، فأثبت جميعه لشدة مناسبة بعضه لبعض، على أنه لا يبعد جميعه عن نفسه - والله أعلم، ثم تحققت أنه كلام الفتح فى المطمح. وقد تعلق غرضى بذكر بعض كلام هذا المؤرخ فى شأن المنصور بن أبى عامر لما فيه من ذكر جامع قرطبة، ونصه:

وكان المنصور، آية من آيات فاطرة، دهاء ومكرا وسياسة، عدا

(١) نفح الطيب ١/ ٥٨١.
(٢) نفح الطيب ١/ ٥٨١.

بالمصاحفة على الصقالبة، حتى قتلهم وأذلهم، ثم عدا بغالب الناصرى على المصاحفة. حتى قتلهم وأبادهم، ثم عدا بجعفر بن الأندلسى على غالب، حتى قتله، ثم عدا بنفسه على جعفر وقتله، ثم انفرد بنفسه، وصار ينادى صروف الدهر هل من مبارز؟ فلما لم يجده حمل الدهر على حكمه، فانقاد له وساعده، فاستقام أمره منفردا بمملكة لا سلف له فيها، ومن أوضح الدلائل على سعده، أنه لم ينكب قط فى حرب شهدها، ولا توجهت عليه هزيمة، ولا انصرف عن موطن إلا قاهرا غالبا، على كثرة ما زاول من الحروب ومارس من الأعداء. وواجه من الأمم، وإنها لخاصة، ما أحسب شركه فيها أحد من الملوك الإسلامية، ومن أعظم ما أعين به مع قوة سعده، وتمكن جده، سعة جوده، وكثرة بذله، فقد كان فى ذلك أعجوبة الزمان، وأول من اتكأ على أرائك الملك وارتفق، وانتشر عليه لواء السعد وخفق، حط صاحبه المصحفى، وأثار له كامن حقده الخفى، حتى أصاره للهموم لبيسا، وفى غيابات السجن حبيسا، فكتب إليه يستعطفه.

هبنى أسأت فأين العفو والكرم ... إذ قادنى نحوك الإذعان والندم[1]

يا خير من مدت الأيدى إليه أما ... ترثى لشيخ نعاه عندك القلم

بالغت فى السخط فاصفح صفح مقتدر ... إن الملوك إذا ما استرحموا رحموا

فما زاده ذلك إلا حنقا وحقدا، وما أفادته الأبيات إلا تضرما ووقدا، فراجعه بما أيأسه، وأراه مرمسه، وأطبق عليه محبسه، وضيق تروحه من المحنة وتنفسه:

(١) نفح الطيب ١/ ٤٠٧.

الآن يا جـــاهلا زلـت به القـــدم تبـــغى التكرم لما فـــاتك الكرم[1]

أغـريـت بى ملكا لولا تـثـبـــتـه مـا جـــاز لى عنده نـطق ولا كلم

فايأس من العيش إذ قد صرت فى طبق إن الملوك إذا مـا استنقـموا نقـموا

نفسى إذا ســخطت ليست براضـية ولو تشـفع فيـك العرب والعـجم

وكان من أخبار المنصور[2] الداخلة فى أبواب البر والقربة، بنيان المسجد الجامع، والـزيادة فيه سنة سـبع وسبـعين وثلاثمـائة، وذلك أنه لما زاد الناس بقرطبـة، وانجلب إليها قـبائل البربر من العدوة وإفـريقية، وتناهى حـالها فى الجلالة، ضاقت الأرباض وغـيرها، وضاق المسجد الجـامع عن حمل الناس، فشرع المنصـور فى الزيادة بشرقيه حيث تمكن الزيادة، لاتصـال الجانب الغربى بقصر الخـلافة، فبدأ ابن أبى عامـر هذه الزيادة على بلاطات، تمتد طولا من أول المسـجد إلى آخـره، وقصـد ابن أبى عـامر فى هـذه الزيادة المبالغـة فى الإتقان، والوثاقة دون الزخرفة، ولم يقصر مع هذا عن سائر الزيادات جودة، مـا عدا زيادة الحكم، وأول مـا عمله ابن أبـى عامـر، تطييب نفـوس أرباب الدور، الذين اشتريت منهم للهدم لهـذه الزيادة، بإنصافهم من الثمن، وصنع فى صـحنه الجب العظيم قدره، الواسع فناؤه، وابـن أبى عامر رتـب إحراق الشـمع بالمسجـد الجـامع، زيادة للزيت، فتطـابق بذلك النوران، وكان عـدد سوارى الجـامع الحاملة لسمائه، واللاصـقة بمبانيـه وقبابه ومناره، بين كبـيرة وصغـيرة، ألف سارية وأربعـمائة سارية وسـبع عشرة سـارية، وعدد ثريات الجامع ما بين كبيرة وصغيرة مـائتان وثمانون ثريا، وعدد الكئوس سبعة آلاف

(١) نفح الطيب ١/٤٠٨، والبيان المغرب ٢/٢٨٧ - ٢٨٨.

(٢) نفح الطيب ١/٤٠٨.

كأس وأربعمائة كأس وخمسة وعشرون كأسا، وزنة مشاكى، وزنة الرصاص للكئوس المذكورة عشرة أرباع أو نحوها، وزنة ما يحتاج إليه من الكتان للفتائل فى كل شهر رمضان ثلاثة أرباع القنطار[1]، وجميع ما يحتاج إليه الجامع من الزيت فى السنة خمسمائة ربع أو نحوها، يصرف منه فى رمضان خاصة نحو نصف العدد، ومما كان يختص برمضان المعظم، ثلاثة قناطير من الشمع، وثلاثة أرباع القنطار من الكتان المُقَصَّر[2] لإقامة الشمع المذكور، والكبيرة من الشمع، التى توقد بجانب الإمام يكون وزنها من خمسين إلى ستين رطلا، يحترق بعضها بطول الشهر، ويعم الحرق لجميعها ليلة الختمة، وكان عدد من يخدم الجامع المذكور بقرطبة فى دولة ابن أبى عامر، ويتصرف فيه من أئمة ومقربين، وأمناء ومؤذنين، وسدنة وموقدين، وغيرهم من المتصرفين، مائة وتسعة وخمسين شخصا، ويوقد من البخور ليلة الختمة أربع أوراق من العنبر الأشهب، وثمان أوراق من العود الرطب الطيب.

ومن ذلك بنيان قنطرة على نهر قرطبة الأعظم[3]، ابتدأ بناءها المنصور سنة ثمان وسبعين وثلاثمائة، وفرغ منها فى النصف من سنة تسع وسبعين، وانتهت النفقة عليها إلى مائة ألف دينار وأربعين ألف دينار، فعظمت بها المنفعة، وصارت صدرًا فى مناقبه الجليلة، وكانت قطعة أرض لشيخ من العامة ولم يكن للقنطرة عدول عنها، فأمر المنصور أمناءه بإرضائه فيها. فحضر الشيخ عندهم، فساوموه فى القطعة، وعرفوه وجه الحاجة إليها، وأن المنصور لا يريد إلا إنصافه فيها، فرماهم الشيخ بالغرض الأقصى عنده فيما ظنه ألا تخرج عنه بأقل من عشرة دنانير ذهبا، كانت عنده أقصى الأمنية

(١) هذا الصواب من البيان المغرب، وفى المطبوع: «القناطر».

(٢) هذا المثبت من البيان المغرب، والذى فى المطبوع: «المقطن».

(٣) نفح الطيب ١/٤٠٨، والبيان المغرب ٢/٢٨٨.

وشرطها صحاحا، فاغتنم الأمناء غفلته ونقدوه الثمن، وأشهدوا عليه، ثم أخبروا المنصور بخبره، فضحك من جهالته، وأنف من غبنه، وأمر أن يعطى عشرة أمثال ما سأل، وتدفع له صحاحا - كما قال: فقبض الشيخ مائة دينار ذهبا، فكاد أن يخرج من عقله، وأن يجن عند قبضها من الفرح، وجاء محتفلا فى شكر المنصور، وصارت قصته خبرا سائرا.

ومن ذلك أيضا[١]، بناء قنطرة على نهر إستجة، وهو نهر شنيل، وتجشم لها أعظم مئونة، وسهل الطرق الوعرة والشعاب الصعبة.

ومن ذلك[٢]، أَنه خط بيده مصحفا كان يحمله معه فى أسفاره، يدرس فيه ويتبرك به.

ومن قوة رجائه[٣]، أَنه اعتنى بجَمْع ما علق بوجهه من الغبار فى غزواته، ومواطن جهاده، فكان الخدم يأخذونه عنه المناديل، فى كل منزل من منازله، حتى اجتمع له منه صرة ضخمة عهد بتصييره فى حنوطه، وكان يحملها حيثما سار مع أكفانه، توقعا لحلول منيته، وقد كان اتخذ الأكفان من أطيب مكسبه من الضيعة الموروثة عن أبيه وغزل بناته، وكان يسأل الله - تعالى - أن يتوفاه فى طريق الجهاد, فكان ذلك.

وكان متسما[٤] بصحة باطنه، واعترافه بذنبه، وخوفه من ربه، وكثرة جهاده، وإذا ذكر بالله ذكر، وإذا خوف من عقابه ازدجر، ولم يزل متنزها عن

(١) نفح الطيب ١/ ٤٠٩، والبيان المغرب ٢/ ٢٨٨.
(٢) نفح الطيب ١/ ٤٠٩، والبيان المغرب ٢/ ٢٨٨.
(٣) نفح الطيب ١/ ٤٠٩، والبيان المغرب ٢/ ٢٨٨.
(٤) نفح الطيب ١/ ٤٠٩، والبيان المغرب ٢/ ٢٨٩.

كل ما يستتر به الملوك سوى الخمر، لكنه أقلع عنها قبل موته بسنين، وكان عدله فى الخاصة العامة واطراحه للهوادة، وبسطه الحق على الأقرب فالأقرب من خاصته وحاشيته، أمرا مضروبا به المثل.

ومن عدله[1] أنه وقف عليه رجل من العامة يوما بمجلسه، فناداه: يا ناصر الحق، إن لى مظلمة عند ذلك الوصيف الذى على رأسك - وأشار إلى الفتى صاحب الدرقة، وكان له فضل محل عند ابن أبى عامر، ثم قال: وقد دعوته إلى الحاكم فلم يأت، فقال المنصور - أَوَ عبد الرحمن ابن فطيس بهذا العجز والمهانة، وكنا نظنه أمضى من ذلك؟ - اذكر مظلمتك يا هذا، فذكر الرجل معاملة كانت جارية بينهما، قطعها من غير نصف، فقال المنصور: ما أعظم بليتنا بهذه الحاشية، ثم نظر إلى الصقلبى - وهو قد ذهل عقله، فقال له: ادفع الدرقة إلى فلان، وأنزل صاغرا، وساو خصمك فى مقامه، حتى يرفعك الحق أو يضعك، ففعل ومثل بين يديه، ثم قال لصاحب شرطته الخاص به، خذ بيد هذا الفاسق الظالم. وقدمه مع خصمه إلى صاحب المظالم لينفذ عليه حكمه بأغلظ ما يوجبه الحق من سجن أو غيره، ففعل ذلك، وعاد الرجل إليه شاكرا، فقال له المنصور، قد انتصفت أنت فاذهب لسبيلك، وبقى انتصافى أنا ممن تهاون بمنزلتى، فتناول الصقلى بأنواع من المذلة، وأبعده عن الخدمة.

ومن ذلك[2]، قصة فتاه الكبير، المعروف بالبرقى مع التاجر المغربى، فإنهما تنازعا فى خصومة توجهت فيها اليمين على الفتى المذكور - وهو

(١) نفح الطيب ١/ ٤٠٩، والبيان المغرب ٢/ ٢٨٩.

(٢) نفح الطيب ١/ ٤١٠، والبيان المغرب ٢/ ٢٨٩.

يومئـذ أكبر خـدم المنصور، وإليه أمـر داره وحرمه، فـدافع الحاكم، وظن أن جاهه يـمنع من إحلافـه، فصرخ التـاجر بالمنصـور فى طريقه إلـى الجامع - متظلما من الفـتى، فوكل به فى الوقت من حمله إلى الحاكم، فـأنصفه منه، وسخط عليه المنصور، وقبض نعمته منه ونفاه.

ومن ذلك[1] قصة محـمد فَصَّاد المنصور، وخادمه وأمـينه على نفسه، فإن المنصور احتاجه يوما إلى الفصد، وكان كـثير التعهد له، فأنفذ رسوله إلى محمد، فألفـاه الرسول محبوسا فى سجن القاضى مـحمد بن زرب، لِحَيْفٍ ظهر منه على امرأته، قدر أن سبيله من الخدمة، يحميه من العقوبة، فلما عاد الرسول إلى المنصـور بقصتـه، أمر بإخراجـه من السجن مع رقيب من رقـباء السجن، يلزمـه إلى أن يفرغ من عمله عنده، ثم يعيـده إلى محبسـه، ففعل ذلك على ما رسمه، وذهب الفاصد إلى شكوى ما ناله، فقطع عليه المنصور، وقال له: يا محـمد إنه القاضى، وهو فى عدله، ولو أخـذنى الحق ما أطقت الامتناع منه، عد إلى محبسك، واعـترف بالحق، فهو الذى يطلقك، فانكسر الحـاجم، وزالت عنه ريح العناية، وبلغت قـصـته للقـاضى، فـصالحـه مع زوجته، وزاد القاضى شدة فى أحكامه.

ومن دهائه[2]، قـال ابن حيـان: إنه كـان جالسـا فى بعض الليـالى، وكانت ليلة شديدة البرد والريح والمطر، فـدعا بأحد الفرسان وقل له: انهض الآن إلى فج طليارش وأقم فـيه، فأول خاطر يخطر عليك، سـقه إلى، قال: فنهض الفارس وبقى فى الفج فى البرد والريح والمطر - واقفا على فرسه، إذا

(١) نفح الطيب ١/ ٤١٠، والبيان المغرب ٢/ ٢٩٠.

(٢) نفح الطيب ١/ ٤١١، والبيان المغرب ٢/ ٢٩٠.

وقف قرب الفجر شيخ هرم على حمار له ومعه آلة الحطب، فقال له الفارس: إلى أين تريد يا شيخ؟ فقال: وراء حطب، فقال الفارس فى نفسه: هذا شيخ مسكين نهض إلى الجبل يسوق حطبا، فما عسى أن يريد المنصور منه؟ قال: فتركته فسار عنى قليلا، ثم فكرت فى قول المنصور، وخفت سطوته، فنهضت إلى الشيخ وقلت له: ارجع إلى مولانا المنصور فقال: وما عسى أن يريد المنصور من شيخ مثلى، سألتك بالله أن تتركنى لطلب معيشتى؟ فقال له الفارس: لا أفعل، ثم قدم به على المنصور، ومثله بين يديه - وهو جالس لم ينم ليلته تلك، فقال المنصور للصقالبة: فتشوه، ففتش فلم يوجد عنده شىء، فقال: فتشوا برذعة حماره، فوجدوا داخلها كتابا من نصارى كانوا قد نزعوا إلى المنصور يخدمون عنده إلى أصحابهم من النصارى. ليقبلوا ويضربوا فى إحدى النواحى المعلومة، فلما انبلج الصبح، أمر بإخراج أولئك النصارى إلى باب الزاهرة، فضربت أعناقهم، وضربت رقبة الشيخ معهم.

ومن ذلك[1]، قصة الجوهرى التاجر، وذلك أن رجلا جوهريا من تجار المشرق، قصد المنصور من مدينة عدن بجوهر كثير، وأحجار نفيسة، فأخذ المنصور من ذلك ما استحسنه، ودفع إلى التاجر الجوهرى صرته، وكانت قطعة يمانية، فأخذ التاجر فى انصرافه طريق الرملة على شط النهر، فلما توسطها - واليوم قائظ وعرقه منصب - دعته نفسه إلى التبرد فى النهر، فوضع ثيابه وتلك الصرة على الشط، فمرت حدأة، فاختطفت الصرة تحسبها لحما، وصاعدت فى الأفق ذاهبة، فقطعت الأفق الذى تنظر إليه عين الناجر، فقامت قيامته، وعلم أنه لا يقدر أن يستدفع ذلك بحيلة فأسر الحزن فى

(١) نفح الطيب ١/ ٤١٢، والبيان المغرب ٢/ ٢٩١.

نفسه، ولحقه لأجل ذلك علة اضطرب فيها، وحضر الدفع إلى التجار، فحضر الرجل لذلك بنفسه، فاستبان للمنصور ما بالرجل من المهانة والكآبة، وفقد ما كان عنده من النشاط وشدة العارضة، فسأله المنصور عن شأنه، فأعلمه بقصته، فقال له: هلا أتيت إلينا بحدثان وقوع الأمر، فكنا نستظهر على الحيلة، فهل هديت لى الناحية التى أخذ الطائر إليها؟ قال: مر مشرقا على سمت هذا الجبل الذى يلى قصرك - يعنى الرملة، فدعا المنصور شرطيه الخاص به، فقال له: جئنى بمشيخة أهل الرملة - الساعة، فمضى وجاء بهم سريعا، فأمرهم بالبحث عَمَّن غير حال الإقلال منهم - سريعا، وانتقل عن الإضاقة دون تدريج، فتناظروا فى ذلك، ثم قالوا: يا مولانا، ما نعلم إلا رجلا من ضعفائنا كان يعمل هو وأولاده بأيديهم، ويتناولون السبق بأقدامهم عجزا عن شراء دابة، فاتباع اليوم دابة، واكتسى هو وولده كسوة متوسطة، فأمر بإحضاره من الغد، وأمر التاجر بالغدو إلى الباب، فحضر الرجل بعينه بين يدى المنصور، فاستنداه - والتاجر حاضر، وقال له: سبب ضاع منا وسقط إليك، ما فعلت به؟ قال: يا مولاى، وضرب بيده إلى حجزة سراويله، فأخرج الصرة بعينها، فصاح التاجر طربا، وكاد يطير فرحا، فقال له المنصور: صف لى حديثها، فقال: بينا أنا أعمل فى جنانى تحت نخلة، إذ سقطت أمامى، فأخذتها وراقنى منظرها، فقلت: إن الطائر اختلسها من قصرك لقرب الجوار، فاحترزت بها ودعتنى فاقتى إلى أخذ عشرة مثاقيل عيونا كانت معها مصرورة، وقلت: أقل ما يكون فى كرم مولاى أن يسمح لى بها، فأعجب المنصور ما كان منه، وقال للتاجر: خذ صرتك وانظرها، واصدقنى عن عددها، ففعل، وقال: وحق رأسك يا مولاى ما ضاع منها شىء، سوى الدنانير التى ذكرها، وقد وهبتها له: فقال له المنصور: نحن أولى بذلك

منك، ولا ننغص عليك فرحك، ولولا جمعه بين الإصرار والإقرار، لكان ثوابه موفورا عليه، ثم أمر للتاجر بعشرة دنانير - عوضا عن دنانيره، وللجنان بعشرة دنانير - ثوابا لتأنيه عن فساد ما وقع بيده وقال: لو بدأنا بالاعتراف قبل البحث، لأوسعناه جزاء، قال: فأخذ التاجر فى الثناء على المنصور، وقد عاوده نشاطه، وقال: والله لأبثن فى الأقطار عظيم ملكك، ولأبَيِّنَنَّ[1] أنك تملك طير عملك، كما تملك إنسها، فلا تعتصم منك، ولا تؤذى جارك، فضحك المنصور وقال: اقصد فى قولك، يغفر الله لك، فعجب الناس من تلطف المنصور فى أمره، وحيلته فى تفريج كربته - انتهى.

ثم حكى[2] هذا المؤرخ من أخبار المنصور جملة، ثم وصف غزوته لمدينة شَنْت يَاقُب قاصية غليسية، وأعظم مشاهد النصارى الكائنة ببلاد الأندلس، وما يتصل بها من الأرض الكبيرة، وكانت كنيستها عندهم - بمنزلة الكعبة عندنا، فَبِها[3] يحلفون، وإليها يحجون من أقصى بلاد رومة وما وراءها، وسزعمون أن القبر المزور فيها قبر ياقوب الحوارى، أحد الاثنى عشر، وكان أخصهم بعيسى - على نبينا وعليه الصلاة والسلام، وهم يسمونه أخاه للزومه إياه، إلى أن قال: وياقب بلسانهم يعقوب، وكان أسقفا ببيت المقدس، فجعل يستقرئ الأرضين، داعيا لمن فيها، حتى انتهى إلى هذه القاصية، ثم عاد إلى أرض الشام، فمات بها وله مائة وعشرون سنة شمسية، فاحتمل أصحابه رمته، فدفنوه بهذه الكنيسة التى كانت أقصى أثره، ولم يطمع أحد من ملوك الإسلام فى قصدها، ولا الوصول إليها، لصعوبة مدخلها، وخشونة مكانها، وبعد شقتها، فخرج المنصور إليها من قرطبة -

(١) هذا المثبت من البيان المغرب، والذى فى المطبوع: «ولا بين».

(٢) نفح الطيب ١/ ٤١٣، والبيان المغرب ٢/ ٢٩٤.

(٣) هذا المثبت من البيان المغرب، والذى فى المطبوع: «فيها».

غازيا بالصائفة يوم السبت لست بيقين من جمادى الأخيرة سنة سبع وثمانين وثلاثمائة، وهى غزوته الثامنة والأربعون، ودخل على مدينة قورية فلما وصل إلى مدينة غَلِيسيَّة. وافاه عدد عظيم من القوامس[1]، المتمسكين بالطاعة فى رجالهم، وعلى أتم احتفالهم، فصاروا فى عسكر المسلمين، وركبوا فى المغاورة سبيلهم، وقد كان المنصور تقدم فى إنشاء أسطول كبير فى الموضع المعروف بقصر أبى دانس من ساحل غرب الأندلس، وجهزه برجاله البحريين، وصنوف المترجلين، وحمل الأقوات والأطعمة، والعدد والأسلحة، استظهارا على نفوذ العزيمة، إلى أن خرج بموضع برتقال على نهر دويرة، فدخل فى النهر إلى المكان الذى عمل المنصور على العبور منه، فعقد هنالك من هذا الأسطول جسرا بقرب الحصن الذى هنالك، ووجه المنصور ما كان فيه من الميرة إلى الجند، فتوسعوا فى التزود منه إلى أرض العدو، ثم نهض يريد شَنْت ياقُوب، فقطع أرضين متباعدة الأقطار، وقطع بالعبور عدة أنهار كبار، وخلجان يمدها البحر الأخضر، ثم أفضى العسكر بعد ذلك إلى بسائط جليلة من بلاد فلطارش وما يتصل بها، ثم أفضى إلى جبل شامخ، شديد الوعر، لا مسلك فيه ولا طريق، لم يهتد الأدلاء إلى سواه، فقدم المنصور الفعلة بالحديد لتوسعه شعابه، وتسهيل مسالكه، فقطعه العسكر، وعبروا بعده وادى مِنْيُهْ.

وانبسط[2] المسلمون بعد ذلك فى بسائط عريضة، وأرضين أريضة، وانتهت مَغِيرَتُهم إلى دَيْر قَسْطان، وبسيط بلنبو على البحر المحيط، وفتحوا حصن شَنْت بَلاَيُه وغنموه وعبروا - سباحة - إلى جزيرة من البحر المحيط،

(١) هذا المثبت من البيان المغرب، والذى فى المطبوع: «القواميس».

(٢) نفح الطيب ١/ ٤١٥، والبيان المغرب ٢/ ٢٩٥.

لجأ إليهـا خلق عظيم من أهل تلك النواحى، فسبـوا من فيها ممن لجـأ إليها، وانتهى الـعسكر إلى جبل مـراسيـة، المتصل مراكـز جهـاته بالبحـر المحيط، فتخللوا أقطاره، واستخرجوا من كان فيه، وحازوا غنائمه، ثم أجاز المسلمون بعد هذا - خليج لورقى فى معبرين، أرشـد الأَدِلاَّءُ إليهما، ثم نهر ايله، ثم أفضوا إلى بسـائط واسعة العمارة، كـثيرة الفائدة، ثم انتـهوا إلى موضع من مشاهد ياقب صاحب القبر تلو مشهد قبره - عند النصارى فى الفضل، يقصد نساكـهم له من أقصى بلادهم، ومن بلاد الـقبط والنوبة وغيـرهما، فـغادره المسلمون قاعا، وكان النزول بعـده على مدينة شنت ياقب البائسة، وذلك يوم الأربعاء لليلتـين خلتا من شعـبان فوجدها المسلمـون خالية من أهلها، فـحاز المسلمون غنائمهـا، وهدموا مصانعهـا وأسوارها، وكنيستهـا، وعفوا آثارها، ووكل المنصور بـقبر ياقب من يحـفظه ويدفع الأذى عنه، وكانت مـصانعـها بديعة، محكمـة، فغودرت هشيما كأن لم تغن بالأمس، وانـتسفت بعد ذلك سائر البسـائط، وانتهت الجيوش إلى جزيرة شَنْت مـانكش منقطع هذا الصقع على البحر المحيط، وهى غاية لم يبلغها قـبلهم مسلم، ولا وطئها لغير أهلها قدم، فلم يكن بعدها لـلخيل مجال، ولا وراءها انتقـال، وانكفأ المنصور عن باب شَنْت ياقوب، وقـد بلغ غاية لم يبلغـها مسلم قـبله، فجـعل فى طريقه القصد على عمل برمند بزاردون، ليستقريه عائثا ومفسدا، حتى وقع فى عمل القَوَامِس المعاهدين الذين فى عـسكره، فأمر بالكف عنها، ومر مـجتازا حتى خرج إلى حصن مليـقة من افتتـاحه، فأجاز هنالك القوامس بجـملتهم على أقدارهم، وكساهم وكسا رجـالهم، وصرفهم إلى بلادهم، وكتب بالفتح من ملبيقـة، وكان مبلغ ما كساه فى غـزاته هذه لملوك الروم ولمن حسن غناؤه من المسلمين، ألفـين ومائتيـن وخمسا وثـمانين شقـة من صنوف الخز الطرازى،

وإحدى وعشرين كساء من صوف البحر، وكسائين عنبريين، وأحد عشر سقلطونا، وخمس عشرة مريشات، وسبعة أنماط ديباج وثوبين ديباج رومى، وفروى فنك،ووافى جميع العسكر - قرطبة غانما، وعظمت النعمة والمنة على المسلمين، ولم يجد بشنت ياقب - إلا شيخا من الرهبان جالسا على القبر، فسأله عن مقامه، فقال: أؤنس يعقوب، فأمر بالكف عنه.

ثم قال هذا المؤرخ(١) - بعد كلام، وحدث شُعْلَة قال: قلت للمنصور ليلة طال فيها سهره: قد أفرط مولانا فى السهر، وبدنه يحتاج إلى أكثر من هذا النوم - وهو أعلم بما يحركه عدم النوم من علة العصب، فقال لى: يا شعلة، الملك لا ينام إذا نامت الرعية، ولو استوفيت نومى، لما كان فى دور هذا البلد العظيم عين نائمة.

وكان المنصور(٢) يزرع فى كل سنة - ألف مدى من الشعير - قصيلا لدوابه الخاصة به، وكان إذا قدم من كل غزوة من غزواته، لا يحل عن نفسه حتى يدعو صاحب الخيل، فيعلمه ما مات منها وما عاش، وصاحب الأبنية فيعلمه بما وَهَى من أسواره ومبانيه(٣)، وقصوره ودوره، وكان له دخالة فى كل يوم اثنى عشر ألف رطل من اللحم، حاشا الصيد والطير والحيتان، وكان يصنع فى كل عام اثنى عشر ألف ترس عامرية لقصر الزاهرة والزهراء، وابتنى على طريق المباهاة والفخامة - مدينة الزاهرة، ذات القصور والمتنزهات المخترعة، كمنية السرور وغيرها من مناشئه البديعة، ثم قال هذا المؤرخ - بعد كلام - وعند فراغه من بناء الزاهرة، غزا غزوة، أبعد فيها الإيغال، وغال

(١) نفح الطيب ١/ ٤١٦، والبيان المغرب ٢/ ٢٩٨.

(٢) نفح الطيب ١/ ٥٨٤، والبيان المغرب ٢/ ٢٩٨.

(٣) هذا المثبت لدى ابن عذارى فى البيان المغرب الذى ينقل عنه المصنف، والذى فى المطبوع: «وصاحب الأبنية لما وهى من أسواره».

فيها من عظماء الروم من غال، وحل من أرضهم ما لم يطرق، وراع منهم ما لم يرع قط ولم يفرق، وصدر صدرا سما به على كل حسناء عقيلة، وجلى به كل صفحة للحسن صقيلة، ودخل قرطبة دخولا لم يعهد، وشهد له فيها يوم لم يشهد، وكان ابن شهيد متخلفا عن هذه الغزوة لنقرس عداه عائده، وحداه منتجعه ورائده، وابن شهيد هذا أحد حجاب الناصر، وله على ابن أبى عامر أيادى محكمة الأواصر، وكان كثيرا ما يتحفه، ويصله ويلطفه، فلما صدر المنصور من غزوته هذه نسى متاحفته، وأغفل ملاطفته، فكتب إليه ابن شهيد:

أنا شيخ والشيخ يهوى الصبايا ... يا لنفس تقيك صرف الرزايا[1]

ورسول الإله أسهم فى الفى ... ء لمن لم يجد فيه المطايا

فاجعلنى - فديت - أشكر معرو ... فك وابعث به عذاب الثنايا

فبعث[2] إليه بعقيلة من عقائل الروم يكنفها ثلاث جوار. كأنهن نجوم سوار، وكتب إليه:

قد بعثنا بها كشمس النهار ... فى ثلاث من المها أبكار

فاجتهد واتئد فإنك شيخ ... خفى الليل عن بياض النهار

صانك الله من كلالك فيها ... فمن العار كلة المسمار

فكتب إليه ابن شهيد[3]:

قد فضضنا ختام ذاك السوار ... واصطبغنا من النجيع الجارى

(١) نفح الطيب ١/ ٥٨٥، والبيان المغرب ٢/ ٣٠٠.

(٢) نفح الطيب ١/ ٥٨٦، والبيان المغرب ٢/ ٣٠٠.

(٣) نفح الطيب ١/ ٥٨٦، والبيان المغرب ٢/ ٣٠٠.

ونعـــــمنا فـى ظل أنـعم لـيل ولهـــونـا بالبـــدر ثـم الدرارى

وقـضى الشيخ مـا قـضى بحسـام ذى مـضـاء عـضب الـظبـا بتـار

فـاصطنعـه فليس يجـزيك كـفـرا واتخـــذه سـيـــفـا على الكـفـار

انتهى ما انتحيناه من كـلام هذا المؤرخ، وأظن أن بعضه من كلام الفتح كقضية ابن شهيد هذه[1]، فإنها لا تبعد عن مساقه - والله أعلم.

وأخـبار المنصـور بن أبى عامـر، طبـقت الأقطار، وطارت كل مطار، وتعدادها تضيق عنه الأسـفار، خصوصا ما لـه على الكفار، ولذا كتب على قبره[2]:

آثاره تـنبـــيك عن أخـــبـــاره حـــتى كـــأنك بـالعـــيـــان تراه

تالله مـــا يـأتى الزمـــان بمثـله أبدا ولا يحـــمى الثـغـــور سـواه

وقد حكـى صاحب «الزهرات المنثـورة فى الأخبـار المأثورة» كثـيرا من محاسن المنصور بن أبى عامر، فمن ذلك قوله فى الزهرة الثامنة والعشرين ما نصه:

حكى أبو العلى صاعد اللـغوى قال: جمعت خرق الأكـياس، والصرر التى قبضت فيها صلات المنصور محمد بن أبى عامر، فقطعت لكافور الأسود غلامى منها قميصا كالمرقعة، وبكرت به معى إلى قصر المنصور، فاحتلت فى تنشيطه حتى طابت نفسه، فقلت: يا مولانا، لـعبدك حاجة، فقال: اذكرها، قلت: وصول غلامـى كافور إلى هنا، فقال: وعلى هـذه الحال؟! فقلت: لا أقنع بسواه إلا بحضوره بين يديك، فقـال: أدخلوه، فمثل قائما بين يديه فى مرقعته، وهو كـالنخلة إشرافا، فقال: قد حضر - وإنه لباذئ الهـيئة، فمالك

(١) الأخبار التـى سيقت فى الصفـحات السابقة موجـودة بنصها لدى ابن عذارى فـى البيان المغرب كما أشرت إلى ذلك.

(٢) البيان المغرب ٢/ ٣٠١.

أضعته؟ فقلت: يا مولانا، هناك الفائدة، إعلم يا مولاى أنك وهبت لى اليوم ملء جلد كافور مالا، فتهلل وقال: لله درك من شاكر مستنبط لغوامض معانى الشكر، وأمر لى بمال واسع وكسوة، وكسا كافوراً أحسن كسوة.

وفى التاسعة والعشرين ما نصه: تقدم إلى الحاجب المنصور بن أبى عامر وانزمار ابن أبى بكر البرزالى. أحد جند المغاربة - وقد جلس للعرض والتمييز - والميدان غاص بالناس، فقال له بكلام يضحك الثكلى: يا مولاى، ما لى ولك، أَسكنىّ، فإنى فى الفحص، فقال: وما ذلك يا وانزمار؟ وأين دارك الواسعة الأقطار؟ فقال: أخرجتنى - والله - نعمتك، أعطنى من الضياع ما انصب على منها من الأطعمة ما ملأ بيوتى وأخرجنى عنها، وأنا بربرى مجوع. حديث العهد بالبؤس، أترى لى أن أبعد القمح عنى، ليس ذاك من رأيى، فتطلق المنصور، وقال: لله درك من فذ عَيِىّ، لعلك فى شكر النعمة، أبلغ عندنا، وآخذ بقلوبنا، من كلام كل أشدق متزيد، وبليغ مفتن، وأقبل على من حوله من أهل الأندلس، فقال: يا أصحابنا، كذا فلتشكروا الأيادى، وتستديموا النعم، لا ما أنتم عليه من الجحد اللازم، والتشكى المبرح، وأمر له بأفضل المنازل الخالية(١).

وفى الموفية ثلاثين ما نصه، أصبح المنصور بن أبى عامر صبيحة أحد، وكان يوم راحة الخدمة الذين أعفوا فيه عن قصد الخدمة فى مطر وابل غب أيام مثله، فقال: هذا يوم لا عهد بمثله، ولا حيلة للمواطنين لقصدنا فى مكابدته، فليت شعرى، هل شذ أحد منهم عن التقدير، فأغرب فى البكور، أخرج وتأمل - يقوله - لحاجبه - فخرج وعاد إليه - ضاحكا وقال: يا

(١) نفح الطيب ج١ ص ٤١٧.

مـولاى، على البـاب ثلاثة رهط من البـرابرة، أبو الناس بن صـالح، واثنان مـعه، وهم بحـال من البلل، إنما توصـف بالمشاهدة، فـقـال: أوصلهم إلى وعـجل، فدخلوا عليـه فى حـال الملاح بللا ونداوة، فـضحك إليـهم وأدنى مجلسهم وقال: خبرونى كـيف جئتم، وعلى أى حال وصلتم - وقد استكان كل ذى روح فى كنه، ولاذ كل طائر بوكـره، فقال له أبو النـاس بكلامه: يا مولانا، ليس كل التجـار قعد عن سوقه، وإذا عـذر التجار على طلب الربح بالفلوس، فنحن أعذر بإدراكها بالبدر، ومن غير رءوس أموال، وهم يتناوبون الأسواق على أقدامهم ويذيلون فى قصدها ثيابهم، ونحن نأتيك على خيلك، ونذيل على صهواتها ملابسك، ونجعل الفضل فى قصدك مضمونا، إذا جعله أؤلئك طمعا ورجاء، فترى لنا أن نجلس عن سـوقنا هذه؟ فضحك محمد بن أبى عامـر، ودعا بالكـسى والصلات، فـرفعت لهم وانصـرفوا - مـسرورين بغدوتهم(١).

وفى الزهرة الرابعة والأربعين ما نصه: كـان بقرطبة على عهد الحاجب المنصور محـمد بن أبى عامر فتى من أهل الأدب قـد رثت حاله فى الطلب، فتـعلق بكتاب العـمل، واختلف إلى الخزانة مـدة حتى قلد بعض الأعـمال، فاسـتهلك كـثيـرا من المال، فلما ضم إلى الحـساب، أبرز علـيه ثلاث آلاف دينار، فرجع خبـره إلى المنصور، فأمر بإحضـاره، فلما مثل بين يديه. ولزم الإقرار بمـا برز عليه، قـال له: يا فاسق، مـا الذى جرأك على مـال السلطان تنتهبه؟ قال قضاء غلب الرأى وفـقر أفسد الأمانة، قال: والله لأجعلنك نكالا لغيـرك، ليحضـر كبل وحـداد، فأحضـرا، فكبل الفتى وقـال: احملوه إلى السجن، وأمر الضاغط بامتحانه، والشدة عليه، فلما قام، أنشأ يقول:

---

(١) نفح الطيب ١/ ٤١٧.

أواه أواه وكـــــــــــم ذا أرى أكـــــثـــر مـن تذكـــار أواه

مـــا لامـــرئ حـــول ولا قـــوة الحـــــــول والـقـــــــوة لله

فقال المنصور: ردوه، فلمـا رد، قال: أتمثلت أم قلت؟ قال: بل قلت: فقال: حلوا عنه كبله، فلما حل عنه، أنشأ يقول:

أمـــا ترى عـــفـــو أبى عـــامـــر لابد أن تـتـــبـــعـــه - مـنه

كـــذلك الله إذا مـــا عـــفـــا عن عـــــبـــده أدخله - الجـنة

قال: فأمر بإطلاقه، وسوغه ذلك المال، وأبرأه من التبعة فيه[1].

وفى الخامسة والأربعين ما نصه: عرض على المنصور بن أبى عامر اسم أحد خدامه فـى جملة من طال سجنه، وكان شديد الحقـد عليه، فوقع على اسمـه بأن لا سـبيل إلى إطلاقـه، حتى يلحق بأمـه الهاوية، وعـرف الرجل بتوقيعه، فاغتم وأجهـد نفسه فى الدعاء والمناجاة، وأرق المنصور بن أبى عامر من أثر ذلك، واستـدعى النوم، فلم يقدر عليـه، وكان يأتيه عـند تنويمه آت كريه الشـخص عنيف الأخذ، يأمره بإطلاق الرجل، ويتـوعده على حبـسه، فاسـتدفـع شأنه مـرارا، إلى أن علم أنه نذير من ربه، فانـقاد لأمـره، ودعا بالدواة فى مـرقده، فكتب بإطلاقه، وقـال فى كتـابه: هذا طليق الله - على رغم أنف ابن أبى عامر، وتحدث الناس زمانا بما كان منه[2].

وفى الثـامنة والأربعين مـا نصه: انـتهت هيـبة المنصـور بن أبى عامـر وضبطه للجند، واستخدام ذكـور الرجال، وقوام الملك - إلى غاية لم يصلها

(١) نفح الطيب ١/ ٤١٨.

(٢) نفح الطيب ١/ ٤١٩.

ملك قبله، فكانت مواقـفهم فى الميدان على احتفاله مـثلا فى الإطراق، حتى إن الخيل لتتمثل إطراق فـرسانها، فلا تكثر الصهيل والحمـحمة، ولقد وقعت عينه على بارقة سيف قد سله بعض الجند بأقصى الميدان لهزل أو جد، بحيث ظن أن لحظ المنصـور لا يناله، فقـال: على بشاهر السـيف، فمـثل بين يديه لوقته، فقال: ما حملك على أن شهرت سيفك فى مكان لا يشهر فيه إل عن إذن؟ فقال: إنى أشرت به على صـاحبى - مغمدا، فذلق من غـمده، فقال: إن مثل هذا لا يسوغ بالدعوى، وأمر به فضربت عنقه بسيفه، وطيف برأسه، ونودى بذنبه(١).

انتهى ما تعلـق به الغرض من أخبار المنصور، وأنشـدنى بعض الكتاب من أهل قسمطينة - المحروسة بالله - لبعض الأقدمين قوله:

حـــدثنا عـــرف نسـيـم الصـبـــا عن بان نجـــد عن ربى حـــاجـــر
عن ســـمـرات الحى عن عـــالج عن ســـر ذلك المبـــسم العـــاطر
قـالـوا سـمـــعنا طائرا بالحـــمى ينشـــــد بيت ابـن أبى عـــامـــر
مـــا أقـبح الـسلوان من عـــاشق ومـــا ألـذ الوصل من هـاجـــر!

وأظنه ابن أبى عامر الذكور، وأنه قال ذلك البيت، فوطأ له هذا الشاعر بالثلاثة الأبيات - والله أعلم.

ثم بعد مدة رأيت فى عدة مصنفات رواية البيت هكذا:

(ينشد بيتا لبنى عامر) - فالله أعلم.

---

(١) نفح الطيب ١/ ٤١٩.

ورأيت فى كتاب الزهرات المنثورة المذكورة آنفا، من غير أخبار ابن أبى عامر. . فى الزهرة الرابعة والستين ما نصه: لما قبض على الوزير أبى جعفر ابن عبد الملك بن سعيد العنسى، وثقف بمالقة، دحل إليه ابن عمه، ووصل إلى الاجتماع به - ريثما استؤذن السيد أبو سعيد ابن الخليفة عبد المؤمن فى أمره، قال: فدمعت عيناى حين رأيته مكبولا، فقال: أعلى تبكى - بعدما بلغت من الدنيا أطايب لذتها: فأكلت صدور الدجاج، وشربت فى الزجاج، ولبست الديباج، وتمتعت بالسرارى والأزواج، واستعملت من الشمع السراج الوهاج، وركبت كل هملاج، وهأنا فى يد الحجاج، منتظر محنة الحلاج، قادم على غافر لا يحتاج، إلى اعتذار ولا احتجاج، قال: فقلت: أفلا يؤسف على من ينطق بمثل هذا الكلام، ثم يفقد، وقمت عنه فكان آخر العهد به. انتهى.

ولنعد إلى ما كنا فيه من سرد بعض كلام الفتح فنقول: قال فى الأوراق التى رأيت من المطمح - بعد ترجمة المعتصم بن صمادح، وتحليته إياه بعين ماله فى القلائد، ما نصه[1]: ابنه عز الدولة أبو مروان عبد الله - رحمه الله، فتى الراح، المعاقر لدنانها، المهتصر لأغصان الفتوة وأفنانها، المهجر لفلاة الظباء والآرام، المشهر فى باب الصبابة والغرام[2]، نشأ فى حجر أبيه نديم قهوة، ومديم صبوة، وخديم شهوة، لا يريم كأسا، ولا يروم إلا اقتضى انتكاسا، ما شهد قتلا ولا قتالا، ولا تقلد صارما إلا مختالا، قد أمن منه جنان الجبان، وعدت له غصون البان، وما زال مرتضعا لأخلاف البطالة، مقتطعا ما شاء من إطالة، متوغلا فى شعاب الفُتَّاك، متغلغلا فى طريق الانتهاك - إلى أن وجهه أبوه إلى أمير المسلمين - سفيرا عندما بدت له وجوه

(١) نفح الطيب ٧/ ٤٠.

(٢) هذا الصواب من نفح الطيب، والذى فى المطبوع: «الغرم».

الفتنة تسفر، ومعاهد الهدنة تقفر، مع أكامل أصحبهم نقصانه، وذوى أديان جعلهم خلصانة، يسمعون بوادر بذاذته، وينظرون مناكر لذاذته، فآلت سفرته إلى الاعتقال، وقصرت نخوته ما بين قيد وعقال، فجاء كالمهر لا يعرف لجاما، وصار حبيس قوم لا يألونه استعجاما، وحين شالت نعامته، وسالت عليه ظلامته، كتب إلى أبيه:

أبعد السنا والمعالى خمول ... وبعد ركوب المذاكى كبول

ومن بعد ما كنت حرا عزيزا ... أنا اليوم عبد أسير ذليل

حللت رسولا بغرناطة ... فحل بها فِيَّ خطب جليل

وثقفت إذ جئتها مرسلا ... وقلبى كان يعز الرسول

فقدت ألمرية أكرم بها ... فما للوصل إليها سبيل[1]

فراجعه أبوه بقطعة، منها:

عزيز على ونوحى دليل ... على ما أقاسى ودمعى يسيل

وقطعت البيض أغمادها ... وشقت بنود وناحت طبول

لئن كنت يعقوب فى حزنه ... ويوسف أنت فصير جميل[2]

ولم يزل يتحيل فى تخلصه، وأخذه من يد مقتنصه، فَسُرِق - وحراسه منه بمكان السلك من النحر، وطرق به على ثَبَج البحر، فوافى ألمرية، وقد أخذ البحث عليه آفاق البرية، فهنئ المعتصم بخلاصه، وبقى مستقرًّا

(١) نفح الطيب ٧/ ٤١.

(٢) نفح الطيب ٧/ ٤١.

بعراصه، إلى أن أخلوها، ومضوا لمطية ما نووها، فنجا أخوه إلى حيث ذكرنا من بلاد الناصر، ولجأ هو إلى أحد المرابطين لأذِمّة كانت بينهما وأواصر، وأقام معه سمير لهوه - وأمير سهوه - إلى أن انقرض أمده، وطواه سروره لأكمده، فلم ير إلا خالعا لعذاره، طالعا من ثياب اغتراره، غير مكترث باتضاعه، ولا منحرف عن ارتشاف الغى وارتضاعه، وبدا منه فى هذه الحال ندى كاثر به السحاب، وظاهر بسببه الأصحاب، وتخدم الأوطار، وتقدم لذوى الرتب فيها والأخطار، تقدما حَسّن من ذكره[1]، وأولعا الألسن بشكره، فارتفع عنه الكدح، وشفع له فى الذم ذلك المدح، وكان نظمه بديع الوصف، رفيع الرصف، وقد أثبت له ما يشهد بإجادته وإحسانه، شهادة الروض بجود نيسانه[2].

أخبرنى[3] ابن القطان أنه ساير الأمير يحيى بن أبى بكر إلى طليطلة فى جيوش فاضت سيلا، وخاضت المطايا قتامها ليلا، وكان ملكا لم يعقد على مثله لواء، ولم يحتو على شبهه حواء، جمال محيا، وكمال عليا، وحسن شيم، وبعد همم، أغنى العفاة، وأحيا الرفاة، وألغى الأجواد، وأنسى كعب ابن مامة وابن أبى دُاؤد، فلما شارف طليطلة وكشفها، واشتف بلالتها وارتشفها، وضرب بكنفها مضاربه، وأجال بساحتها زنجه وأعاربه، سقط أحد ألويته عن يد حامله، وانكسر عند عامله، فطائفة تفاءلت، وطائفة تطيرت، وفرقة ابتهجت، وأخرى تغيرت، فقال:

(١) فى المطبوع: «والأخطار، حسنا من ذكره» والمثبت رواية نفح الطيب.

(٢) نفح الطيب ٧/ ٤١.

(٣) نفح الطيب ٧/ ٤٢.

لم ينكسر عود اللواء لطيرة يخشى عليك بها وأن تتأولا
لكن تحقق أنه يندق فى نحر العدو لدى الوغى فتعجلا[1]

وأخبرنى[2] أخوه رفيع الدولة أن ابن اللبانة، كتب إليه - والخلع قد نضا لبوسه، وقصر بوسه، وكدر صفاءه، وغدر وفاءه، وطوى ميدان جوده، وأذوى أفنان وجوده:

يا ذا الذى هز أمداحى بحيلته وعزه أن يهز المجد والكرما
واديك لا زرع فيه اليوم تبذله فخذ عليه لأيام المنى سلما

فدعته دواعى الندى، وأولعته بالجدا فى ذلك المدى، فتحيل فى بر طبعه، وكتب معه:

المجد يخجل من نقد يك فى زمن ثناه عن واجب البر الذى علما
فدونك النزر من مصف مودته حتى يوفيك أيام المنى سلما[3]

ابنه الثانى رفيع الدولة أبو يحيى بن المعتصم[4] من بيت إمارة. وإلى السعد طوافه بها واعتماره، عمرت أنديته، ونشرت به رايات العز وألويته، إلى أن خوى كوكبهم، وهوى مرقبهم، فتفرقوا أيادى سبا، وفرقوا من وقع الأسنة والظبى، وفارقوا أرضا كأرض غسان، ووافقوا أياما كيوم أهل اليمامة مع حسان، بعد ما خامرت النفوس مكارمهم مخامرة الرحيق، وأمهم الناس من كل مكان سحيق، وانتجعوا انتجاع الأنواء، واستطعموا فى المحل اللأواء، وصالوا بالدهر وسطوا، وبين النهى والأمر فيه خطوا، ورفيع الدولة هذا فخر

(١) نفح الطيب ٧/ ٤٢.
(٢) نفح الطيب ٧/ ٤٢.
(٣) نفح الطيب ٧/ ٤٢.
(٤) نفح الطيب ٧/ ٤٢.

ذلك الصباح، وضوء ذلك المصباح، وغصن تلك الدوحة، ونسيم تلك النفحة، لم يتمهن - والدهر قد بذله، ولا ترك الانتصار - والأمر قد خذله، فالتحف بالصون وارتدى، وراح على الانقباض واغتدى، فما تلقاه إلا سالكا جددا، ولا تراه إلا لابسا سؤددا، وله أدب كالروض المجود - إذا أزهر، ونظم كزهر التهائم والنجود، بل كالصبح إذا أسفر، أوقفه على النسيب وصرفه إلى المحبوبة والحبيب، فمن ذلك قوله[1]:

مالى وللبدر لم يسمع بزورته ... لعله ترك الإجمال أو جهرا

إن كان ذاك لذنب ما شعرت به ... فأكرم الناس من يعفو إذا قدرا

وقوله أيضا[2]:

يا عابد الرحمن كم ليلة ... أرقتنى وجدا ولم تشعر

إذ كنت كالغصن ثنته الصبا ... وصحن ذاك الخد لم يشعر

وقوله أيضا[3]:

وأهيف لا يلوى على عتب عاتب ... ويقضى علينا بالظنون الكواذب

يحكم فينا أمره فنطيعه ... ونحسب منه الحكم ضربة لازب

وقوله أيضا[4]:

وعلقته حلو الشمائل ما جِنًا ... خنث الكلام مرنح الأعطاف

ما زلت أنصفه وأوجب حقه ... لكنه يأبى من الإنصاف

(١) نفح الطيب ٧/ ٤٣.

(٢) نفح الطيب ٧/ ٤٤.

(٣) نفح الطيب ٧/ ٤٤.

(٤) نفح الطيب ٧/ ٤٤.



openkandil.com

وقوله أيضا:

حبيب متى ينأى عـن القلب شخصه يكاد فـؤادى أن يطـيـر من البـين

ويسكـن مـــا بين الضـلوع إذا بدا كـأن على قلبى تمائم من عـين[1]

وقوله أيضا:

أفـدى أبا عمـرو وإن كـان جانيـا على ذنـوبا لا تعـــدد بالعـــتب

فـمـا كـــان ذاك الود إلا كـبـارق أضـاء لعـينى ثم أظلـم للقلب[2]

وله - وقد بلغه موتى، وتحقق عنده فوتى:

مثنى الوزارة قـد أودى فمـا فعلت تلك المحـــابر والأقـــلام والطرس

ما كنت أحـسب يوما قـبل ميتـته أن البـلاغـة والآداب تخـتلس[3]

واستـأذن ليلة على أحد الأمراء - وأنا عنده فـى أسنى موضع، وأبهى مطلع، وجوانب جنده بين يدى مـحتله، وسحائب رفـده على منهله، وكان أجمل من مقل، وأكمل من من المهد إلى سرير الملك قد نقل[4].

انتهى ما ألفيته فى المطمح من هذا الموضع، وفى موضع آخر ما نصه:

أبو عامر ابن عقال، كان له ببنى قاسم تعلق، وفى سماء دولتهم تألق، فلما خـوت نجومهم، وعفت رسـومهم، انحط عن ذلك الخصـوص، وسقط سقـوط الطائر المقصوص، وتـصرف بين وجود وعـدم، وتحرف قاعـدا حينا

---

(١) نفح الطيب ٧/ ٤٤.

(٢) نفح الطيب ٧/ ٤٤.

(٣) نفح الطيب ٧/ ٤٥.

(٤) نفح الطيب ٧/ ٤٥.

وحينا على قدم، وفى خلال حاليه، وأثناء انتحاله، لم يدع حظه من الحبيب، ولا ثنى لحظة عن الغزال الربيب، ولم يزل يطير ويقع، والدهر يخرق حاله ويرقع، إلى أن أرقاه الأمير إبراهيم بن يوسف بن تاشفين - رحمه الله - أعلى ربوة، وزاده أبهى حظوة: فأدرك عنده رتبة أعلام التحبير والإنشا، وترك الدهر قلق الحشا، وتسنم منزلة لا يتسمنها إلا من تطهر من درنه، وجمح إحسانه فى ميدان حرنه، والحظوظ أقسام لا تسام، والدنيا إنارة وإعتام[1].

ولو لم يعل إلا ذو محل تعالى الجيش وانحط القتام[2]

وقد أثبت عنه بعض ما ألفيته، والذى أخذته مباين لما أبقيته، فمن ذلك:

يا ويح أجسام الأنا م لما تطيق من الأذى
خلقت لتقوى بالغذا ء وسقمها ذاك الغذا
وتنال أيام السلا مة بالحياة تلذذا
فإذا انقضى زمن الصبا ورمى المشيب فأنفذا
وجد السقام إلى المفا صل والجوانح منفذا
ويقول مهما يعط شيـ ـئا ناولونى غير ذا[3]

(١) نفح الطيب ٧/ ٤٦.
(٢) نفح الطيب ٧/ ٤٧.
(٣) نفح الطيب ٧/ ٤٧.

وحذا فى هذه القصيدة حذو الصابى فى قوله:

وجع المفـــاصل وهـو أيـ ـســـرمـا لقـــيت من الأذى

ردى الذى اســـتـحـسنـتـه والنـاس من حظـى كـــذا

والعـــمـر مـثـل الكاس ير سب فى أواخرهـا القذى[1]

وله يتعذر من زيارة اعتمدها، ومواصلة اعتقدها: فعاقته حوادث لوته. وعدته عن ذلك وثنته:

بينـمـــا كنت راجـيـــا للـقـــائه والتـشـــفى بالبـشـر من تـلقـائه

وترقـــيت فى ســـمـــاء نزاعى قـمـر الأنس طالعـا من سـمـائه

إذ دهانى اعـتـراض خـطب ثنانى عن غـــمـام يشـــفى الغلـيل بمائه

فـــتـــدهلت وانـزويت حـيـــاء منـه والعـــذر واضح لسنـائه[2]

وله فصل كتب به عن الأمير إبراهيم يصف إجـازة أمير المسلمين البحر سنة خمس وخمسمائة - وفى الساعة الثانية من يوم الجمعة كان جوازه - أيده الله - من مرسى جزيرة طريف على بحر ساكن قد ذل بعد استصعابه، وسهل بعد أن رأى الشامخ من هضابه، وصـار حيه ميتا، وهذره صمـتا، وجباله لا ترى فيها عوجا ولا أمتا، وضعف تعـاطيه، وعقد السلم بين موجه وشاطيه، فعبر آمنا من لهواته، متملكا لصهواته، على جواد يقطع الخرق سبحا، ويكاد يسبق البرق لمحا، لم يحـمل لجاما ولا سراجا، ولا عهد غيـر اللجة الخضراء مـرجـا، عنانه فى رجله، وهـدب العـين يحكى بعض شكلـه، فلله هو من

(١) نفح الطيب ٧/ ٤٧.

(٢) نفح الطيب ٧/ ٤٨.

جواد، له جسم وليس له فؤاد، يخرق الهواء ولا يرهبه، ويركض الماء ولا يشربه[١].

أبو القاسم[٢] المنيشى أحد أنشاء حضرة إشبيلية المقلين، الناهضين بأعباء الضرائر المستقلين، لم يعشو لكل ضوء وينتجع مصاب كل نوء، فيوما يخصب، ويوما يجدب، وآونة يفرح. وأخرى ينتدب - إلى أن صدقت مخائله، فرمقت بخوته ونخائله، وأتى من العجب، بمنسدل الحجب، ومن الأشر، لم يأت من بشر، وما تصرف إلا فى أنذل الأعمال، ولا تعرف إلى بأخون العمال، لم يفرع ربوة ظهور، ولم يقرع باب رجل مشهور، وله أدب ولسن، ومذهب فيهما يستحسن، لكنه نكب عن المقطع الجزل، وذهب مذهب الهزل، إلا فى النادر فربما جد، ثم أخلق منه ما استجد، وعاد إلى ديدنه،عودة أبى عباد إلى واواته ومدنه، وأخذ فى ذلك الغرض وليس شرط كتابى بذاءه، ولا أن يقف حذاءه، وقد أثبت له ما هو عندى نافق، ولغرض كتابى موافق، فمن ذلك قوله[٣]:

يا روضة باتت الأنداء تخدمها ... أتى النسيم وهذا أول السحر

إن كان قدك غصنا فالثراء به ... هى الكمائم قد زرت على الزهر

إربأ بخديك عن ورد وعن زهر ... وأغن بقرطيك عن شمس وعن قمر

يا قاتل الله لحظى كم شقيت به ... من حيث كان نعيم الناس بالنظر

---

(١) نفح الطيب ٧/ ٤٨.

(٢) نفح الطيب ٧/ ٥٣.

(٣) نفح الطيب ٧/ ٥٤.

وله من رثاء فى والدتى[1] - رحمة الله عليها:

يا ناصحى غير مفتات ولى شجن ... على النصائح والنصاح مفتات
لا أستجيب - ولو ناديت من كثب ... قد وقذتنى تعلات وعلات
إن كان رأيك فى برى وتكرمتى ... بحيث قد ظهرت منه علامات
لا ترضى لى غير شجو لا أفارقه ... فذاك أختاره والناس أشتات

ومنها[2]:

ياذا الوزارة من مثنى وواحدة ... لله ما اصطنعت منك الوزارات
لله منك أبا نصر أخو جلد ... إذا ألمت ملمات مهمات
أستودع الله نورا ضمه كفن ... كما توارى بدور التم هالات
قضت وليت شبابى كان موضعها ... هيهات لو قضيت تلك اللبانات
مضت ولما يقم من دونها أحد ... هلا وقد أعذرت فيها المروءات

وله يصف زرزورا[3]:

أمنبر ذاك أم قضيب ... بفرعه مصقع خطيب
يختال فى بردتى شباب ... لم يتوضح بها مشيب
كأنما ضخمت عليه ... أبرادَه مسكة وطيب
أخرس لكنه فصيح ... أبله لكنه لبيب

(١) نفح الطيب ٧/ ٥٤.
(٢) نفح الطيب ٧/ ٥٤.
(٣) نفح الطيب ٧/ ٥٥.

جـــــهم عـلى أنـه وســـــيم صـــــــعب عـلـى أنه أريـب

أبو الحسن البرقى[1] بلنسى الدار، نفيسى المقدار، ما سمعت له بشرف، ولا أعلمت له بسلف، ولا اطلعت منه علـى غير سـرف، ورد إشبيلـية سنة تسع وتسعين، واتصل بابن زهر، فناهيك من حظ فى أكنافه جال، ومن لحظ فيما أراده أجال، ومن أمل استوفـر، ومن وجه جاه له أسفر، سلك به ساحة الرغائب، وتملك بسببه إباحة الحاضر والغائب، وقال فما نبذت مقالته، وأقال فمـا قيـدت إقالتـه، وكان حلو المجـالسة، مـجلو المؤانسة، ذا شنـب وافر، ومذهب فى المسـاهمة سافـر، إلا أنه كان كلفا بالـفتيان، مـعنى بهم فى كل الأحيان، ونيف على السبعين - وهو برداء الصبـوة مرتد، وبعترها مقتد، مع أدب زهرته ترف، وكـأنه بحر والألبـاب منه تغتـرف، وقد أبت له بعـض ما وجدت له فى الغلمان، وأنشدت له فى ذلك الزمان، فمن ذلك قوله[2]:

إن ذكـرت العـقـيق هاجك شـوق رب شـــوق يهـيـــجـه الادكـــار

يا خـليلى حـــــدثـانى عن الـركـ ـب سـحـيـرا أأنجـدوا أم أغـاروا

شـــــغلـونا عـن الوداع وولـوا مـا عليـهـم لو ودعـوا ثم سـاروا

أنا أهـواهم عـلى كـل حـــــال عـــدلـوا فى هواهم أم جـــاروا

وعلق بإشبيلية فتى يعـرف بابن المكر، ومات من حبه طريحا بين أيدى الوساوس والفكر، لا يمشى إلا صـبا، ولا يفشى إلا غراما وحـبا، وما زال يقاسى لوعته، مقاساة يناجى بها صرعته، حتى اكتسى خده بالعذار، وامحت عنه مثل بهجة آذار، فسلا من كلفه، وتصدى ذلك لمواصلته بصلفة، فقال[3]:

(١) نفح الطيب ٧/ ٥٥.

(٢) نفح الطيب ٧/ ٥٦.

(٣) نفح الطيب ٧/ ٥٦.

الآن لما صـــــــوحت وجناته شوكا وأضحت سلوة العشاق
واستوحشت منك المحاسن واكتست أنوار وجهك واهن الأخلاق
أمسيت تبذل فى الوصال تصنعا خلق اللئيم وشيمة المذاق
هلا وصلت إذ الشمائل قهوة وإذا المحيا روضة الأحداق
يا كم أطلت غرام قلب موجع كم قد ألب إليك بالأشواق
ما كنت إلا البدر ليلة تمه حتى قضت لك ليلة بمحاق
لاح العذرا فقلت وجد نازح إن ابن داية مؤذن بفراق

وله فيه - مناقضا - لذلك الغرض، معارضا للوعة سلوه الذى كان عرض[1]:

يلومون فى ظبى تزايد حسنه بخطين خطا لوعتى وغراميا
وقد كنت أهوى خده وهو عاطل فكيف وقد أضحى لعينى حاليا

وله أيضا فى مثله[2]:

أجيل الطرف فى خد نضير يردد ناظرى نظرى إليه
إذا رمدت بحمرته جفونى شفاها منه إثمد عارضيه

أبو الحسن على بن جودى[3]. برز فى الفهم، وأحرز منه أوفر سهم، وواخى بنفس فى المعارف زكية، وعانى العلوم بقريحة ذكية، وله أدب واسع مداه، يانع كالروض بلله نداه، ونظم أرق من دمع العانى، ولطيف المعانى،

(١) نفح الطيب ٧/ ٥٦.
(٢) نفح الطيب ٧/ ٥٧.
(٣) نفح الطيب ٧/ ٥٧.

وأعبق من نفس الخمائل، فى أكف الصبا والشمائل، ونثر كالزهر المطول، أو السلك المحلول، إلا أنه سها فأسرف، وزها بما لا يعرف، وتصدى إلى الدين بالافتراء، ولم يراقب الله فى ذلك الاجتراء، واشتهرت عنه فى ذلك أقوال سدد إلى الملة نصالها، وأبدى بها ضلالها، فعظمت به المحنة، وكمنت له فى كل نفس إِحْنَة، وما زال يتدرج فيها وينتقل، حتى عثر وما كاد يستقل، فمر لا يلوى على تلك النواحى، وفر لا ينثنى إلا إلى لوائم ولواحى، وما زال يركب الأهوال ويخوضها، ويذلل النفس بها ويروضها، حتى أسمحت ببعض الإسماح، وكفت عن ذلك الجماح، فاستقر عند أبى مالك فآواه، ومهد له مثواه، وجعله فى جملة من اختص من المبطلين، واستخلص من المعطلين، فكثيرا ما يصطفيهم، ولا يدرى أيدخرهم أم يقتنيهم، وقد أثبت له ما يبهر سامعا، ويظهر برقا لامعا، فمن ذلك قوله(١):

أحن إلى ريح الشمال فإنها تذكرنا نجدا وما ذكرنا نجدا
تمر على ربع أقام به الهوى وبدل من أهليه جاثمة ربدا
فيا ليت شعرى هلا تقضى لبانة فأرتشف اللميا واعتنق القدا
خليلى لا والله ما أحمل الهوى وإن كنت فى غير الهوى رجلا جلدا

وقوله أيضا(٢):

سل الركب عن نجد فإن تحية لساكن نجد قد تحملها الركب
وإلا فما بال المطى على الوجى خفافا وما للريح مرجعها رطب

(١) نفح الطيب ٧/ ٥٧.
(٢) نفح الطيب ٧/ ٥٨.

ومن قوله أيضا[1]:

إذا ارتحلت غربية فاعرضا لها ... فبالغرب من نهوى له البلد الغربا
لقد ساءنا أنا بعيد وأَنَّنَا ... بأرضين شتى لا مزارا ولا قربى
يفجعنا إما بعاد مبرح ... وإما أمور باعثات لنا كربا
ظعنا على حكم الليالى وخطبها ... فيا ليت لم ندر الليالى ولا الخطبا
وكنت أرجى الدهر بعد الذى مضى ... ديارا وقربا والأصادق والصحبا
أحقا يسير الركب لم ترتحل بنا ... إليك ولم تحد الحداة لنا ركبا

وقوله أيضا[2]:

سقى دارك اللائى ببطن محصب ... مثاكيل من وفد الغمام المرنح
ألم تعلمى يا فتنة القلب أننى ... تطارحت من حبى لكم كل مطرحى
إذا نعبت غربان دار وجدتنى ... وشوقى مقيم بين ناء ونزح

وله أيضا[3]:

ألا خبر وللبلوى[4] ضروب ... وفيك لكل مشتاق حبيبُ
حبباك الله بالنعمى فنونا ... وجر لكم مع النعمى خطوب
متى تقضى بخسفتك الليالى ... وتعصف فيكم ريح هبوب
فإنكم تجرون المنايا ... وتعمر من مجانيكم قلوب

---

(١) نفح الطيب ٧/ ٥٨.
(٢) نفح الطيب ٧/ ٥٩.
(٣) نفح الطيب ٧/ ٥٩.
(٤) فى المطبوع: «ألا يا خبر» والمثبت رواية نفح الطيب.

انتهى ما وجـدت فى هذه الأوراق من مطمح الأنفس، وقد كنت على شك فى ذلك، فحين كتبتها تحققت أنها من كلام الفتح بلا ريب، ولم أرد - علم الله - بجلبـها هزلا جرى أثناءها، ولكن الكلام جـر إليه واتصل بعـضه ببعض، وأما نظم الفتح فلم يكن فى طبقة نثره، بل كان منحطا عنه، ولذلك قال ابن الخطيب وغير واحد إن شعره وسط.

قال فى الإحاطة: ومن شعره قوله - وثبت فى قلائده يخاطب أبا يحيى ابن الحاج[1]:

أَكَعْبَة عَلْيَاءٍ وهضبة سؤدد[2] - انتهى.

وهذه الأبيـات ذكرها فى القـلائد - فى ترجمـة ذى الوزارتين ابن أبى الخـصال، ولنورد تلك التـرجمـة بجمـلتهـا تماما للفـائدة، ونصهـا[3]: ذو الوزارتين الكاتب أبو عـبـد الله بن أبى الخصـال - أعزه الله - هو وإن كـان خامل المنشأ نازله. لم ينزله المجد منازلة، ولا فرع للعَلاَءِ هضابا، ولا ارتشف للسناء رضابا، فقد تميز بنفسه، وتحيز من جنسه، وظهر بذاته، وفخر بأدواته، والذى ألحفه بالمجـد، وأوقفه بالمكان النجد، ذكاء طبع عليـه طبعه، ونجم فى تربة النباهة غربه ونبعه، وتعلق بأبى يحـيى بن محمد بن الحاج - وهو خامل الذكر، عاطـل الفكر، فملك قياد مـأموله، وهب من مرقد خـموله، وقدح استعماله إيّاه زناد ذكائه، وأبدى شعاع ذكـائه، ولم يزل عاثرا معه ومستقلا، ومثريا حينا وحينا مقـلا - إلى أن تورطوا فى تلك الفتنة التى ألقحوا حائلها،

(١) تحرف فى المطبوع إلى: «الحجاج» وصوابه من قلائد العقيان.

(٢) قلائد العقيان، ص ٥٣٠.

(٣) قلائد العقيان، ص ٥١٨.

وما لمحوا مـخايلها، وطمعـوا أن يغتالوا من أمير المسلمـين، وناصر الدين - ملكا معـصوما، وأبرموا من كـيدهم ما غدا بيـد القدر مفصـوما، وفى أثناء بغيهم، وخلال جرمهم الوبيل وسعيهم، كانت ترد عليهم من قبله - أيده الله - كـتب تحل ما ربطوه، وتروعـهم مما تأبطوه، فلـم يكن لهم بد من إدنائه، لحسـن مراجعـته عنـهم وغنائه، فورد عليـهم ليلة كتـاب راعهم، وأنسـاهم جلادهم وقراعـهم، وهم بمجلس أنس فصحـوا من حمياه، ومحـوا منه عبق الأنس ورياه: فاسـدعاه فى ذلك الحـين للمراجـعة عن فـصوله، والمعـارضة لفروعه وأصوله، فـأبان عن الغرض، وخلص جوهره من كل عرض، وأبدع فى إحكامه، وبرع فى قضاياه وأحكامه، فحمل أبا يحيى بن محمد استحسان ما كتبه، إن خططه للحين ولقبه، والمدام لرأيه الفائل مالكه، وبعقله فى طرق الخبال سالكه، فلـم يعمل فيها فكرا، ولم يتأمل أعـرفا أتى أم نكرا، فجرت عليه لقبا، وأعلته من الاشتهار مرقبـا، وصار مرتسما فى العلية، متسما بتلك الحلبة، وما زالت الدول تسـتدنيه نائبا، وتنهـيه دانيا، وما أجعله مـجنيا عليه ولا جانيـا، فمـا رفع شومـه، ولا محو وشـومه، وقـد أثبت له ما تجـتليه، فتستحـيله، وتلمحه، فتستملحه، فمن ذلـك قوله فى مغن زار، بعدما أغب وشط منه المزار[1].

وافى وقـــد عظـمت على ذنـوبه ... فى غـيـبـه قـبـحت بهـا آثاره[2]

فـمـحـا إسـاءته بـهـا إحـسـانه ... واســتـــغـفـــرت لذنـوبه أوتاره

وكتبتُ إليه[2] عندما وصل أمير المسلميـن، وناصر الدين إلى إشبيلية، صادرا من غـزوة طَلَبِيـرة سنة ثلاث وخمـسمـائة ووصل فى جملـته، ونزل

(١) قلائد العقيان، ص ٥٢٠.

(٢) قلائد العقيان، ص ٥٢١.

(٣) هذا الصواب من قلائد العقيان، ص ٥٢١ والذى فى المطبوع: «وكتب إلى».

بمحلته، واتفق لى شغل توالى واتصل، إلى أن رحل أمير المؤمنين - أيده الله - وانفصل، فسألت عنه، فأعلمت أنه سار معه، وما فارق مجتمعه، فكتبت إليه - مستدعيا من كلامه ما أثبته فى الديوان، وأنبته فيه زهر بستان، فوافاه رسولى من البلد على مرحلة، فى ليلة من ضياء البدر ممحلة، فكتب إلى - مراجعا - الحذر - أعزك الله - يؤتى من الثقة، والحبيب يُؤْذَى من المَقَة، وقد كنت أرضى من ودك - وهو الصبح - بلمحة، وأقنع من ثنائك - وهو المسك - بنفحة، فما زلت تعرضنى للامتحان، وتطالبنى بالبرهان، وتأخذنى بالبيان، وأنا بنفسى أعلم، وعلى مقدارى أحوط وأحزم، والمعيدى يسمع به لا أن يرى، وإن وردت أخباره تترى، فشخصه مقتحم مزدرى، ولا سيما من لا يجلى ناطقا، ولا يبرز سابقا، فتركه والظنون ترجمه، والقال والقيل يقسمه، والأوهام تحله وتحرمه، وتحييه وتخترمه، أولى به من كشف القناع، والتخلف عن منزلة الامتناع، وفى الوقت من فرسان، هذا الشأن، وأذمار، هذا المضمار، وقطان هذه المنازل، وهداة تلك المجاهل، من تحسد فقره الكواكب، ويترجل إليه منها الراكب، فأما الأزاهر فملقاة فى رباها، ولو خلت عن المسك حباها، وصيغت من الشمس حلاها، فهى من الوجد تنظر بكل عين شكرا لا نكرا، وإذا كانت أنفاس هؤلاء الأفراد مبثوثة، وبدائعهم منثوثة، وخواطرهم على محاسن الكلام مبعوثة، فما غادرتم متردما، ولا استبقت لمتأخر متقدما، فعندها يقف الاختيار، وبها يقع الاختبار، وأنا أنزه ديوانه النزيه، وتوجيهه الوجيه، عن سقط من المتاع، قليل الإمتاع، ثقيل روح السرد، مهلك صر البرد، إلا أن يعوذ به جماله، ويحرس بنقصه كماله، وهبه - أعزه الله - قد استسهل استلحاقه، وطامن له أخلاقه، أترانى أعطى

الكاشحين فى إثباته يدا، وأترك عقلى لهم سدى، وما إخالك ترضاها لى مع الود خطة خسف، ومهواة حتف، لا يستقل غبينها، ولا يبل ظعينها.

وله فصل[1] منها: فلم نحل بطائل، وصرنا تحت قول القائل:

ترك الزيـــارة وهى ممكـنة وأتاك من مصر على جمل

الزيارة هاهنا - أعزك الله - مـثل لا لفظ محتمل، لأنى أوجـبها، ولا أستـوجبهـا، وأفرضها، ولا أفـترضهـا، والتأويل على كل حال، لا يتـعدى الجميل مذهبا، ولا يتخذ ليل الشك مركبا، وأنت المفتتح للصلة، المولى للمنة المشتملة، وإن رسولك وافى بكتابك الخطير - والشمس واجبة سقوط منازع، وحياة الذى يقـضى حشاشة نازع، والبيت قد غص ببـانيه، وضاق لفظه عن معـانيه، فاختلـست أحرفى هذه اختلاس مـسارق، والتمـاح بارق، والخاطر مخاطر، والشغل مساهم مشاطر، يصدر فكرى إليه، ويخلع فقرى عليه، إلا صبابه، لا ترد صـبابة، ورسيسـا، لا يشفى نسيسا، فـدونك واهى الدعائم، واهن العزائم، يتـبرأ تابعه من مـتبعـه، ويفر سامعـه من مسمـعه، ولولا أن الجواب فـرض يجرح معطله، ويخرج عن مـلة التصافى مبطله، لاعـتذرت، واقتـصرت، ولكنى أوثر حـقك - وإِن أبقى على دركا، وبوأنى دركـا، وقد حملت فلانا ما سمح به الوقت، وإن اشتبه على القصد والسمت، وحاضرت بما يسرت إلى ذكره، على شريطة كتمـانه وستره - انقيادا إلى أمرك، وتصديا إلى عقوقك ببرك.

(١) قلائد العقيان، ص ٥٢٣.

وله أيضا[1]: ليست الأذناب كالأعراف، والأنذال كالأشراف، ولا كل أشراف بأشـراف، فثم من يصم - ماولى، ويعمى عن الصـبح - وقد جلى، إن ذكر نسى، وإن عذل فكأنما أغرى، وكثيرا ما يمتد شططه، فتحذف نقطه، ويهجر نمطه، وإن سامحناه فى الضبط، وأمـتعناه بالنقط، نبذ الوفاء، فحذفنا الفاء، وجفى الكريم، فألغينا[2] الميم، وله بعد ما بقى، ما ألقى، إن أشرف فعـلى الخطير العظيم، وإن اطلع فـفى سواء الجـحيم، ورب طويل النـجاد، غريق فى الاتهام والإنجاد، ولايته أمـان، وعمله جنان، وخلقه رضوان، تود النجوم أن ينظمها فى كتاب، أو ينسقـها نسق حساب، قد ارتقى بخطته باذخ السناء، وأخذ بضـبعها رافـعا إلى السمـاء، فهناك، وأنت ذاك، طاب الجنا، ودنت المنى، وأيقن الشـرف أنه فى حـرم وحـمى، أقسـم بالمبتـسم البـارد، والحبيـب الوارد، قسما تبـقى على الشيب حدته، وتقر على المشـيب جدته، ذكرى من ذلك العـهد مدت بسببـه، ومنت إلى القلب بنسبه، ليـحتون على الكرام، وليجترؤن على الأنام، وليأخذن فوق أيديها، وليكفن من تعديها، ما لها فـتحت أَثَلاتهم، وتسمـهم بغير سماتهم، وتصفهم بصـفاتهم، وتعلهم بعلاتهم، فأين أنت من الذنب، وسنام قد اسـتؤصل بالجب، وكيف ارتياحك بعد خَـمْرٍ إنْ دارت، ولمكرمة بالشـمس أشرقت وأنارت، لا جـرم أنك منها على ذكر، وبمدرجـة حمـد وشكر، وما هو إلا الشريـف الأوحد، ولا ينكر فضله ولا يجحد، أبو بكر - أعزه الله - وناهيك ثناء، وحسبك علاء وسناء، فـتى دهى فى ضيـعتـه هناك بدواه، ورمى بخطوب غـير ريوث ولا سـواه، ورأيك - أصاب الله برأيك، وجـبر الأولياء بسـعيك، فى تحصيل مـراعاته، وترفيهـه ومحاشاته، ولولا عذر منع، لكان على أفـقك النير قد طلع، ولكنه

(١) قلائد العقيان، ص ٥٢٥.

(٢) هذا الصواب من قـلائد العقيـان، وبهامشه: «فـتصبح الكرى وهو السـهاد»، والذى فى المطبوع: «فألقينا»..

استناب فلانا وحسبه أن يؤدى كتابا، ويقتضى جوابا، ويتصرف على حكمك جيئة وذهابا - إن شاء الله.

وله يعتذر من استبطاء المكاتبة[1]:

ألم تعلموا - والقلب رهن لديكم يخبركم عنى بمضمره بعدى
ولو قلبتنى الحادثات مكانكم لأنهبتها وفرى وأوطأتها خدى
ألم تعلموا أنى وأهلى وواحدى فداء ولا أرضى بتفدية وحدى

ولما نكب[2] الوزير أبو محمد بن القاسم النكبة التى أنبأت بتعذر الأوطار، لذوى الأخطار، وأعلنت بكساد الفضائل والمعالى، واستئثار الوضيع على الماجد العالى، لأنه كان طود كمال، وبحر جمال، وناظم خلال، وعالم جلال، وحين ثل الدهر عرشه، وأحل سواه فرشه، خاطبه كل زعيم مسليا عن نكبته، وانتقاله من رتبته، فكتب إليه هو فى جملة من كتب، وإن كان نازلا عن تلك الرتب، برقعة مستبدعة، وهى، مثلك - ثبت الله فؤادك، وخفف عن كاهل المكارم ما أدهى بك وآدَك، يلقى دهره غير مكترث، وينازله بصبر غير منتكث، ويبسم عند قطوبه، ويفل شباة خطوبه، فما هى إلا غمرة ثم تنجلى وخطرة يليها من الصنع الجميل ما يلى، لا جرم أن الحر، حيث كان حر وأن الدر - برغم من جهله - در، وهل كنت إلا حساما انتضاه، قدر أمضاه، وساعد ارتضاه، فإن أغمده، فقد قضى ما عليه، وإن

(١) قلائد العقيان، ص ٥٢٧.
(٢) قلائد العقيان، ص ٥٢٧.

جرده، فذلك إليه، أما أنه ما سلم حـده، ولبس جوهر الفرند خده، لا يعدم طبنا يشترطه، ويمينا يخترطه.

هذه[1] الصمصـامة، تقوم على ذكرها القـيامة، طبقت البـلاد أخباره، وقامت مقامه فى كل أفق آثاره، فـأما حامله فنسى منسى، وعدم منفى، كلا لقد فنيت الحقائق، وأنبهت تلك العلائق، فلم يصحبه غير غرار، ومتن عار، كلاهمـا بالغ ما بلغ، ووالع مـعه فى الدماء مـا ولغ، وما الحـسن إلا المجرد العريان، ومـا الصبح إلا الطلق الإِضْحَـيان، وما النُّور إلا مـا صادم الظلام، ولا النَّور إلا ما فارق الأكمام، وما ذهب ذاهب، أجزل منه العوض واهب:

لا تأس للمـــال إن غـــالته غائلة ففى حياتك من فقد اللهى عوض

وممن[2] قضى حق المساهمة فى هذا الحال التى التـوى عرضها، وتأخر للأعذار القـاطعة فـرضها، أسف تردد، وارتماض تجـدد، وذنوب على الأيام تحصى وتعدد، وحُـبَا اللئام منها تحل وتعـقد، فيعلم الله - عز وجـهه - لقد استوفيت فيك هذه الأيام، ونهت فيك حتى المزن عن الابتسام.

قال أبو نصر[3]: وفى أيام مقامى بالعدوة، اتفقت بينى وبين أبى يحيى بن محمد بن الحاج - سقى الله مصرعه، وأورده منهل العفو ومشرعه - مودة استحكم تواخـيها، وشدت أواخيـها، وغدونا بها حليفى صـفاء وإخلاص، وأليفى إخاء واختصاص، والزمان مساعـد، وصرفه متباعد، والشباب خضل يانع، والدهر مبـيح ما هو اليوم مانع، والدنيـا سرور وإيناس، والأرض ظباء

(١) قلائد العقيان، ص ٥٢٨.

(٢) قلائد العقيان، ص ٥٢٩.

(٣) قلائد العقيان، ص ٥٢٩.

وكناس، فوقع بينى وبينه فى بعض الأيام تنازع أدى بنا إلى الانفصال، وتعطل تلك البُكَر والآصال، ثم نمى إلى عنه قول ضاق به ذرعى، واجتث منه أصلى وفرعى، فكلما صدنى عن الرحلة صممت ونكثت، من عرى التلوى ما كنت أبرمت، وبعد انفصالى علمت أن ذلك القول غدا زورا، ووشى به من غض أن يرانا زائرا ومزورا، فانقشعت تلك المخيلة، وتحركت لوعته الدخيلة، وأكدت تجديد ذلك العهد الرائق، وكف أيدى تلك العوائق، فكتبت إليه[1]:

أكعبة علياء وهضبة سؤدد ... وروضة مجد بالمفاخر تمطر

هنيئا لملك زان أفقك نوره ... وفى صفحتيه من مضائك أسطر

وإنى لخفاق الجناحين كلما ... سرى لك ذكر أو نسيم معطر

وقد كان واش هاجنا لتهاجر ... فبت وأحشائى جوى تتفطر

فهل لك فى ود ذوى لك ظاهرا ... وباطنه يندى صفاء ويقطر؟

ولست بعلق بيع بخسا وإننى ... لأرفع أعلاق الزمان وأخطر

فأمره بمراجعتى فكتبَ عنه بقطعة منها[2]:

ثنيت أبا نصر عنانى وربما ... ثنت عزمة الشهم المصمم أسطر

ونالت هوى ما لم تكن لتناله ... سيوف مواض أو قنا متأطر

وما أنا إلا من عرفت وإنما ... بطرت ودادى والمودة تبطر

نظرت بعين لو نظرت بغيرها ... أصبت وجفن الرأى وسنان أشطر

---

(١) قلائد العقيان، ص ٥٣٠.

(٢) قلائد العقيان، ص ٥٣٠.

وقـــدمنا بذلت الود والحـب فطرة ومـــا الـود إلا مـــا يخص يـفطر

وكتب إلى الـوزير المشرف، أبى بكر بن أحـمد بن رحيم يهنـئه بولاية خطة الإشـراف بحـضرة إشـبـيليـة وذواتهـا فى شـوال سنة خمس عـشـرة وخمسمائة(١):

إذا مـا شـرف الإشـــراف قـومـا فـــإن بنى رحـــيم شـــرفـــوه

ومن يعـــرف به لهم قـــديمـــا وإن رغـــمـت أنوف عـــرفـــوه

كـــفـــاة للملـوك على ســـبـــيل ودين نصـــيـحـــة مـا حـــرفـوه

أبو بـكر له ولـهم كـــــفـــــيل بكـل كـــفـــاية إذ صـــرفـــوه

ومـــا الإشـــراف إلا عـــبـــد قن لهم فـمـتى تـولى اسـتـصـرفـوه

هذه(٢) - أعزك الله - بديهة البـشرى، وعجالة كعـجالة القرى، وبريد إلى أمم تلك القرى، فإنى لها بالإقبال ضمـين، وعلى ألية ويمين؛ لتحوطنها أقلامك، وليحمدن فـيها مقامك، لتعرفن بالغرر والحـجول أيامك، فحالفك السعد، ولا عدمك الملك الجعد، وأبل وأخـلف مثلها جددا - بعد، وما حق من بشر باعتلائك، وسرى بأنبـائك إلى أوليائك - أن يؤخر مراده، أو يضيع عمله واعتـقاده، وإن الحاج أبا عبد الله بن سـعدان آمِلَكَ الداعى لك - أبقاه الله - أخبرنى بهذه المسرة والديمـة الثرة، ولقد هممت على هذا البرد، بخلع البـرد، وحل العقـد، وفض النقد، فـدافعنى انقـباضـا، وأعلمنى أن له فى علمك - أبقاك الله - أغراضا، تكون على ذلك أثمانا وأعواضا، وأرانى عقدا

(١) قلائد العقيان، ص ٥٣١.

(٢) قلائد العقيان، ص ٥٣١.



obeikandi.com

يشهد بعدمه، وصحة ما استحثه فى مقدمه، وأنه ليس له سوى غرس قد صار عليه كلا، بل استدار فى ساقيه كبلا، والتوى فى عنقه غلا، وآض له غُلاً لاَ مُغلاّ، ولك الفضل أن يفتتح نظرك - وفقه الله - بالتخفيف بمثله عن الضعفاء، ومن لا قدرة له على الأداء، وحمل الأعباء، فإن ذلك ذكر فى العاجل، وأجر فى الآجل - انتهى. لفظ القلائد.

وقد قدمنا عن صاحب الصلة أن بطالة الفتح، أخلدت به عن مرتبة ذى الوزارتين، الشاعر المجيد الكاتب أبى عبد الله بن أبى الخصال - رحم الله الجميع، وابن أبى الخصال المذكور، هو: محمد بن أبى الخصال مسعود بن طيب بن فرج بن خلصة الغافقى، أوليته من قرية بشقورة، تسمى فرغليط، وبها نشأ، ومنها تردد إلى الحاضرة فى طلب العلم، ثم سكن قرطبة، يكنى أبا عبد الله، ويلقب ذا الوزارتين، وقيل: إن خلصة هو المكنى أبا الخصال - قاله أبو بكر بن خير وغيره، والأول قول أبى القاسم بن حبيش، وكان ينزل فى اجتيازه عند تردده إلى الحاضرة على أبى الحسن بن مالك اليعمرى، القاضى بأبذة[1]، وقد أخذ عنه يسيرا، وخرج معه - وهو فتى السن - إلى حديقة له معروشة، فقطف من أعلاها عنقود عنب أسود بعصى أهبطه بها على ترفق، فقال القاضى - محركا له، ومختبرا بديهته:

انظر إليه فى العصى

ثم قال: اجز يا محمد، فقال - مجيبا لفوره -

كرأس زنجى عصى[2]

(١) هذا الصواب من معجم الصدفى ونفح الطيب، والذى فى المطبوع: «أبدة» بالدال المهملة.

(٢) المعجم فى أصحاب الصدفى ص ١٤٤ - ١٤٥ (ط. الثقافة الدينية ٢٠٠٠م، مصورة عن طبعة أوروبا).

فلحظه القاضى أبو الحسن بعين أخرى، وحكم له بما اقتضاه علمه من مزية كبرى، سمع ذو الوزارتين من أبى الحسين بن سراج، وأبى محمد بن عتاب، وأبى بحر الأسدى، وأبى بكر بن غالب بن عطية، وأبى الحسن بن الباذش، وأخذ هو عنه - أيضا فتدبجا، وأبى بكر بن سائق الصقلى، ولقى بألمرية أبا على الصدفى، فقرأ عليه صحيح مسلم، وجامع الترمذى، ومصنف أبى داود، وأكثر صحيح البخارى، وكتاب عبد الغنى مشتبه النسبة، وأجاز ما يحمله، وكتب إليه أبو عمران بن أبى تليد، وأبو على الغسانى، وابن أخت غانم، وأبو عبد الله محمد بن على المازرى - مع جماعة من المشرقيين وغيرهم، وشارك القاضى أبا الفضل عياضا فى كثير من شيوخه ممن تقدم ذكره وغيره، وعنى بالحديث فأتقنه، وإليه انتهت البلاغة، وعليه قصرت، وبموته فقدت، وصفة بهذا أبو القاسم بن حبيش وغيره.

وقال فيه ابن بشكوال[1]: معجزة وقته[2]، وجمال جماعته، وكان متفننا فى العلوم، مستبحرا فى الأدب واللغة، عالما بالأخبار ومعانى الحديث والأثر، والسير والأشعار، أحد رجال الكمال.

قال ابن الأبار: سمعت شيخنا أبا الربيع[3] يقول: سمعت أبا الحسين عبد الرحمن بن أبى عامر الأشعرى يقول: سمعت الفقيه أبا مروان بن مسرة يقول: لم يطلق اسم كاتب بالأندلس على رجل قبل أبى عبد الله بن أبى الخصال. قال: وحكى لنا شيخنا أبو الحسين بن سراج، أن خاله أبا بكر بن

(١) الصلة لابن بشكوال، ص ٥٥٧.

(٢) فى الصلة: «مَفْخَرَةَ».

(٣) نقله صاحب المعجم (ط. أوروبا)، ص ١٤٦.

خير، وأبا القاسم بن بشكوال، وأبا القاسم غالب - المعروف بالشراط، قصدوا ذات يوم قبر أبى عبد الله بن أبى الخصال، وقد وعدوا أحد تلاميذهم أن يقرأ هنالك عليهم قصيدته اليتيمة، التى وسمها[1] بـ «معراج المناقب، ومنهاج الحسب الثاقب» قال: وكنت ممن صحبهم لأخذها عنهم، فسمعتهم يترحمون عليه، ويقولون عند انتهائهم إليه - السلام عليك يا زين الإسلام، ومع كماله لم يحظ من أمراء عصره بآماله، وهى عادة الأيام العادية فى أمثاله، توارى مما بهر، وخفى أضعاف ما ظهر، وسار أخوه أبو مروان بالكتابة عنهم أشهر.

والذى قعد بأبى[2] عبد الله هو قيام ابن الحاج أمير قرطبة عَلَى ابن تاشفين، وثورته التى نكب عنها ونجا، ولكن كيف منها؟! وكان هو حينئذ أوثق حاشيته وأسبابه، وألصق وزرائه وكتابه، مع أن اختصاصه لم يكن إلا بابنه أبى يحيى أبى بكر بن أبى عبد الله، حتى أوسمه بذى الوزارتين، فجرت عليه تخصيصا بعنايته، ومكافأة لكفايته.

فكم جلا[3] من تلك الخطوب الجلائل، وأبلى باليراع والرسائل، مكان ذات الأغماد والحمائل، ولما استقل ابن الحاج، وولى ما ولى من أعمال المغرب، عاد ابن أبى الخصال لصحبته هنالك هو وأبو بكر بن عبد العزيز، وطائفة انضوت من حرمته إلى الحصن الحصين، والحرز الحريز، وذلك لشفوف هذا الأمير على أترابه، وخفوف ذاته الراجحة فى حقوق أصحابه،

(١) فى المطبوع: «رسمها» تحريف.

(٢) المعجم (مصورة أوروبا) ص ١٤٦.

(٣) المعجم (مصورة أوروبا) ص ١٤٦.

ثم إنهم انتقلوا بانتقاله إلى سرقسطة أم الثغر (الشرقى)[1] حين حلها. ذابا عن أرجائها، ومجاهدا لأعدائها، حلول البر التقى.

وإذ حمت[2] شهادته قافلا من غزاته فى التاريخ المعلوم[3]، كسد ما نفق فى أيامه من بضائع العلوم، وناصع المنثور والمنظوم، فلزم أبو عبد الله داره خائفا من تلك الأحقاد القديمة وراضيا بالإياب إليها من الغنيمة، وفى أكثر عمره ارتد على العقب مأموله، وامتد بطول مدة ابن تاشفين خموله، وإن كان لا يسمى خاملا، من شهد للحلم حاملا، وعهد بالعلم عاملا، وحسبك بما له من التواليف الدينية، إلى أن ختمت منيته بالفتنة الحمدينية، فاستشهد - رحمه الله تعالى، ودفن يوم الأحد الثالث عشر لذى الحجة سنة أربعين وخمسمائة، وكان دفنه ضحى بمقبرة ابن عباس، قال ابن حبيش: استشهد فى الحادثة الكائنة بقرطبة يوم السبت الثانى عشر من ذى الحجة، ومولده سنة خمس، وقيل، ثلاث وستين وأربعمائة.

قال بعض من عرف به: والظاهر فى مقتله[4] أنه اقتحمت عليه داره - إذ دخل المصامدة قرطبة عنوة فى الحرب الواقعة بين ابن حمدين وابن غانية - وأول انقراض سلطان الملثمين بالأندلس.

قال ابن الأبار: وكان شيخنا[5] الأديب الحافل، أبو الحسن على بن محمد بن حريق يذكر أنه كان واقفا بباب داره، فمر به بعض المصامدة وقد ارتكبوا من الجرم، واستحلوا من المنكر، ما حمله على زجرهم، والإغلاظ

(١) ما بين الحاصرتين من المعجم.

(٢) المعجم ص ١٤٧.

(٣) يعنى به سنة ٥٠٩.

(٤) المعجم، ص ١٤٧ (ط. أوروبا).

(٥) المعجم لابن الأبار ص ١٤٧ (ط. أوروبا).

لهم، ثقة بمكانته، وعملا بمقتضى ديانته، فاجترأ أحدهم عليه، واستدار من خلفه - وهو مشغول بما بين يديه، وما لبث عدو الله أن ذبحه، فخر لفيه وفجع الإسلام فيه، - فالله أعلم.

قال: وقد أطرفنا أبو عبد الله بن الصفار الضرير شيخنا، من قتل قاتله بقصة عجيبة وكان - رحمه الله تعالى - صاحب غرائب مفيدة، وفوائد غريبة، فحكى أن مفيت نفسه الطاهرة، وسماه "تيفوت" ما زال بذلك يكثر الافتخار، ويظهر لمن يحزنه أمره - الاستبشار، حتى عرف بقاتل ابن أبى الخصال - سِمَةً غدت إليه، وأهدت حينه إليه، قال: وكان لابن غنية على فقد غنائه أسف زائد: هو بمجدهم شاهد، ولمحمدهم سائد، وهذا الآثم قد أركبه البحر إليهم سيل الفتنة، واعتقد أنه بميورقة جان للمنحة، وناج من المحنة، فربما جفوه إذا رأوه، ومقتوه متى لحظوه، واتفق أن عاينه يوما إسحاق ابن محمد - وتيفوت البائس قد ذهب فتاؤه، وكتب بنفوذ قضاء الله فيه فناؤه، فدعا به، واستدهى منه وصف عدائه، فما فرغ من ذلك حتى التفت إسحاق إلى جلسائه، وقد غضب واستشاط، وزوى الله تعالى عنه الاسترسال والانبساط، وقال: ينبغى لمن قتل ابن أبى الخصال أن يقتل، ويحق لمن لم يرع حقه أن يعاجل ولا يهمل، ثم أمر فأجهز عليه، وجر برجله من بين يديه، هذا أو معناه ما أسمعناه، وإنها لآية فى الأخذ بثأره، وعناية من عالم إعلانه وأسراره، علم بها أنه تقبل أعماله، ورحم جلاله وجماله[1].

(١) المعجم لابن الزبار ص ١٤٧ - ١٤٨ (ط. أوروبا) وإلى هنا ينتهى كلام ابن الأبار فى المعجم.

ومن شعره - رحمه الله:

يا حبذا ليلة لنا سلفت أغرت بقلبى الهوى وما عرفت

دارت بظلمائها المدام فكم نرجسة من بنفس قطفت

ثم انطوى دهرها ومن أسف إن صرفت لوعتى وما انصرفت

وله فى وصف نار مضرمة فى فحم:

أما ترى النار وهى راقصة تنفض أردانها من الطرب

تضحك من ابنوسها عجبا إذ حولت عينه إلى ذهب

وله فى مطيب ورد مفصل بترنجان:

وورد جنى طالعتنا خدوده ببشر ونشر يبعثان على السكر

وحف ترنجان بها فكأنها خدود العذارى فى مقانعها الخضر

وشعره كثير أوعب ذكره[1] - ابن الأبار فى معجم أصحاب الصدفى، وذكره ابن بشكوال، وابن الزبير فى الصلة - وليس من شرطه، وابن بسام فى الذخيرة، ولابن أبى الخصال - رحمه الله - عدة قصائد نبوية، منها قصيدته الشهيرة المسماة بـ «معراج المناقب» ومنها عدة قصائد عارض بها بعض قصائد حسان بن ثابت - رضى الله تعالى عنه.

وقد رأيت أن أذكر تأليفا للإمام ابن حبيش، اشتمل على تخميسها فيكون فيه المطلوب وزيادة، وقد ألفيته بخط مؤلفه بل أحد تلامذته، وهذا نص ما كتب على ظهره - بعد أن سماه بـ «العقيلة الحالية، والوسيلة العالية» فى تخميس القصيدة المسماة بـ «معراج المناقب، ومنهاج الحسب الثاقب» -

(١) فى هامش المطبوع: «لم يذكر ولا بيتا من شعر ابن أبى الخصال، ولعل مراد المؤلف أن ابن الأبار استوعب الكلام عن ابن أبى الخصال، كما سبق.



obeikandl.com

فى معجزات رسول الله - ﷺ، ونسبه الشريف، ومناقب أصحابه الكرام - ﷺ تسليما، ورضى عنهم أجمعين - من نظم الفقيه الأبرع، البليغ المصقع، الكاتب المتفنن، العارف المتسنن، أبى عبد الله محمد بن مسعود بن طيب بن فرج بن خلصة أبى الخصال الغافقى - رحمة الله عليه، خمست ليتوسل فيها إلى الله العظيم، بمدح نبيه الرءوف الرحيم، ورسوله الأواه الحليم، وبتحلية أهل بيته الكريم، وأصحابه أولى السبق والتقديم، وأزواجه الطاهرات أمهات المؤمنين ذوات البر والتكريم - صلى الله عليه ثم عليهم أفضل الصلاة، وسلم أشرف التسليم، وأعقلنا من حبه وحبهم حرمة تحرم بنا من التنعيم إلى جنات النعيم، وأذمة تنفعنا بالتصميم على الود الصميم وإيمانا تحجم عن نوره نار الجحيم، وأمانا يتلقانا يوم الفزع الأكبر بالسلام والتسليم، ويهدينا بكرمه المعين هداية العلية للصراط المستقيم، ويؤوينا إلى حرمه الأمين، أَوْآية الفتنة إلى الكهف والرقيم[1]، ويميزنا بعناية سيد البشر وشفيع المحشر، تمييز الأغر من البهيم، ويخصنا من شفاعته المشفعة، ومجاورته المرفعة، بالقسم الوجيه، والوجه القسيم، ويسكننا بين كرام أكرمتهم عبادة ونسك، ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ (٢٥) خِتَامُهُ مِسْكٌ ... (٢٦)﴾ [المطففين]، ﴿وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ (٢٧)﴾ [المطففين]، ﴿يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ (٨٨) إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩)﴾ [الشعراء]تأليف الفقيه أبى عبد الله محمد بن الحسن بن يوسف بن الحسن بن حبيش اللخمى المرسى - رضى الله عنه - انتهى ما على ظهر الكتاب، وهذا أوان سرده بكماله - إن شاء الله تعالى.

(١) يشير إلى قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا (٩)﴾ [الكهف].

قال الشيخ ابن حبيش - رحمه الله:

جلت عن ذكاء الحسن غيم التنقب
لتثنى غربى عن ثنايا التغرب
بأحور ساج أو بألعس أشنب
إليك فهمى والفوائد بيثرب
وإن عاقبنى عن مطلع الوحى مغربى

وكتب بالطرة ما نصه الرواية إليك - بفتح الكاف، ولكن المخمس أراد الاستفتاح بيسير من الغزل، فقاده ذلك إلى كسر هذه الكاف، ولم يبدل من هذه القصيدة فى هذا التخميس تحريك ولا تسكين إلا فتحة هذه الكاف. انتهى.

قال ابن حبيش المخمس رحمه الله ورضى عنه:

صحبت الليالى فانجلى لى سرها متى تخدع المشتاق - لا در درها
فيذهب أحلاها ويبقى أمرها أعلل بالآمال نفسا أغرها
بتقديم غاياتى وتأخير مذهبى
أجل مرادى لو تساعد أسعدى حنين ركابى نحو حاد مغرد
ولا حاجز دون الحجاز لمقصدى ودينى على الأيام زورة أحمد
فهل ينقضى دينى ويقرب مطلبى
متى تسعد المشتاق بالقرب رحلة تقابل فيها للمدينة قبلة
وهل تشترى بالروح فى الترب قبلة وهل بقيت من مركب العمر فضلة
تبلغنى أم لا بلاغ لمركبى



obeikandi.com

وهل يشتفى من مكة أهل غيبة وهل وقفة فى باب أبناء شيبة
أرجى الرضى فيه بتعفير شيبة وهل أردن فضل الرسول بطيبة
فيا برد أحشائى ويا طيب مشربى
مغان تجير المذنبين بجاهها غدت جنة إن لم تكنها تضاهها
جرى ضرب بالمسك بين رداها ألا ليت زادى شربة من مياهها
وهل مثلها ريا لغلة مذنب
فليت الصبا ركب بروحى سائر لأرض ثواها ناصر ومهاجر
وليت ثراها إثمد لى عاطر ويا ليتنى فيها إلى الله صائر
بقلب عن الإيمان غير مقلب
لقد فاز من أمضى القضاء اعتزامه فطنب فى دار الرسول خيامه
وطيب محياه بها وحمامه وإن امرءا وارى البقيع عظامه
لفى زمرة تلقى بأهل ومرحب
أجل بلاد الله مبدا ومحضرا بها اختار للمختار قبرا ومنبرا
فمن مات فيها بالشهادة بشرا وفى ذمة من خير من وطئ الثرى
ومن يعتلقه حبله لا يعذب
تناسمنى للشوق أعطر نسمة وتشرق لى بالشرق أنوار رحمة
فأقضى بهم أحيا بهمة ومالى لا أشرى الجنان بعزمة
يهون عليها كل طام وسبسب

عنانـى بيـــسـرى والقناة بـأيمن وعـضبى أنيـسى والتنوفة مـوطنى
فـمالى إذا أمـضـيت عـزمى ينثنى ومـــاذا الذى يثنـى عنانى وإنـنى
لجـواب آفـــاق كـثـيـر التـــقلب
أيفنى كـذا عمـرى وأمـرى غمـة وما الغدر - والأعذار فى الحب تهمة
أروع فـإن الصب بالشـوق بهـمـة أفـقـــر فـفى كـــفى لله نعـــمـة
وبين فـقد فارقت قـبل - بنى أبى
تعطشت والحجاج من زمزم ارتوت ونالت-على رغم النوى-كل ما نوت
فمالى لا أطوى من البـيد ما طوت وقد مرنت نفسى على البعد وانطوت
على مثل حـد السمـهرى المذرب
أوامـر سلطان الهوى كم أطعـتهـا وحملت نفسى فـرقة ما استطعـتها
فكم واجبـات للتقى قـد أضعتـها وكم غـربة فى غيـر حق قطعـتهـا
فـهـــلا لذات الله كـان تغـــربى
إذا أحـسن التـأويل بى مـتجـاوز فـأيســـر عـيب فى أنى عـــاجـز
أذو الصدق هـالته السـرى والمفاوز وكم فـاز دونى بالذى رمت فـائز؟
وأخطانـى مـــا ناله مـن تقـــرب
أحب وفـــود الله لو كنت وافـــدا أو دعـهم جـمعـا وأرجع واحـدا
أحـرض من يسرى وأخلد حـائدا أراه وأهوى فـعـله البـر قـــاعـدا
فـيـا قـــعـدى البـر قم فـــتلبب

لنفسى بتأميل البقاء اعتذارها وهبها تبقى والرجاء اغترارها
فأين إلى قصد الحبيب بدارها أمانى قد أفنى الشباب انتظارها
وكيف بما أعيا الشباب لأ شيب
خبأت لدهرى صولة ابن مكدم فألوت بحملى غربة ابن محلم
وللوخط فى فودى فتك ابن ملجم وقد كنت أسرى فى الظلام بأدهم
فقد صرت أغدو فى الصباح بأشهب
بمغترب التغريب طال توطنى وفى بلد التبليد ضاع تفطنى
ولا منقذ من بحر يغطنى فمن لى وأنى لى بريح تحطنى
إلى ذروة البيت الكريم المطنب
إلى المصطفى للبعث من خير محتد إلى المعتلى للقرب أرفع مصعد
إلى الشافع المنجى من النار فى غد إلى الهاشمى الأبطحى محمد
إلى خاتم الرسل المكين المقرب
إلى المقتدى حتى المعاد بهديه إلى المرتقى لله مرقى نجييه
إلى صاحب الحوض المغيث بسقيه إلى صفوة الله الأمين لوحيه
أبى القاسم الهادى إلى خير مشعب
إلى من له الإعجاز يعجز عده إلى من رآه البدر فانشق خده
إلى من سرافيل وجبريل جنده إلى ابن الذبيحين الذى صيغ مجده
ولما تصغ شمس ولا بدر غيهب

إلى من تدانى قاب قـوسين إذ سرى إلى سامع النـجوى بلا واسط يرى
إلى المجتـبى فى الغيب أكبر أكـبرا إلى المنتقى من عهد آدم فى الذرى
يردد فى سـر الصـــريح المهـذب
إلى مغرق الإسهـاب فى بحر نعته إلى من تهـدى كـل هاد بسـمـتـه
إلى من تمنى الـرسل إدراك وقـتـه إلى من تولى الله تـطهـيـر بيـتـه
وعصـمتـه من كل عيص مـؤثب
إلى خـير مـبعوث إلـى خيـر أمة حـبتـه يد التمـكين أوفر قـسمـة
وحفته فى الأصلاب ألطاف عصمة فجاء برىء العرض من كل وصمة
فما شـئت من أم حصان ومن أب
كفـاه من الرحمن مـدحا مصـرحا بشرح "ألم نشرح" وإيـضاح "والضحى"
فقد أفحم القرآن من قـال مفصحا كروض الربى كالشمس فى رونق الضحى
كناشئ مـاء المزن قـبل التـصـوب
غـــفـــرنـا به للدهـر كل إســاءة جـلا غيـهب الدنيـا بأبهى إضـاءة
كـســا أوجـه الأيام كـل وضـاءة عليـه من الـرحـمن عـين كـلاءة
تجنبـــــه إلمام كـل مـــــجـنب
تقـدس بدءا من شـعـــوب جليلة إلى منتـهـاهـا من أعـز فـصـيلة
فـمـا مـر إلا فى طريـق فـضـيلة إذا أعـرضت أعـراقـه عن قـبـيلة
فـمـا أعرضت إلا لأمـر مـغـيب
ولا طبعت إلا علـى البأس والندى ولا رضيت إلا إلى الخلد مـصعدا
ولا عـمـرت إلا رباطا ومسـجـدا ولا عبرت إلا على مـسلك الهدى
ولا عـــثـرت إلا علـى كل طيب

فـينـمى حـبـاه الله أنمـى صـلاته لكل ســرى ســاد بـين ســراته
بعـالى مـعـاليه وسـامى سـمـاته فـمن مـثل عبـد الله خـيـر لداته
وآمنة فى خـــيـر ضـنء ومنصب
كـــريمـة وهب واهبـــا كل بدرة نمت فى كـمـام المجـد أبهج زهرة
ولاحت بأفق السـعد أشـرق زهرة إذا اتصلت جـــاءتك أفـــلاذ زهرة
كأسد الشـرى من كل أشوس أغلب
فلله بـدر قـد جـــلا كل حـــالك لإنجـــــابه أنجـى به كـل هالـك
فـمـا مـثل ذاك النور هاد لسـالك ولا خال إلا دون سـعد بن مـالك
ولو كـان فى عليـا معـد ويعـرب
سجايا يا رسول الله نفسى لها الفدا عراب لأحبـاب عذاب على العدى
فمـا السحب إن أهدى ومـا الشهب إن هدى ومن ذا له جد كـشيـبة ذى الندى
وساقى الحجيج بين شرق ومغرب
مليك البـرايا غـير أن لم يـبايعـوا فـأهلا بمـرضى الفـعـال المـتـابع
وسـهـلا بمسـمـوع المقـال مطاوع سـؤدد الـبطحـاء غـــيـر مـــدافع
وحرمـة ما بين الصفـا والمحصب
رئيس قـــريش عند سلـم وغـزوة بـظـل لـواء أو بمـجـلـس نـدوة
يفض لجـيش الحـبش أوثق عـروة أبو الحـارث السـامى إلى كل ذروة
يقـصـر عن إدراكهـا كل كـوكب

رأوا بركـــات فى كـــراه ونبـهـــه وبدلهم عـــشـــر الورود برفـهـــه
وجـاد به دهـر بخـيل بشـبـــهـه ونافـــره حـرب فكـب لوجـهـــه
وقد كـان لولا جوده فـوق مرقب

أضاف لكسب الحـمد مـيراث جلة وأضـفى من الأمـداح أسـبغ حلة
ولما نوى صـــهـــرا بأشـــرف حلة أتيـحت له خـيـر الفـواطم والتى
أتيح لهـا فى المجد خـير مـركب

فـمـا على كـل من الحق أوجـبت بما من أبى خـيـر الـبـرية أنجـبت
لســـيـــــد آل الله طرا تقـــربت عقـيلة مخزوم وعـمران فاحـتبت
على خـير مولـود وأكرم محـتب

لقد مهدت خـيرا على مهدها ربى رضـيـــة أخـلاق سنيـــة مـذهب
ســرية أعـــراق عليـــة مـنصب وطيـــبـة حـــمت لأطهـــر طيب
مطيـــبـــة زفـت لكفء مطـيب

تميـم دار الأمن أهل خـــيـــــانة فـقـد صـرفـوا عن عـــزها بإهانة
ودان بنـو حـــام لحـــامى ديـانة به وبمـا فى بـرده من أمـــــانـة
حمى الله ذاك البـيت من كل مرهب

غرابيب عافت بقعـة النسك بعقهم أتوا حرما أضحى به القتل شرعهم
فـرد عليهم صـانع الخلق صنعـهم وأهلك بالطير الأبابيل[1] جمعهم
فـيا لـهم من عارض غـيـر خلب

(١) يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾ [الفيل].

مبادئ إعجاز تلتها نهاية بمولود ذاك العام عمت عناية
فللدار والجيران عنه رعاية وفيما رآه شيبة الحمد آية
تلوح لعين الناظر المتعجب
وفى أمره فى الحلم بالسقى مسرعا وفى سلسل من مبرك العود أنبعا
وفى نذرة ذبح ابنه متبرعا وفى ضربه عنه القداح مروعا
ومن يرم بين العين والأنف يرهب
وقد نال منه أن ينال حبيبه فأقبل يدعو والفضاء يجيبه
لفرعك زهر يملأ الأرض طيبه وما زال يرمى والسهام تصيبه
إلى أن وقته الكوم من نسل أرجب
أعاد ثلاثا ضربها متعوذا فلما استقر الأمر قال: انحروا إذا
وأبقاه حكما فى الديات منفذا وكانوا أناسا كلما أمهم أذى
تكشف عن صنع من الله معجب
إذا غضبوا فالله للقوم يغضب ومهما رضوا فالمزن يهمى ويسكب
هناك صفا عذب وأزهر معشب وعاش بنو الحاجات منهم وأخصبوا
وإن أصبحوا فى مربع غير مخصب
لهم نبأ أسماعنا تستعيده لذيذ يشور الشهد منه شهده
وكيف على الأيام يبقى جديده وعمرو المعالى هاشم وثريده
بمكة يدعو كل أغبر مجدب

إذا ندف الصنبـــر كل سـبـيـخـة وصمت لعصف الهوج كل مـصيخة
دعـا الجفلى من غلمـة ومشـيخـة لمثـتى جـفـان كالجـوابى منيـخـة
ملئن عـــبـــيطات السنـام المرعب
فلـولاه مـــا لاذ العناة بمـنقـــذ ولا عـاذ سكـان الصـفـا بمـعـوذ
ولا سـددوا فى الرحلـتـين لمنفـذ هو السـيد المتـبـوع والقمـر الذى
على صفحتيه فى الرضى ماء مذهب
ولمـا دنـا لـلـديـن إطـلاع بـدره ونقب عـمـرو عن حظيـة عـمـره
لتـختـار للمخـتار من حى نصـره بنى الله للإسـلام عـــزا بصـهـره
إلى منتـهى الأحـيا من آل يثـرب
درى أن سيـبدى الغيب مـه سريرة فـرام على ذاك الظـهـور ظهـيـرة
ومن صـفـوة الإيثار صـافى أثيـرة وخص بسلمى بنت عـمرو ذخـيرة
على كل بـكر من قـــريش وثيب
تيـــمن خطبـا إذ تـيـامن خطـبـة وأسس بين النضـر والأوس قـربة
وطنب فـى أعلى المدينـة قـبـــة فـأثبت للإسـلام فـيـها مـحـبـة
وقـاد من الأنصـار كـل مـحـبب
إلى وده انقـادوا قروما مصـاعبـا أدرهم عـام المحـــول سـحـــائبـا
وأطلعـهم ليل الحـروب كـواكـبـا وكـتب منهم لـلرسـول كـتـائبـا
علـيـــهم مـن الماذى كل مكـتب

فـمن مـتـقـاض بالقـواضى ديونه وبان على متن الحـصـان حصـونه
ومـسـتـعـذب طوع النبـى منونه يفـدونـه يوم الوغى ويـقـونه
بأنفس صـدق بأسـهـا لم يكذب
سطت بذئاب الكفر شدات أسدهم وكم بذلوا الأرواح صـونا لمجدهم
فـمـا نصـر المختـار إلا بجندهم ومـا دوخ الكفـار إلا بحـدهم
سنان طـرير أو سنان مـحـرب
بنو النضر أسـمى حلة حيث حلت بدور تجلت فـى سـمـاء التـجلة
رياض مـعـال أثمـرت وأظلت وعـبـد مناف دوحـة الشـرف التى
تفـرع مـنهـا كل أروع مـحـرب
تسـمـيـة أمـال النوالى بـكنزها وتأوى ملوك الأرض منـه لحـرزها
وتعنو نواصـيـهم له خوف جـزها مطاع قـريش والكفـيل بعـزها
ومـانعـهـا من كل ضـيم ومنهب
ولما اقتـفى من أشرف الصـهر سنة وقـد آن أن يسـتـشـعـر الخلق منة
تزحـزح عن نـار وتسكن جـنة تخـيـر من سـر الـعـواتك مـزنة
لهـاشـمه جـادت بأمـرع صـيب
بأروع مـطعـام لدى كل لـزبة وأَلْيس مـقـدام على كل سـربة
وأبلـج بسـام إلى كـل كـربة ومـا كـان ذاك الطود إلا لهضـبـة
ذوائبـهـا فـوق السـمـاك المذأب

صفات كـروض الحزن – والمزن همع  يلذ له مـــجنى ويـذكـو تضـــوع
هم ما هم قـد راق مرأى ومـسمع  وزيد ومن زيد قـــصى مـجـــمع
سمـعت وبلغنا وحسـبك فاذهب
إليـه خـــبـيـئـــات المكارم أبرزت  وبالمدح فـيـه حلة الفـخـر طرزت
شريف كم اعتزت بطون له اعتزت  به اجمـتعت أحياء فـهر وأحرزت
تراث أبيـــهـا دون كل مـــذبذب
أعـاد المجلى فى العدى كـسكيتـه  بما قـــاده من ورده وكـــمـــيـتـــه
فطعـامـعهـم لم يثن ليْـتًا لليـتـه  وأصـبـح ملك الله فى آل بيـــتـه
فـهم حوله من سـادنين وحـجب
لقد حفظت فـيهم حقوق مـضاعة  ومن بيـتهم ردت عليـهم بضاعـة
وعن إرث إسماعيـل دبت قضاعة  ومـا أسلمـته عن تـراض خزاعـة
ولكن كـمـا عض الهناء بأجـرب
تألف مـا ألفى من الأرض شاغـرا  وأطفـأ من كـيد الأعـاجم واغـرا
وبالعضب صلتا ألـقم الليث فاغرا  وقد رد سـابورا عن البيت صـاغرا
بخطبـة فصل أبعـدت كل مقـرب
وإذ جاش جيش الفـرس من كل جلهة  محا جـمعهم محو الدليل لشـبهة
وعـفـر منهم رعـبه كـل جبـهـة  وردهم من كـل أوب ووجـــهـــة
عـبـاد يد لا يلوون نحـو المثـوب

تحلت قـــريش منه أبهى فـضـــيلة ورتب حـول البـيت كـل قـبـيلة
كـما حف تقـصار بـجيـد عقـيلة وأيد من حـــبى بـخـيـــر حلـيلة
نماهـا حليل فـى ذؤابة يشـــــجب
حوى الكعـبة العليـا فأعلى كعـبه وحـفتـه أقـمار المحـيط وشـبهـه
فـمـــا بوركت إلا حـصـــان تربه وحسب التى جـاءت بزيد وحسـبه
بفخر لهـا منه على الدهر محسب
خـئـولـتـه تنمى لصـيـــد أكـابر فمن أين لا يسـتل عضب المفـاخر
ويحـتل ربع المجـد أشرف عـامـر وفاطمـة من بيت عمرو بن عـامر
ومـاء السـمـاء الطاهر المتـصـبب
لمحتـدها من يعرب الشـرف العلى ففى الأزد زاد الركب فى كل مجهل
ومن سـيل سيل مـحا كل جـدول ومـا ســببت إلا لمجـــد مـؤثل
توطده والله خـــيـــر مـــســـبب
فـتى يملأ الشـيـزى ويروى سنانه بنى شـرفـا قـاد الـسـمـاك عنانه
بجـــود عناه أو بـجـــد أعـــانه ومـا مـــات إذ خلى عليـــه مكانه
كـلاب ومن يشـهده لم يتـغـيب
فـمن أوجـه نضـــرية ذات نضـرة ومن شـيـم غـر إلى شـيـم غـرة
تلاقى الـسنا من أســرة وأســرة ولاذت قـريش من كلاب بن مـرة
بجـذل حكاك أو بعـذق مـرجب

فـمـا القطر إلا قـطرة من بحـوره وما الصبح إلا لمحـة من سفـوره
يفـيض السنا فى شـهـبـه وبدوره أبو الصـرحـاء الغـر حـيت بنوره
صـريحـة أبناء الشـوير بن ثعلب
تتـوج تـاجى رفـعـة ومـكانة وأسـبغ بردى عـفـة وصـيـانة
فـقـضت به الآمـال كل لبـانة لهنـد ومن هند كـخـيـر كـنانة
نجيـبة عصـر جهزت نـحو منجب
تجلى لـعـين الـزين أبهج قـرة وراق بـسلـك المـلـك أنفـس درة
وزان مـحـيـا الحى أشـرف غـرة ومـرة ذو نفس لدى الحـرب مـرة
وفى السلم نفس الصـرخدى المذرب
تقابـل فى الأمجاد من كـل جانب وسـادته سـروا باهرا للـكواكب
خـئولة فـهر فـى عمـومة غـالب لوحـشية الـبيضـاء بنت مـحارب
فـسـيـمـتـه فى أصله المتـشـعب
نمتـه كـرام زينوا البـأس بـاللهى يفـيضـون إيمـانا ينيـرون أوجهـا
سمـوا كالدرارى والمعاند كـالسهى وكعب عقـيد الجود والحلم والنهى
وذو الحكم الغـر المبـشـر بـالنبى
مـشـهـر عليـاه وكـاتم عـرفـه وواصف هدى يهـتـدون بوصـفـه
يسـود بواديـه يقـود بزحـفـه خطـيب لـؤى واللـواء بكـفـه
لخطـبـة ناد أو لخطة مـقـنب

قضى فى اللهى بذلا وفى العرض منعة أجل بنى فهر جلالا ورفعة
وأقوم من فى فترة الوحى شرعة وأول من سمى العروبة جمعة
وصدر أما بعد يلحى ويطبى
فيا طبقات اللحد كيف علوته وما طمعت زهر النجوم بفوته
وقبل الظبا فل الجيوش بصوته وأرخ آل الله دهرا بموته
سنين سدى أتعبن كف المحسب
وعادات عرب أن تحافظ عهدها بتاريخها من موت من جل عندها
وقد أرخت من موت كعب وعدها بخمس مآت ثم عشرين بعدها
مكملة واستنطق الكتب تعرب
له عفر الأمجاد خد ضراعة فتلقاه عدنان بسمع وطاعة
وترضيه قحطان بجهد استطاعة لماوية الغراء خير قضاعة
لكعب فتى القين بن جسر بن تغلب
مفرق وفر جامع للمحامد غدا خطوة تاجا لهام الفراقد
بغر المساعى والجدود الأماجد وأضحى لؤى غالبا كل ماجد
ومن غالب ينميه للمجد يغلب
فناهيك من غض المحاسن أبلج ومن فاتح للمرتجى كل مرتج
أقر له بالرق كل متوج وجاءت به وحشية بنت مدلج
هماما متى يستقدح المجد يثقب

يتـمم زيا للـهـيـاج مـتى ابتـدى  يعـمم فـيـهـا بـالردى كل مـرتد
بمســرودة زغف ومــاض مــهند  وألقى علـيـه غـالب كـل سـؤدد
يقـصر عن أوصـافـه كل مسـهب
بهم صـحت الأزمـان بعـد زمـانة  وهدئـت الدنيـــا لأهدى ديـانة
ترقــوا بأعلى الرسل أعلـى مكانة  ومــا مـنهم إلا مــؤدى أمــانة
يصان لها صون الضـمير المحجب
لهم بأغــر الخلق عـز وحــرمـة  تجلى بـهم جلى وتـفــرج أزمــة
وكلهم حـامى الحـقـيـقـة بهـمـة  وحـامل نور حظـه منه عـصـمـة
وتقديسـه من كل عاب ومـجدب
خـلال جـلال مـبــدآت مـعـادة  نماهـا عــلاء باهـر ومــجــادة
وغـالبــهم قـد غلبتــه سـيـادة  له من هذيل فـى الصـمـيم ولادة
تزاحم أعــراف النـجـوم بمـنكب
نزاع العــدى منه بأروع أحــوذى  على السمت من أسلافه الصيد يحتذى
وزاد سـمـوا آخــذا كل مـأخـذ  بليـلى لغنم وابـنة الحــارث الذى
له الفـيلق الجأواء من كل مـوكب
مضت أعصر - والقـوم عصرة أهلها  رأوا بركـات الوحى قبـل محلهـا
صلاح بها الإصـلاح للأرض كلها  وفـهر أبو الأحـياء جـامع شملهـا
وكاسبـها من فخره خـير مكسب

أووا منه فى أزم الزمان وأزله إلى متبع فرض السماح بنفله
يبيد نداه ما يفيد بنصله تقرش فامتازت قريش بفضله
وسد فسدوا خلة المتأوب
أحان العدى رعبا وما سل منصلا وشعشع للأخلاق أريا وسلسلا
وقلد للتقريش عقدا مفصلا وغادره اسما فى الكتاب منزلا
يمر به فى آية كل[1] معرب
مذاكيه فى الأقطار داست ودوخت وفى كل روع كم أغاثت وأصرخت
بدا غزة فى جبهة الدهر شمرخت وجندلة بنت المضاضى شدخت
به كل ذمر للعلى متوثب
يروع سرب الشمس إن هز نصله وتهفو الدرارى حين يرسل نبله
أطل على المجر اللهام فطله فأصبحت الأعناق خاضعة له
كما استسلمت كدر البغاث لأشهب
تشابك عزا بالنجوم الشوابك وقالت علاه ما السماك بسامك
صوارمه للفتك فى كل فاتك ومالك المربى على كل مالك
فتى النضر حابته السيادة بل حبى
غمام سفوح بالحياة وبالردى به الرى للعافين والصعق للعدى
نوال لمن رجا نكال لمن عدا هو الليث فى الهيجاء والغيث فى الندى
وبدر الدياجى حين يسرى ويحتبى

(١) يشير إلى قوله تعالى: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾ [قريش].

معرف عرف حسب ذى الحاج حجه وقبلة آمال إليها التوجه

حودى الطود والضرغام والبحر سرجه تردى بفضفاض على المجد نسجه

ولبس عليه فليجر ويسحب

سيادته أعفت من المن منها وأيامه أبدت بحسناه حسنها

وآماله نالت بيمناه يمنها وفخرا لهند بنت عدوان إنها

به أم وبل طبق الأرض معشب

فيا لكريم فى الكرام مردد صدور القنا يلقى كصدر مهند

وحمر الظبا يهوى كخد مورد وللنضر ما للنضر من كل مشهد

هو الشمس صعد فى سناها وصوب

تباح عطاياه ويحمى ذماره ويخشى معاديه ويأمن جاره

فللحكم ناديه وللعز داره ليالى أذكت فحمة الليل ناره

فما تستر الظلماء مقلة جندب

مقنى القنا من كل أغلب أضبط فكم شاحط من خوفها متشحط

وكم ريع منه القاسطون بمقسط وقيد إليه كل ملك مسلط

يقال له أقبل ذليلا أو اذهب

درى كل ملك أن سيد خندف سيثقفهم بالجود أو بالمثقف

فدانوا بتأميل له وتخوف فيزحف فى أغلاله كل متـرف

ويرسف فى أقتاده كل مصعب

مليك كفته جرده عن أسرة ضحوك إلى الآمال جم المسرة
عبوس لدى الأمثال جهم الأسرة نهيض الفتاة الطابخية برة
وأى معال بيته لم يهذب
كذا يعتلى عال ويفخر فاخر سما أول للعرب واعتز آخر
ففاضت هبات واستفاضت مفاخر وأعرض بحر من كنانه زاخر
يقاد إلى أمواجه كل مذنب
سحاب الحبا طود الحبى ضيغم الوغى طغى سيفه فيمن تجبر أو طغى
وحكم فى الباغين أضعاف ما ابتغى وخير حكما فى الصهيل أو الرغى
أو البيت أوعز على الدهر مصحف
وأشعر فى العقب السنى احتجازه لملك تطيع الأرض فيه حجازه
وقيل تخير ما تروم نجازه فلم يقتصر واختار كلا فحازه
إلى غاية العز المديد المعقب
فنون احتفاء ضمها منه أوحد بأربعها حياه جد مجدد
ليمهد سعد للرسالة مسعد له البيت محجوجا وعز مخلد
وأجرد يعبوب إلى جنب أصهب
فمن حملت فى النسل منه أمانة تكفل تقديس بها وصيانة
فقد حق أنجاد له وإعانة ومن ولدته بنت عمرو عوانة
فما الدهر من أدنى مداه بأرحب

طغـــاه ملوك غنمـــه لا غنيـــمـة وأغـلالهم بيض الظبـا لا رمـيمـة
فشت أيـمة فى متـرفيـهم وعيـمة وخـازم آناف الـعـتـاة خـــزيمـة
فـعـاذوا بأخـلاق الذليل المغـرب
قـــســـيم تراء ذو ثراء مـــقـــسم عـــدا كل ظلام جـــلا كل مـظلم
برأفـــة عـــلام وسطوة مـــعلم عظيم لسلمى بنت سـود بن أسلم
لكل قـضـاعـى كـريم مـعـصب
لهم سلف سـمر العـوالى وسامـر وحـاضـر كـبـر للـتكبـر حـاظر
يجـار به خـاش ويخـشـاه جـائر ومـدركة ذو النجح واليـمن عامـر
وخـير مـسمـى فى العلى وملقب
له النسبـة العظمى كما شـاء سروه تلاقى بهـا طهر الـغمـام وصفـوه
وللفـــخـــر منهـــا ضـــؤه وعلوه تراءى مـطلا إذ تقـــــمع صـنوه
فـفـــاز بقـدح طائر لم يـخـيب
عـموم ثناء لا يخـاف مخـصصـا وأتلع فـخـر رد كـيـوان أوقـصـا
تواضعـه أن يواطئ البدر أخمـصا لام الجـبال الشم والـقطر والحصـا
لخندف أن تستركب الأرض تركب
فـلا غـرو أن قـادت لهم كل أمـة سـيوف انتـقـام فى أيامن رحمـة
فهم سـحب إِمحال وأقمـار ظلمة وإلياس مـأوى الناس فى كل أزمة
ومـر بهم فى كل خوف ومـرهب

مبصرهم أمر المآب وقد أبوا وملهمهم أن يسنيروا وقد خبوا
ومذكرهم ما قد تناسوه إذ صبوا وزاجرهم إذ بدلوا الدين واستبوا
فأضحوا بلا هاد ولا متحوب
تخولهم بالوعظ صبحا وهدأة وفى السمع وقر لا يحسون نبأة
زمان نفى الجهال للحشر نشأة وحين دعوا بعلا ضلالا وجرأة
على ربهم واستعتبوا كل معتب
تمرس بالأعداء جذل حكاكه وأشرع للأوثان رمح سماكه
وقد قام من ملك الورى بملاكه وجاءهم بالركن بعد هلاكه
وقد كان فى صدع من الأرض نكب
سباه ألوا بأس شديد وقوة فألهمه نسيا بأغمض هوة
ليحفظ أمر الناس حفظ أبوة وما هو إلا معجز لنبوة
وبشرى وعقبى للبشير المعقب
أقام حقوقا للمقام المطهر وأشعر للتقديس فى كل مشعر
ووفق فى مرمى ومسعى ومنحر وحج وأهدى البدن أول مشعر
لها وفروض الحج لم تترتب
خصال بها قد حازت العرب خصلها تجالسه سمح الخلائق سهلها
وتصغى له عذب المقالة جزلها وكم حكمة لم تسمع الأذن مثلها
له إن تلح فى ناظر العين تكتب

تبـحبح مرقـى يبهر الـنجم سمـته كـمـا بهرت نظـمى حلاه ونعـتـه
وعن قنص يـغنيـه نـهب يشـتـــه إلى قنص تـنمـيـه سـوداء بـنتـه
كـلا طرفـيـه من مـــعـد لمنسب
عمائر لو لم يـعمروا الأرض عطلت سقوها نوالا فاض أو مـهجا غلت
فلولا انهمال السيب والسيف أمحلت وفى مـــضـر تاه الكلام وأقـــبلت
مـآثر سـدت كل وجـه ومـذهب
تضايقت الغـبراء عن فرط وسعـها وأخملت الخضـراء فى عظم ربعها
لصـيـد صناديد تسـود بطبـعـهـا وجشن وكـاثرن النجوم بجـمعـها
بأكـثـر منهـا فـى العـديد وأثقب
تعـجـبت حـتى لا تعـجب مـثله لصنوين قـد حـازا التـسـاوى كله
فلمـا بدا سـبق يـريغـان خـصله هنالك آتـى الله من شـاء فـضله
وقـيل لهـذا سـر وللآخـر اركب
إخـــاؤهمـا أخـيـــتـان تفـــاوتا وخـولف بالذاتيـن حـين تسـاوتا
وقيل لـدى الإنصاف شتـان تا وتا وكـان شـقـيقـى نبعـة فـتـفـاوتا
لعلم وحـكم مـاله من مـــعـقب
إن اشـتبـهـا فى مـأثرات رفـيعـة فمـا محلة فى الروض مثل مـريعة
ولا دجلة فى الفيـض مثل وقيـعة وذلك أمـــر الله يابن ربيـــعـــة
وتأسيسـه للوحى فاطف أو ارسب

همـا مـا همـــا لا فـعل إلا تكرم ولا كف إلا وهى تـشـقى وتـنعم
سـوى أن ذا غـفل وذلـك مـعلم ومـا منهـمـا إلا حـنيف ومـسلم
على بهج إسـماعـيل غيـر منكب
فـأربعهم قـد عـدل المجد قـسمـه كما عدل التـربيع فى الطيع جسمه
وكل ذكى صـادق الصدق رجـمه وقد سلم الأفـعى نبجـران حكمه
إليـهم ولم ينـظر إلى مـتـعـقب
ولما اسـتـــقـروا فى مكـين قـراره تطوف الجوارى حـولهم فى جواره
بنصـر قـراه فـى مـقـارى نضـاره رأى فطـنا أبدت لنـا عن نجـــاره
وكـان لنبع فـــاسـتـحـال لأثأب
فراستـهم قد صح فى الكتب نقلها يبـين بهـا عـقـد الأمـور وحلهـا
كـأن لسـان الغـيب عنـهم يملهـا وتلك عـــلامـات النـبـوة كلهـــا
تشـــيـر إلى مـنظورها المتـــرقب
فـيا مـادحهم أطنبـوا إن وصفـتم فما غاب عنكم فـوق ما قد عرفتم
أتت سنن سـبـاقـة إن قـطفـتـهم وقـال رسول الله مـهمـا اختلفـتم
ولم تعلموا قـصد السـبيل الملحب
وأقـصد إشـكال وأشكل مـقصـد وســد علـيكم كل بـاب يســدد
ولم يبق إقـلـيـد ســوى أن تقلدوا ففى مـضر جرثومة الحق فـاعمدوا
إلى مـــضـــر تلفـــوه لم يتـنقب

ربيع ندى يغنى بأول رودة فمن ذا يجاريه بجود وجودة
وبدأة نعماه لها ألف عودة وسودة عك أمه من كسوة
وعدنان ينميها لأقرب أقرب
يرون الندى كالفرض حانت وقوته فلا معتب إلا ذراهم بيوته
ولا سبع إلا ظباهم تقوته وما سيد إلا نزار يفوته
ومن فاته بدر الدجى لم يؤنب
تمضر ترد غمر العطاء وعده تنزر ترد زهر الثناء وورده
فإن نزارا ما ارتضى النزر رفده قريع معد والذى سد فقده
متى يأتهم شعب من الدهر يرأب
مجلل وجه الأرض من نسل جلة فطرف وصمصام وسرد وألة
ومترعها من أنجم وأهلة أبو أبحر الدنيا وأطوادها التى
بها ثبتت طرا فلم تتقلب
يذيلون إن عنت لحرب لبانة نفوسا عن الفحشاء فيها صيانة
تخف إلى الداعى وثم ركانة ولم يكفه حتى أعانت معانة
بكل عتيق جرهمى مهذب
لقد بسمت دنيا طويل عبوسها بذى عزة يضفو عليه لبوسها
له انقاد آبيها وذل شموسها وجاء معد والسماء شموسها
وأقمارهم فى ذيلة المتسحب

قطار سقى حزن البلاد ووعثها ثوى مذحوى كسب المعالى وإرثها
بأفلاك عز دائب السعد حثها وبين يديه الأنجم الزهر بثها
على الأرض حتى لا مساغ لأجنبى
حمى عربه فالعجم لم يأمنوهم وصال بكفار العدى مؤمنوهم
له الأرض إلا جيرة أسكنوهم تقسمها أبناؤه وبنوهم
فلا فضل عن رمح وأجرد سلهب
وخطارة تخدى بأروع باسم ومطنوبة بين النجوم العواتم
ومنشورة فوق الجيوش الخضارم وزوراء مرنان وأبيض صارم
وزغف دلاص كالغدير المثوب
ولما ارتموا كالموج من بحر درهم وقد ضاق عن أقمارهم وسع جوهم
بنوا بالعوالى ما ارتضوا لعلوهم ولولا انفساح فى بلاد عدوهم
لضاقت خطاهم عن مراح وملعب
تضمن سرا من سليل مطهر فلقى صونا فى مغيب ومحضر
وأجبر من ناواه من متجبر وقدما تحفى الله من بخت نصر
به والورى من هالك ومعذب
قضى الله فى سكنى المفاز مفازه فأضفى عليه جاهه واعتزازه
وحلى بإفرند المضاء جوازه وجنبه أرض البوار وحازه
إلى معقل من حرزه متأشب

حبـاه من الإجمـال أجـزل حظه وخلصـــه من مـغلظ القـلب فظه
ونجـــاه حـتى مـن تسـمـع لفظه وحل بأرمـــينيـــة تحت حـــفظه
لدى ملك عن جـــانبـيـه مـذنب
يشـيـد له ركـنى عـلاه ومـجـده ويقـضـى به حـقى أبيـــه وجـده
ولله ســـر فـيـــه أن حـان يبـــده فلمـا تجلـى الروع أسـرى بعـبـده
إلى حـــرم أمن لأبنائه اجـــتـــبى
أووا لمقـام مـــا أعـز مـقـيـــمـه يجـلون منه ركـنه وحطيـــمـــه
وللشـمل عقـد يحـفظون نظيمـه وقـد كـان رد الله عنهـم كليـمـه
ليـالى يدعـــو دعـوة المتـغـضب
ثووا مـــأمنا إن صـــاونوه يصـنهم ومهـما استـعـانوا الله فيـه يعنهم
إلى أن فـشـا حب التـغلب عنهم وجـاء بنو يعـقـوب يشكون منهم
ينادونـه هذا قـــتـــيل وذا ســـبى
رجـوا سلب الأمـر الذى بيـديهم وقـالوا لموسى سـر بجـيش إليـهم
وإلا دعـــاء فـــهـو أدهى لـديهم قـال له: لا تدع مـوسـى عليـهم
فـمنهم نبـى أصطفـيـه وأجـتـبى
هو المرتضى فى الأنبـياء وحـسبـه ســتـــرفع قـــرباه ويشـفع قـــربه
وفى بعـثـه هم تابعـوه وصحـبـه أحـبـــهم فـيـــه رضى وأحـــبـه
كـذلك من يحبـبه يكرم ويحـبب

أفـــضلـهم لما بلوت غـــيـــــوبهم  لتـفضـيل من ألفت فـيـه قلوبهم
وأنزع من شـرب الصـفـاء ذنوبهم  وأغفـر إن يستـغفـرونى - ذنوبهم
ومـهمـا دعـا داع أجـبه وأقـرب
رآهم كـليم الله مـــثل الأيمـــة  تضـاعف حـسناهم لرعى الأذمـة
ويوهب عـاص للمـطيع المسـمت  فقـال: إذن فاجعلـهم - ربى أمتى
فـمن ترضـه يارب يرض ويرغب
أفض بهـم ممن طغى كـل عـــروة  وأعتـد كلا فيك صحـبى وإخوتى
يشـدون أزرى أو يشيدون دعـوتى  فقـال هم فى آخر الدهر صـفوتى
يفضـون أعدائى ويسـتنصرون بى
خـلال مـعـد مـالهـا من مـعـدد  فكم من تقى نفس إلى عز مـحتد
ومن بشر وهاب إلى هدى مـرشد  دعـــائم إيمـــان وأركـان ســؤدد
مضت بعلاها مـهدد بنت جلحب
خـــواتم أنســـاب كـــدرة خـــاتم  تقضت وفـضل القوم غـير مـقاوم
وكم بعـدها من مـعلم مـتـعـالم  ومـصـعـد عـدنان إلى جـذم آدم
بأبين من قـصـد الصبـاح وألحب
مناسب تشـريف عدمنا شـبيـهها  إذا نبـهوا ى شـأو مجـد نبيـهها
مـلاحقـها فـيه يبـارى وجيـهها  ونهى رسـول الله صـد وجـوهها
وكـان لنا فى نظمـها شـد ملهب

نهى فـانتهيـنا واستراحـت عواذل فـلا نقلة عـمـا انتـقـى عنه ناقل
بمحكم ذاك الحـكم أسكت قـــائل والأَفَـأُد بـن الهـمـــيـسع مـــاثل
ونبت بن قـيـذار سـلالة أشـجب
حديث من الأنساب ما كان مفترى تجـمع فى ناديـه مـفـتـرق الورى
فحلوا حمى رحب الذرى سامى الذرى وواجـه إعراق الثـرى كل من يرى
وأسـمع إسـماعـيل دعـوة مكثب
بدورا تســام للتـسـامـى تبـادروا مـتى يتـأخـــر سـيـد سـاد آخـر
تقـضـوا وكل بـالقـضـاء مـؤازر وقـــــام خلـيل الله يـتلـوه آزر
أغـر صـبـاحـى لادهم عـيـهب
وكل عـــجـاب عـند آزر يلتـــقى مفـجر صـفو وهـو أكدر مـشرق
ومطلـع إشـراق ولـيس بمشـــرق إلى الناحر بن الشارغ الغمر يرتقى
وللراغ ثم القـاسم الشـامخ الأبى
تولوا وكل ســابق الفـخـــر باذخ تألقـهم فـى دهمـة الدهر شـادخ
ومـبـناهم فى ذروة العـز شـــامخ ويعـبـر ينمـيه إلى المجـد شـالخ
إلى الرافـــد الوهاب بـرك وطيب
فكم مـصعب قـادوه طوع جنابهم وكم حملوا من مـرسل فى إهابهم
فقد جاوزوا الجـوزاء عند انتسابهم لسـام أبى السامـين طرا سمـا بهم
لنـوح لملـكان الـعلى لمـثـــــوب

أثيب على عقل وفضل مكمل بتكثير نسل فى بقاء مطول

فبورك فيه من أغر محجل لإدريس ثم الرائد بن مهلهل

لقينن ثم الطاهر المتطيب

لقد فض عن سر العلى كل خاتم وأحصى علوما أرشدت كل عالم

لرغم العدى مادونه من مراغم إلى هبة الرحمن شيت بن آدم

أبى البشر إلا على لطين لأثلب

لمبدئنا عدنا وذل قيادنا فكيف افتخرنا - والتراب ولادنا

به عن قريب لحفنا ووسادنا فمنه خلقن ثم فيه معادنا

ومنه إلى عدن فسدد وقرب

على فطرة نحيا ونبعث فى غد وبالسنة الغراء نهدى فنهتدى

برئنا إليها من غوى وملحد فنحن على دين النبى محمد

شفيع إلى استنقاذنا متأهب

إذا هال يوم الحشر واربد فجره تجلى رسول الله يشرق بشره

ونشر لواء الحمد يعبق نشره على موعد من ربه سيسره

ببشراه فى اليوم العبوس المقطب

لدار السلام اقتادنا بسلامة إمام لرسل الله أى إمامة

يشرفه الرحمن يوم قيامة ويبعثه فيه مقام كرامة

وبشرى لأمن الخائف المترقب

شـفاعـة فوز توسع الكفـر تعسـه يقـوم بهـا من شـاد للدين أسـه
وشـرف نوع العـالمين وجنسـه وكل نبـى لا يحـدث نفـسـه
بهـا فهـو منها فى تفـاد ومهـرب
بما خـصـه ينسى عـموم البـريئـة برى طاعـة هجر العـصاة المسيئـة
فـيـسلمـهم طـرا لحكم المشـيـئـة إذا أمـه جـمع يقـول خـطيـئـتى
ونفـسى نـفـسـى ذاك فـجنب
سـوى المـرتقى منهم لأرفع رتـبـة عليـه صـلاة الله قـدر مـحـبـتى
يبـوئـهم أكـتـاف قـربـى وقـربة فـيـأتونه من بعـد بـأس وكـربة
وقد ذهلت أم الصـبى عن الصبى
ينادون يا أعلى الـنبيـئـين جـانبـا أتى كل عاص نحـو فضلك راغـبا
عسى الله ينجى من أوى لك هاربا فـيـسجـد إعظامـا ويضـرع دائبـا
إلى أن ينادى اشفع تشـفع وتحبب
فيـقضى لنا من رحمـة الله فى غد بتـسع وتسـعـين اختـبـاها لموعـد
ويشمل أهـل الحشر جـاه محـمد وتلـفظ نار الله كـل مـوحـد
مـردى بغـشـيـان الكبـائر ملهب
فـيـخـرج أقـوام من النار خـفت قد اصطرخوا حتى أهينوا وأصمتوا
فهم حـمم لكن على الذكر ثبـتوا فـيلقـون فى نهـر الحيـاة لينبـتـوا
نبـات البزور فى حـميل مـجلب

فـيأتى من الله البـشـير مـبـيضـا لما اسـود من أبشـارهم ومـعوضـا
من اللهب الوقـاد روضـا مروضـا ويلحقـهم فضل الشفـاعة بالرضى
كلوا واشربوا من خيـر أكل ومشرب
فكل امرئ من خالص العـقد بحته يرجى لدى هـول المعـاد وبغـتـه
مـفـازا بتـشـفـيع الـنبى لوقـتـه سوى أن قومـا جعجعـوا بابن بنته
وحـفـوا به من قـاتل ومـؤلب
فـقد كـفروا فـضل الرسـول ومنه وضـاع لديهم مـا تلاه وسـنه
أحـين كـسـاهم أمـنه روعـوا ابنه وذادوه عن مـاء الغـفـرات وأنه
لنهب العـوافى من أسـود وربرب
لدى الـطف يا ويل لـكل مطـفف مصاب متى تسمع به الشمس تكسف
غدا بغيهم من سبـط أحمد يشتفى وأنحـوا على أوداجـه كل مـرهف
طرير وحـزوا رأسـه للتـوثب
ولو قـام يدعو واسـتغـاث قديمـه إذا لثناهم ذو الـفـقـار هشـيـمـه
ولكنـه فى الخلد رام نعـيـمـه كـأنهم لمـا أباحـوا حـريمـه
أباحـوا حـريم الـديلمى المحـرب
دهانا بشـر مـعـتـد كل مـعـتـد وفجع خـير الخلق فى خـير سـيد
وأهدى دجى ثـكل لأنور ملحـد فـيـا ربنا مـاذا جـزاء مـحـمـد
وواتره فـى أهلـه كـالمكـذب

لقـوا فى جـحـيـم رجـزه ونكاله كـمـا أثكلوا الهـادى بنـيـه وآله
وسـبطا غـدا ريحـانة فى الدنى له وقـاتله قـد فـات عن أن تـناله
شـفـاعتـه أو أن يقـال له أقـرب
أثارت لهم ثارات عـتـبة ضـغنهم وقلب تذكـار القلـيب مـجـنهم
فمن لم يباشر طعنهم يخش لعنهم برئنـا إلى الرحـمن منهـم وأنهم
لأجـهل جـهـال وأخـيب خـيب
بنفسى رسول شـرف الرسل أجمعا لتـذكـاره ذنبـا نفـوسـا وأدمـعـا
ومـهمـا عثـرنا قال إحـسانه لعـا وإنا لنرضـيـه وأصـحـابه مـعـا
ونأخـذ بالإجمـاع دون التشـعب
نرتب صحب المصطفى طوع وفـقه ونحـمل مسكوتا على حكم نطـقه
ونرعى لذى سـبق مـزية سـبـقـه ونعطى أبا بـكر عـتـيـقـا بحـقـه
ونجـرى إلى حـفظ الـنظام المرتب
عـتيق بن عـثـمان مـعم ومخـول لأوفـر أقـسـام السعـود مـخـول
بتـفـضـيله نص أتى ومـؤول ومـا قـبل ثانيـه من الناس أول
ولا مثل ثانى اثنين[1] مدحة مطنب
تنـحب تيـم رهطه وفـرقـه وأنجـبـه مـحض العـلاء عـريقـه
وسـدد خـيـر الأنبـيـاء طـريقـه ومن ينتـقص صـديقـه ورفـيـقـه
وصاحبه فى الغار يشرق ويشجب

(١) يشير إلى قـوله تعالى: ﴿...ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا... ﴿التوبة﴾. [التوبة].

ويحبط من الخيرات مـا كان عاملا ويخـبط بليـل لا يرى النجم آفـلا
ويدرج نفـاقـا بين جنبـيـه قـاتلا ويخرج من الإيمـان إن كان داخلا
وإن يأت يسـتعـتب فليس بمعـتب
لقد حاز فى الإسلام خـصل سباقه فـــرباه سـقـطا عـالما بـائتـلاقـــه
وأحـيـاه حين ارتـد أهل شقـاقـه مـؤلف شمل الدين بـعد افـتراقـه
وكـاشف خطب الردة المتـعـصب
معـادى الورى يبغى لأحـمد خلة ومـفنى القنا حـتـى تخلل شـملة
ولابس صـــديقـيـــة الله حلة وقـاتل قـوم فـرقـــوا الدين ضلة
وقـالوا صـلاة لا زكـــاة فـذبذب
فلو لم يقدهم - والجفون غضيضة إلى الصفح قدتهم صـفاح عريضة
شـفى ملة الإسـلام وهى مريضـة فـقـال الصـلاة والزكـاة فـريضـة
وليـست صلاة من زكـاة بأوجب
أللشـرع تبـديـل ومـا بعـد المدى بتـفريـقهم للدين أمـهـوا له المدى
أجاهدهم جهدى فهم أعظم العدى ومالهم - عندى - سوى سنة الهدى
أو السـيف فليدن أمـر أو ليعـزب
كـسـا العـرب - لما آمنت برد أمنه فـزارتـه من سـهل المزار وحـــزنه
لخـــوف يمـــانيـــة وتأمـــيـل منه وكـانت لسـيف الله فيـهـا بيـمنه
حروب شـفت من كل غل ونيرب

إمامته الصغرى أشارت وحسبه إلى صحة الكبرى فبودر نصبه
وفى قول "يأبى الله" زاد التنبه إمام ينام المسلمون وجنبه
على حسك السعدان يجفو وينتبى
رحيم السجايا يوسع الشرك نقمة سنا عدله لم يبق للظلم ظلمة
وشاد بنا الإسلام حكما وحكمة إلى أن جلاها كربة مدلهمة
بعارض موت للمنايا به حبى
تملك دنيا لم يعرها تلفتا وساس البرايا ماضيا متثبتا
وجمع وحى الله فى الصحف مثبتا ومهد للإسلام حيا وميتا
فأعظم به من حول الرأى قلب
بحسناه سار الناس أرفق سيرهم ولكن عناه بعده خوف ضيرهم
فأوصى إلى الوافى بتسكين طيرهم وعلق أبصار العباد بخيرهم
وأمضاهم فى الله هبة مضرب
بأوقر فى ناد وأسبق فى مدى وأصعب فى بأس وأسهل فى ندى
وأرحم فى صحب وأبطش فى عدى وأربطهم جأشا وأطولهم يدا
وأثقلم وطئا على كل مشغب
حسام عدى حاسمى عمر من عدا نجيب نفيل نافلى سلب العدا
سلالة خطاب خطيب من انتدى أبى حفص الفاروق عز به الهدى
وجاهر أهل الكفر لم يتهيب

رعى ملـة رد الممـــالك ملـكهـــا وهامت به الدنيـا فلم يعـد فكرها
وزاد إلى عـدل الخـلافـــة نسكهـا وعـز فبـز الفـرس والروم ملكهـا
ومن يعـتصـم بالله يغلب ويسلب
جـبـــابرة الأمـلاك طـرا له عنت فقسم أسـلاب القصور التى ابتنت
وقصم أصـلاب الجنود التى اقتنت ودوخ آفـــاق البـــلاد فـــأذعنت
وألقت إليـه كل مسـرى ومسـرب
فكم نقـــد الأبطال نـقـد زيوفـــه وجـهـــز رأيا مـغنيـا عـن ألوفـه
وبيض وجـه الدين حـمـر زيوفـه وأفنت حمـاة السرخ بيض سيـوفه
فلـم يبـق إلا كل ألـعس أشـنب
فمن فـضة فى المعـدمين يفـيضـها وذاهب أذهاب بأجـر يعـيـضـهـا
أفيـئت عليه صـفر دنيـا وبيضـها وفضت كنوز القوم يعشى وميضها
بزرق وحـمـر فى نضار مـشـبب
فكسـرى كسيـر تستـباح سـروحه وقـيصـر مقـصور تهـد صروحـه
مـحـاهم تقى تـاق للخلد روحـه فلما اقتضت وعـد الرسول فتوحه
وقـضى وأمضى كل هم ومـأرب
وفى الديـن والدنيـــا حنتـــه إرادة وللمـــلأ الأعلى دعـــتـه وفـــادة
وحنت له عـدن وحـانت سـعـادة أتته - ولم يوجف عليهـا - شهادة
وإن تنأه يـعنق إليـــهـا ويـنصب

تلقى حبيبيه بنفس تطهرت وجاور فى دار زكت وتعطرت

وأبقى عهودا للإمامة قررت وخيرها فى ستة فتخيرت

مبوأ صدق بابن أروى المحبب

بذى مهجة عند النبى زكية وذى رتبة عند الإله عليه

وذى سيرة عند الأنام رضية بعثمان ذى النورين بعل رقية

إلى أم كلثوم فأثل وأشب

رعى الله منه زاكى الخيم بره مواصلة الأرحام ترفع قدره

وتثنية الأصهار تجمع فخره وكان رسول الله يحمد صهره

وصهر أبى العاصى الرضى بعل زينب

هلال كمال والمعالى سماؤه هزبر صيال بالدعاء احتماؤه

غمام نوال بالنضار انهماؤه صريح لأقداح النضار انتماؤه

إلى كل نفاح المكاسر صلب

زكا من أبى عمرو حضور وغيبة وفاز مزجيه وللعذل خيبة

له بالندى حب وبالنسك هيبة تلاقى عليه عبد شمس وشيبة

وإن يلق مزنا وافد الريح يسكب

وبويع عنه بيعة نال رشدها بأكرم كف أكرم الخلق مدها

لذلك أصفته البرية ودها إذا ما تلقته الملائك ردها

حياء مردى بالحياء مجلبب

تقـدم بالإسـلام أكـثـر صـحـبـه ونال الرضى فـى هجـرتيـــه لربه
وأنفق فى الحـسنى كـرائم كـسبـه وجهـز جيش العـسر - منفـردا به
وقـال لخليل الله سـيـرى وأهذب

أطاق خطوبا ما ادعى الهضب طوقها بنفس إلى الفردوس عجل سـوقها
فأبدت له الولـدان والحور شوقـها وفى مسجد التقـوى المؤسس فوقها
مـناقـب وافت إذن كـل مـنقـب

توقى يمـين الصـدق بوم حكومـة بألف مئـات وافتدى من خصـومة
ونال من العـليـاء كـل مـرومـــة وسـقى عـبـاد الله من بيـر رومـة
بأنجع من مـاء الغـوادى وأعـذب

أذال مصـون الصين بالخـيل تلتقى وفى جـمع إفـريقـيـة بالتـفـرق
فـمـــزق شـمل الكفـــر كل ممزق وكم أثر بـاد وفـتح مـــشـــرق
وآخـر فى أقـصى البلاد مـغـرب

تنازع قـــوم فى تلاوة أحـــرف فألزم صحب المصطفى كتب مصحف
ورد لـه القـــــراء دون توقـف وذاد عن القـــرآن كل مـــحـــرف
علـى الله فى آيـاته مـــــتـكذب

رعى الدين رعى الهـزبرى المنجـذ على حذو خليـه من البر يحـتذى
وسل كل حـبر من بخـارى وترمذ إلى أن أتاه صـادق المـوعـد الذى
تقـــدم يوم القـف بعـــد تجـنب

فلمـا انقـضـى نسك به وعـبـادة تشـــوقت الحـــسنى لـه وزيادة
وقـيل غـدا صـمـه تفطرك سـادة وأفـضت به نحـو الجنان شـهـادة
ممحـصـة وافـت به حش كـوكب
نهى عن قـتال - والقلوب كليـمة وصحب الهدى بالذنب عنه رغيمة
وصـابر فى بلـواه - وهى أليـمـة وسيقت إلى الرحـمن نفس كريمة
على الحق فرى جلدها عض أكلب
هناك تحـرى القوم فى الفـضل نده فـســـد مكانـا ذو المكانة عـنده
وأغنتـه شـورى أن يجدد عـهـده وبويع خـيـر الـناس لاشك بعـده
ولو جوبوا فى الأرض كل مجوب
أبو الحسن المرضى من خيـر معشر لفـاطمـــة الغـراء بنت غـــضنفـر
صـفى وصـهـر وابن عم مـوقـر على أبو السـبطين صاحب خـيبـر
وعمـرو بن ود والوليد ومـرحب
بغـر المـزايا مـفـرد دون شـــركـة عفـيف له فى الحرب أهول فـتكة
سطا حاسرا والبـأس أحصن شكة أقـــام على الأفـــلاذ أفـــلاذ مكة
ببـطشـــــة بدر كل نوح ومـندب
عدا عن قليب الصفـو صف عديها وجـلاهم أن يرتعـوا فـى حليـهـا
ورواهم بـالطعن قـــبل رويهـــا فكم منطو من سـرهم فى طويهـا
وقد كان كـالجذع الطويل الشذب

على فـضله تثنى الخنـاصـر أولا وتثنى الطلى عجبـا به حين يجتلى
بدا حالى الأسمـاء أو سامى الحلى لعـبـد مناف ذى الزعـامـة والعلى
أبى طالب أعـجب به ثم أعـجب
تبنى رسـول الله فـيـمـا رويتـه فـأنس مـحـيـاه وأوحش مـوته
سما صيتـه فى العرب وامتد صوته مطل عـلى أبيـات مكة بيـتـه
ومـقـتـبس من نوره كل أخـشب
لكهف قـريش حـتف كل مـعـاند لمعـقلهـا الواقى لهـا فى الشـدائد
لسـيـدها الملـقى له بالمقـالد لحـامى رسـول الله مـن كل كـائد
ومـانعـه الفـادى لـه المتـعـصب
يروع العـدا حـتى بـطارق طيـفـه ويعطى مـناه من مناه وخـيـفـه
ولم يأل نصـحا للغـفارى ضـيفـه ليـالى لا يأوى إلى غـيـر سيـفـه
ولا ناصـر يعـدى ولا متـحـزب
وإذ جـاء غـاو للنبـوءة كـائد وقى ربهـا ثم ابـن عم مـعـاضـد
عـشـيـة يجـفـوه شـقـيق ووالد وإذ جل قـربـاه رجـال أباعـد
يطوف منهـم بين صل وعـقـرب
أقام فروض الخمس وهـو ابن خمسة وزاد لهـدى انبيـه تطهـيـر عرسـه
فـصف لى رحـمـاه وشـدة بأسـه له بـأبيـه الحق ثم بنـفـسـه
علينا - وعـقـد الدين لم يتـأرب

أفـــاءت له دثر الخـــــلال ظبـــاته فـأفنـتـه فى أدنى الزمـان هـبـاته
فـقـد قـبلت عند الركـوع زكـاته وقـد سبـقت أهل الصلاة صـلاته
بسـبع فكم فـــضل هناك مـوجب
وآخـــاه أعلى من تعـــمم وارتدى وشـرفـــه بالبـر فى كل مـنتـدى
وأحفى له البشرى وأضفى له الجدا وخص من الزهراء فـاطمة الهـدى
بأزكى نـســـاء العـــالميـن وأطيب
جرى والصحاب الغر فى شأو سؤدد فشاركـهم فى مجدهم شركـة اليد
وسـوغ مجـدا حـازه حـوز مفـرد وفضل بـالسبطين سـبطى محـمد
ولا سبط فى الدنيا فـشرق وغرب
فـــأهلا بأدنى صـــاحب وأمـتـــه تنكب عن وعـر السـبـيل وأمـتـه
وسار على هدى الـرسول وسمـته ومنزلـه منه على قـــرب بيـــتـــه
كهارون من موسـى فقرب وقرب
فكم كربـة جلى عن الدين عضـبه ولا مـشـــهـد إلا يشـاهـد قـربه
ومن كنت مـولاه كفـته وحـسبـه وعـــهـــد إليـــه أنه لا يحـــبـــه
سوى مؤمن فاحكم على المبغض الغبى
إخـــاء رسـول الله أثـل مـجـــده فـمن ثم يسـتـــملى تقـاه وزهده
إمام هدى فـى العدل أنفل جـهده وسيـان ترب الأرض والتبـر عنده
وقدر عـديم فى الحـقوق ومـترب

إذا جنت الظلماء طار هجوعه وقطعها قرآنه وركوعه
وأضواء من زهر النجوم دموعه ولما تولى الأمر زاد خشوعه
وطلق دنياه وقال لها اغرب
أبعد ابن عم للإمامة غاية وقد عم إجماع وخصت رواية
أما تنجلى عن أهل شك عماية وفى قتل عمار بصفين آية
وفى نابحات الركب ليلا بحوأب
ندين بحب للجماعة جامح ونبدع مدحا فى قواف بدائع
سوابقهم تكفى فحد عن منازع وكل إلى صفح من الله واسع
وجنات عدن فاطرح قول مجلب
سلوا المستحلين الذين أحلهم حرورية ذات الحرور أحلهم
تلقاه فيهم صادق الوعد قبلهم وإن قتال المارقين وقتلهم
لأعظم برهان وأكبر موهب
كفاه نقابا واستمعها مناقبا إشارته للفود ينعت خاضبا
وإنشاده بيت الزبيرى - عاتبا وأخباره عن ذى الثدية غائبا
بخبء فلما قتلوا ظهر الخبى
إذا رامت الأقوال حصرا لفعله فقد عالجت من عالج عد رمله
ولم تقض بعض الحق بالمدح كله وما تبلغ الأوصاف غاية فضله
ولكن كل الصيد فى جوف قرهب

دهتنا فأهوال المعاد معادة خبيئة خب من مراد مرادة
تولى فأحزان العباد عبادة إمام سعيد صبحته شهادة
بضربة أشقى العالمين وأخيب
ضياء لميراث النبوءة قد خبا فأظلمت الآفاق شرقا ومغربا
سكينة أرض أذهبت يوم أذهبا فأعزز على الإسلام ما هبت الصبا
بشيب كريم من شواه مخضب
إلى مجده عجبا بأبدع مدحة ومن رشده فزنا بأوسع منحة
وعن فقده أبنا بأفجع ترحة وفى منتهى الشورى الزبير وطلحة
وسعد تناهى كل فخر ومنقب
أكابر أعلام على العلم نقبوا قضى الله أن حبوا لديه وإن حبوا
قد انتخبوا للسابقات وأنجبوا فذا ابن عبيد الله طلحة موجب
وهذان مفديان بالأم والأب
فمنهم مجاب الأدعيات برحمة وأسمح معطاء وأشجع بهمة
فلم لا نقضى العمر فى رعى حرمة وذا صنو صديق وذاك ابن عمة
وذلك خال من يشابكه ينجب
حلا صفوة الأبرار أصفى تحببى هواهم من الدارين ذخرى ومكسبى
وبالمدح فيهم نحو ربى تقربى وفضل ابن عوف والأمير الرضى أبى
عبيدة فضل من يغالبه يغلب

بإنفـــاق ذا يفنى تلـيـــد وطارف وذا زاهد لم تستـــمله الزخـارف

فـحسـبى وصفـا أن تحيـر واصف وعاشـر أهل الطود والطود راجف

عـريق هدى فى الجاهليـة مثـقف

تسـامى عن الدنـيـا الدنيـة همـة ولا مـشهـد إلا سطا فـيـه بهمـة

وإن غاب عذرا يعط أجـرا وقسمة ويأتى أبـوه فى القـيـامـة أمـة

وقد كان فى الدنيا كـعنقاء مغرب

هم عـشرة حازوا الكـمال ضريـبة وحلوا بفـردوس قصـورا رحـيبـة

وواحـدهم مـا زال يلقى كـتيـبـة وكل لفـهـر أو قـصى صليـبـة

يقـــارع منهم كـل نبع بأصـلب

مـــفلـل هندى مـنيل هـنيـــدة حـلاه كسـلسال بصـفـو شـهيـدة

فكيف لنا عن حـبهم بعض حـيدة وأين بنا عـن حـمـزة وعـبـيـدة

ليـوم كـفـاح قـاتم اللون أكـهب

فكم قـد أباحـا من نفوس مـنيعـة بمشـرعـــة تحـمى أجل شـــريعـة

وقـاطعـــه سلت لأهل قطيـــعـة هما بطشـا فى الحرب بابنى ربيـعة

فـعـادا نهـابا بـين ناب ومـخلب

همـا هضبـتـا ثهلان أرسى وقـاره فذا ملجـأ الخاشى وذا مـستـجاره

فـمن قـل حـاميـــة وقل غـراره فـــذا أســد الله المـنيع ذمـــاره

مـتى يلقـه ليث الخـفـيـة ينشب

هما أوحداها فى مساع نبيهة فذا خير بذال لنفس نزيهة
وكعب إياد فى أياد بدهية وذا بهمة لا يثنى عن كريهة
متى يدع يوما للردى يتوثب
وللأب صنو ما أبر وأمجدا عميد قريش مستغاثا ومجتدا
ومن ورثت أعقابه الملك سرمدا وذو الصوت والصيت البعيدين فى الندى
وفى الحرب مهمى يطعن القرن يضرب
يعانق أعطاف القنى دون أبهة ويعرض سمعا عن تسمع بهة
وينده ذا حرب ويحبو بندهة أبو الفضل مأوى الفضل من كل وجهة
ومفضى سماء الفخر من كل مسكب
أنيس رسول الله - والسمر أشرعت يفرق عنه ما هوازن جمعت
ويثبت فردا والضراغم صرعت دعا فى حنين دعوة فتقطعت
بنو قيلة من محضر ومخبب
سقى حرميها والحفاظ يهجه فذا بدعاء للسماء عروجه
وذا بزلال تعتفيه حجيجه مقبل ظعن الحى أوفت حدوجه
فناهيك من سبط المفاصل شوذب
مضوا بمواض للنفوس مفتية وأرواح صدق فى الوغى مستميتة
ففى الله قد فازوا بأشرف ميتة وفى ذى الجناحين الشهيد بمؤتة
فضائل مهمى يحسب الرمل تحسب

صفى لخير الخلق أحفى معاشر ومشبهه من بين صيد أكابر
بخلق بهاء أو بخلق مآثر أفض عباد الله قلبا لكافر
وأرأفهم بالمؤمن المترهب
عمومة خير الخلق قدوة وأقمار أم الفضل للفضل صفوة
وستتها ما مثلهم قط إِخْوَة وللحبر عبد الله والبحر دعوة
علت وانثنت مقبولة لم تحجب
جمال لدى النادى ثمال لدى الندى روى هادى الأحكام أو حكم الهدى
وفاق شيوخنا - والصبا بعد مرتدى وفقه فى التأويل والدين فاغتدى
إماما متى يقرع به الخصم يكبب
بنو هاشم سادات دهر بهم حسن فلولاهم لم تبق دنيا ولم تكن
إذا الحرب جاشت فالحصون لهم حصن ومولاهم زيد الكتائب منهم انـ[1]
ـتماء وإن تنسب قضاعة ينسب
تفرس قبل العبث صدق علامة فآثر ملكا من نبى كرامة
على رفعة فى قومه وزعامة أبو الحب فى حجر النبى أسامة
فاحبب بهذا ثم هذا وأحبب
مدحت رسول الله من شغف به وأحببت أهليه بفضلة حبه
وأجللت أبرارا تسامو بقربه ومن ذا الذى يحصى فضائل صحبه
وإن يستمد البحر ينزف وينضب

(١) فى هامش المطبوع: «حرصا على الوزن والقافية فى الشطر الرابع من هذا التخميس وحتى يستقيم الوزن فى الشطر الخامس. آثرنا تقسيم كلمة (انتماء) فجاءت هكذا».

وفت لرسـول الله صفـقـة كفـهم فهم معـه فى الخلد فى نعم طرفهم
كما معه خاضوا الردى يوم زحفهم هم صفـوة جاء الكتاب بوصـفهم
فـمـا بعـده فـضل من المتـأدب
فواخـجلى لولا عمـيم ارتياحـهم فضحت سهى نظمى بشـمس التماحهم
وأغرقت أوشـالى ببحر سمـاحهم بلى إن فى أوصافـهم وامتـداحهم
رضى الله فازهد فى المديح أو ارغب
فكم فى مـعـد من مـعـد ذخـائر وفى يعرب من معـرب عن مفاخر
صحـابة خيـر الخلق خيـر معـاشر وكم فيـهم من مستـميت مهـاجر
سـريـع إلى أقـرانـه مـتلـبب
وناشئ سـرو فـى سـراوة أبطح وداعى نزار صـالح السـر مـصلح
وذى يمن سـمح الخـلائق مسـمح وندب من الأنصـار غـمـر ممدح
مـحـيـا مـبكى بالقـلوب مندب
بخـزرجه أو أوسـه - وهما همـا أعـز الهدى لمـا حمـاه حـماهمـا
فكم أنجـبـا ممن يشـيـد عـلاهمـا كسـعد أبى قـيس وقيس كـلاهما
يمـانى صلاء كـاليمـانى المشطب
يقـود المذاكى سـابـغـات ظلالهـا وقـد قد من خـد العـزيز جلالهـا
وصـاغ بتـيـجـان الملوك نعـالهـا تحـامت قريش بأسـه إذ سـما لهـا
بأرعن فى قـتـل الكمـاة مـدرب

بتكـريمـه دان الأكـــارم أجـــمع وغـــيـرتـه فى الله تحـمـى وتمنع

ونار قـــراه بالكـبـــاء تضـــوع وقال رسول الله - برا به - اسمعوا

لسـيـدكم فى مـحـــفل مـتلجب

من المستـحقـين الرضى عند ربهم برائق جـــدواهم ورائـع حـــربهم

تخـيـره الهـادى نقـيـبـا لحـزبهم من الخزرجـيين الذين سـمت بهم

خـئـولتـه فى كل مـجـد منصب

حوى الشرف السعدان فـاسمع مقاله أرى مـرتع السعـدان لا نبت طاله

فللسـاعـدى العـــز يضـفى ظلاله ولابن مـعـاذ سـيـد الأوس مـاله

حـديث لعـمر الله غـيـر مكذب

فـحبى من طـلق المحيـا وسـيمـه مـــلائك عـــدن هزة لقـــدومـــه

أقلت سـريرا سـار فـوق نجـومـه مناديله قـد أنـبـأت عن نعـيـمـه

وكم شـاهد ينبـيك عن مـتغـيب

قضى من جـهاد الشـرك كل لبانة وحكم فى طـاغـين أهل خـــيـانة

فـــوافـق حكم الله وفق إعـــانة وأبدى اهتزاز العـرش عن ذى مكانة

يقـال له أنعم وأرض غيـر مشـرب

تحـــمل عبء الحـق دون شكيـــة وجـــاد بمـال ثم نفس زكـــيـــة

فـعـين التى تبـكيـه غـيـر بكيـة من الأوس فى جـرثومـة مـالكيـة

درائيـة فـــادرأ بهـا النـاس تغلب

ومنهم سماك خام عنه المصالت وتواب صدق فى السلاسل قانت
وذو المنطلق الحكمى ينميه صامت وعن لنا قبل المعاذين ثابت
وحارثة سهل بكل ورحب
شجانى فراق للأحبة باغت فجسمى به خاف وروحى خافت
فنيت وودى فى ذوى النصر ثابت ميامن منهم أخطب الناس ثابت
وكان متى يستأسد الخطب يخطب
رآهم توقوا كل إثم وحوبة فزادهم تقوى وتجديد توبة
وشد عهودا فى حضور وغيبة وقام وقد حل الرسول بطيبة
بأسير قول فى البلاد وأذهب
وقال خلعنا اللات خلع لبوسنا سنشرب فيك الموت ملء كئوسنا
ونعرض عن أقمارنا وشموسنا وقال متى نمنعك منع نفوسنا
وأموالنا ماذا لنا من تثوب
حلت عندنا فيك الوغى وهى مرة فماذا توفى أمة بك برة
إذا حان للخلق الذى باد - كرة فقال خلود فى الجنان ونضرة
فقال رضينا فادع من شئت واندب
وحنظلة بشراه فى فوز سهمه لقد طهرت بالسفح طاهر جسمه
ملائكة نعم الأساة لكلمه وحارثة قال الرسول لأمه
ببدر وقد قالت لعبرتها اسكب

رويدك من فـرط الأسى والتـأسف أيبكى لمحـبـور بقـصر مـزخـرف
ومـتكىء فيـه على خـضر رفـرف أفـيـــقى أفـيـقى إن حـــارثة لفى
نعـيم جنان للحـسـيفـة مـذهب
لهم قدم للصـدق بالشهب تحـتذى وسل بمعـــاذ أو أخـيـــه مـعـــوذ
هما جـدلا عمرو العـدا دون منقذ ومنهم مـــعـاذ أعلم الـناس بالذى
أحل لـهم وبـالحـــــرام المجـنب
خـدود ظبـــاهم زينتـهـــا أسـالة وعنـد قناهم لـلقلـوب رســـالة
وأنفـسهم فـوق الصـفـاح مسـالة وعند مـعـاذ بن الجـمـوح بسـالة
وشـدة بأس كـالهـــزبر المغـضب
رأى قلبـــه روض الجنان منعـــمـا فخـاض له نهر الصوارم خضـرما
نضى لبـسـه لما أتى الله مـحـرمـا عـشـيـة ألقـى درعـه مـتـقـدمـا
إلى الموت لم يـنكل ولم يتـــذأب
مـساميح لم يسـمح زمـان بمثلهم إلى نـقـــبـــاء بالمناقب حلـهم
فـمنهم أبو أيـوب مـدره حـفلهم ومنـهم أبى اقـــرأ الـناس كلـهم
وآتاهم لـفظا ونطقـــا بأصـــوب
نجـار من النجـــار فى بيت سـؤدد وتهنئـة بالعلم فى خـيـر مـشهـد
وسعـاه من شاد السماء فـقد هدى وزادته إخـبـاتا قـــراءة أحـمـــد
عليـــه فـأى الدمع لم يتـــسـرب

ولا قـيـل إلا هاب أبناء قـيلة حمـوا عند خوف آثروا عند عـيلة
لهم حكـم أزرت بمولى سـخـيلة ولابن حـضـيـر آية ذات لـيلة
وقـد غشـيتـه ظلمة ذات هيـدب
تهـجـد بالقـرآن ليل سـهـاده فأبـصر مثل الـسحب فـوق سواده
بهـا سـرج كـالنـجم عند اتقـاده وخـاف على يحيى مـجال جـواده
ولا ضير فيها فاتهد واتل واعجب
وذو الرأى كاد الكفـر فى قلب عفت وذو العـين ردتهـا أجل يد شـفت
وذو السيف أعطاه الجـريد فأرهفت وذو النور عـباد بن بشر تكـشفت
دجـاه بنور من عـصـاه مـشـغب
أمـاجـد سـادوا كـابرا إثر كـابر إذا خطبـوا فـالشـهـب أدنى منابر
سل الوحى عنهم تلف أخبـر خابر وسـاجل بـعـبـد الله ثم بـجـابر
ونط بهما من شئت تفضح وتتعب
نجيـبين فى العـليا أطالا وأعـرضا بكفيهـما صمصامـة النصر تنتضى
لقد سلكا نـهجا من البـر مرتضى فـذاك أظلتـه مـلائكـة الرضى
بـكل جـناح بـارد الـظل أهـدب
أب طاهـر وابن تقـيل سلبـه كلا الفاضلين استوجبا الفضل كله
فـذاك شـهـيـد - كـرم الله نزله وهذا رسـول الله مـسـتـغـفـر له
متى يطلب الغـفران يرض ويطلب

لهم خلق إقـدام وخلق سـجاحـة وألسن إفـصـاح وأيدى سمـاحـة
فكم من صبـاح أخلجوا بصبـاحة وحسـبك فى الهيجـاء بابن رواحة
وعند القـوافى رائع النظم مسـتبى
مفـيد سيـوب عن سيـوف مفيـتة ورابط جـأش فى كـمـاة هبـيـتـة
وناطق شـعر فى حـروب صمـوتة وثالث آســاد الشـرى يوم مــؤتة
ولا خطو إلا فـوق أزرق قعضـبى
بشأويه من قـول وفعل حوى المدى جرىء على الأبطال مـثنى وموحدا
ومـبـتـدع لـلنظم إن راح أو غـدا فلله من حـلو الشـمـائل إن حـدا
ركـــابا أكلتـــهـا التنـائف تطرب
سـخى يعـيـد الأسخـيـاء فـداءه كـــمى يعـــد المشـــرفى رداءه
مـــــحـب يلـبى كـل روح نداءه لذلك ما اسـتدعى الرسـول حداءه
وقـال له حـرك بنا العـيس تنهب
ونعم ابن جحش مشبـه الخال رفعة أشم العلى إذ نال فى الله جـدعـة
ومن أهل بيت بادروا الحق سـرعة وإن جليـبـيبـا وقـد حس سـبعـة
لمسـعـــر حـرب فليـــبك ويندب
بنفـسى شهيـد شاهد الحق صـنعه تعـجل رضـوان إلى الخلد رفـعـه
عـروسا بحـور تحسب الدم ردعـه تولى رسول الله فى اللحـد وضعه
على سـاعـديه أى نعش ومـركب

حـلا كـجنى نـحل بماء غـمـامـة نسينا ابن سعـدى عندها وابن مامة
فيـا روضها ضاحك بـثغر كمـامة وأهلا وسـهلا بعـد بابن حـمامـة
بلال المـلقى فى الإلـه المعـــذب
بسـابـق حـبش سـائق لـهم غـدا بحـافظ أوقـاف الـفـروق تعـبـدا
بمن تذرف العـينان مـهمـا تشهـدا بأبيض ما تحت الضلوع من الهدى
متى يطلع فى ظلـمة الليل تنجب
وأسـمـــر مـا للطعن ســدد لدنه وأزرق مـا فـــوق المعـــاطف سنه
وأحمـر ما فى الروع كـسر جـفنه وأخـضـر مـا تحت القـبـاء كـأنه
حـسام مـتى ينفح به القرن يتـبب
أضـاعتـه كفـار أبى الله حـفظهم وحضوا عليه فاغتدى الخسر حظهم
فسبحان من أعمى عن الرشد لحظهم يسـومونه شـركا فـيجلب غـيظهم
بتـوحـــيـده لله من كل مـــجلب
بتـرجـيعـه ذابت نفـوس الخـلائق فكم سـاق للتـوحـيـد قلب منافق
وكم شاق لـلفردوس أهل الحـقائق وكم من شهـيد فى القيامـة صادق
له من مدى صـوت الأذان المهبب
وفى غـزوة والكفـــر رهن بشـتـه شـجى بأذان طال عـــهـد بوقـتـه
وذكر عـصر الوحى من بعـد فوته وكم عـبرة بالشـام فضت لصـوته
وأحـضرها من بعـد طول تغـيب

وقالوا رجونا حاجة منك فاقضها فلما دنا وقت الصلاة بفرضها
وقيل له أذن بشامك ترضها بكى عمر والمسلمون بأرضها
لذكرى حبيب بالبقيع فبيثرب
قضى فى جهاد واجتهاد مردد شرى تعبا يفنى بروح مخلد
فلابن رباح كل ربح مجدد ولابن سلام عند عيسى وأحمد
وموسى مكان المخلص المتقرب
بما جعل التوراة حومة حومه تحقق بعث المصطفى قبل يومه
فأعرض عن عذل القبيل ولومه ولما أراد الله إخزاء قومه
وكانوا جميعا بين عاند وكذب
تجنب إفك الفاسقين ومينهم ودان لرسل الله لم يلو دينهم
إلى أن رأى ختم الجميع وزينهم وكان قديما لا يفرق بينهم
بنور من التوراة عن كفرهم خبى
فلما اهتدى وارتاب أهل التهود ووقف منهم بين شكر لسؤدد
وبين اغتياب أن دروا أنه هدى طوى عنهم إيمانه بمحمد
وقال متى أظهره أبهت وأسبب
وقال له أقبلت للرشد قابلا فأخف عن الأقوام شخصى عاجلا
وكن لهم عنى - فديتك - سائلا فلما انتهوا فى مدحه قام ماثلا
يجادلهم فاستقبلوه بأزيب

ومن فقهاء الهجرة المدنية مفاتيح الاستفتاح عند السرية
وحلبة سبق للجنان العلية وما لابن مسعود ولابن سمية
وسلمان والندب الغفارى جندب
وسالم قرآن به ائتم كبرهم وداعى أذان حين يطلع فجرهم
ومصعب الدارى لله درهم من الفضل لا يحصى فحسبك ذكرهم
وإلا فقس خضر البحار بمخضب
فلله ما اتقى وأنقى صحيفة مراتبهم تعلو السماء منيفة
وليلاتهم تحيا رجاء وخيفة وأيام سيف الله أردت حنيفة
وسلت عليها كل أبيض مقضب
سيوف عنا قسرا لها كل قسور وأسكت ناقوس بصوت مكبر
وعوض من قس خطيب بمنبر وبشر منها آل كسرى وقيصر
بملك شعاع مستباح مخرب
سبى الفرس من تيجانهم أى حلية وقسم روما بين قتل وجزية
ومن كل أهل البغى فاز ببغية وأى كفور لم يرعه بفتية
تسقى عداها بالزعاف المقشب
عراق وشام والحجاز به فدى متى تأتها تسمع لدى كل مشهد
قضى خالد فينا بفتح مخلد وما هى إلا بطشة من مؤيد
متى يقعد الآجال تنقد وتصحب

صحاب رسول الله فى نعت ناعت كـأشـجار طـيب فى أغض منابت
سمـا فرعهـا والأصل أرسخ ثابت وإن أبـا زيـد وزيـد بـــن ثـابـت
لفى شـامخ سـامى الذؤابة أرقب
همـــا أحكمـــا وحى الإله وأتـقنا هما جـمعـا حفظا ولفظا مـحسنا
لقـد بهـــرا فـيـمـا أســـرا وأعلنا وفى آية تـتلى كـــمـــا نزلـت لنا
وتبـيـين فـرض إن تعـداه يذهب
بصحب الهدى أبدى الزمان اختياله غـداة غـدوا إجـمـــاله وجـمـاله
فلوا أومـــئـــوا للأفق نالـوا هلاله ولو نيـط فـــخـــر بالثـــريا لـناله
أبو طلحـة عـفـوا ولم يتـصـعب
بســـــراء أو ضـــراء أنفق مـــاله وفى الســـر والإعـــلان واصل آله
وصيحـته فى الحبيش هدت جـباله ولما تـناءى الـبـــــر عـن أن ينـاله
بغـير سـخـاء عن نضـيد مـركب
وأيقـن أن النفس تـردى بضنهـــا وأن سـماح النفس من غـير منهـا
بفـــتح للأبـرار جنات عـــدنهـــا سخت نفـسه عن بيرحاء وحـسنها
وعن كل قطف مائل العطف مرطب
وكم قـاد مـقـداد عـرابا سـوابقـا صـهلن رعـودا واخـتطفن بوارقـا
فـأهلكن ذعـرا كـافـرا ومنافـقـا وجاء صـهيب سـابق الروم سابـقا
يقود إلى دار الرضـى كل أصهب

وغـالبـــه عن هجـره آل غـــالب فأعطى القنى يرجو لقاء الأصاحب
فقـيل ربحت البيع يا خيـر كاسب وأن أبـا هر لألـزم صـــــاحـب
وكلهم مـن حـاضـرين وغـــيب
مـبـشـر دوس حـــين لاذوا بركنه مـســـددهم حـــتى أنابوا بيـــمنه
حظى لدى المخـــتـــار إن زار يدنه لزيم رســـول الله فى شـبـع بطنه
فـســـيـان إن يعـرق وإن يـتنغب
وعى الذكـر فى تهـجيـره وبكوره وواصل حـفظا باتصـال حضـوره
وبالبسط للثوب اسـتقى من بحوره فـــآض بعلم يســـتـــضـــاء بنوره
متى يعترض من دونه الصعب يركب
وزان ابن عم زانـه النور عـــمـــة فقـال عسى فى ذيل سوطى تتـمة
لئـــلا يظنوا مـــثله بى ملـمـــة وكـان لدوس حـين أسلم رحـمـة
بها استنقذوا من حاجم ذى تلهب
ونجل حـــوارى حـرى بـرعـيـــه بميـــلاده ســـارت أكـابـر حـيـــه
وتعـسـا لقـوم كبـروا عند نعـيـه ولم يأل عـبد الله فى حـسن هديه
سمـوا إلى فاروقـه فاسـم وأقرب
فـبـورك من خـاش لذى العـرش روايتـــه روت بأحلى المـشـــارع
وكم نـفـــعـــتنـا عنه آثار نـافع له كل برهان مـن الفـضل سـاطع
ورؤياه رؤيا أفـصـحـت بالمغـيب

ولابن ربيع فى أعز المشاهد مقام سما عن مخبر أو مشاهد
وبالنصر وصى غائبا بعد شاهد وفى أنس بن النضر أعدل شاهد
ببريمين عن يقين تحوب
تنسم عدنا يوم تمحيص شهد فقد ولم يعرف بعضو سوى اليد
وقال كذا فلينتدب كل مهتد ولابن أخيه الندب خادم أحمد
فضيلة مختص لأبياته ربى
فطوبى له من طاهر القلب شهمه مصيخ إلى قول الرسول بفهمه
ومكمل ما يلقى له ومتممه أبى حمزة أكرم به وبأمه
فكم لهما من حظوة وتقرب
ومن سابقات نيرات آياتها ومن مَكْرُمات مُكْرِمات رواتها
ومن حسنات أعليت درجاتها ومن دعوات خلدت بركاتها
طباهم وأرضاهم بها خير مطبى
وكعب علا كعبا على رغم شامت ومنطقه للحرب أنعت ناعت
وتيب عليه توب أروع قانت وحسان حسان الحسام بن ثابت
يقول وروح القدس للقول مجنب
محا بامتداح المصطفى طيب نومه وفى الله لم يحفل بمولم لومه
وفى محفل الإنشاد أحفل بيومه له مجده فى قومه ولقومه
به رتبة زادت على كل مزرب

وصـوت ابن قيس إذ يرتل حـزبه مــزامــيـر داود به تـتـشــبــه
وخــبب خـبــاب فلم يـنس ربه وحـاطب لخم أعظـم القـوم ذنبـه
وحشوا عليـه الموت من كل محطب
وفـرقـة هدى أفــرقـتـه وهددت وكـانت له زلفى عن النار أبعـدت
وأعذار إخـلاص لدى الله مـهدت فنهنهــهم عنه الرسـول وقـد بدت
مــقــــاتلة للـثــائر المتــــوثب
ولقـاه بشرى سـامـيـا قدر أهلهـا أوى كل ذى سـبق لـوارف ظلهـا
وفى مـحـفل رداه حلـة حـفلهـا وصــدهم عنه ببــدر وفـضلهــا
وشــداته بالسـمــهــرى المعلب
تحلى خـبـيب للـتـقى خـيـر زينة ومــاذا تلقى عــاصم من سكـينة
غـداة حــمـتـه الدبر أى أمــينة وفــاز حـرام يوم بئــر مـعــونة
بقطر دم يسـتن من كل مـشـخب
منهم وقـور السـمت سكن طيـره عويـمر القاضـى الذى شاع خـيره
فللعـدل مـثــواه وللغـزو سـيـره وعـالم ســر ليس يدريه غــيـره
حـذيفـة لم يمـذل ولم يتـسـرب
وحــسل أبوه يوم أخلص غــزوه سيـوف إلى الغايات لم يـثن شأوه
وإن ابنه بر إذ اخــتــار عـفــوه وإن ابنى العـاصى هشامـا وصنوه
على نهج إيمـان منيـر مـصـوب

وفى اليـمن الإيمان ليس بمخـتف وإن عـديا للمـحـامـد مـقـتف
وزاد قـديمـا للـقـدوم المشـرف وإن جـريـرا خـيـر ذى يـمن لفى
ذؤابة مـجـد باسق مـتـهـيب
لبـهـجـة مـرآه بيـوسف قـدوة وجـقت له لولا الـديانة نخـوة
ببـسط رداء فـيـه عـز وحظوة وتمت له من خـاتم الرسل دعـوة
تقلب منـهـا تحت عـقـد مـؤرب
تلقى وصـيـات الرسـول بوعـيـه وروح من طاغـوت دوس وغـيـه
براشـد منـحـاه وصـائب رأيه وأصـحـمة أرضى الإلـه بسعـيـه
وذاد عن الإيمـان كل مـخـيب
رأى الحق عن بـعـد بنـاظر قلبـه وعـاض من التـثليث توحـيـد ربه
مـقـرا برسل الله طـرا وكـتـبـهم وكـان مـلاذا للرسـول وصحـبـه
وبان وبانوا عـنه غـيـر مـؤنب
أصـاخ لـوحى وهو باك مـوله وأعظـم أمـر المصـطفى وأجـله
وسـاق مطيـعـا مـهـر رملة كله وصلى عليـه أحـمـد شـرفـا له
وأوصـاله فى النعش لم تتحـجب
هنيـئـا لزهر بايعـوا تحت سـرحـة وفـازوا من النور البـهى بلمـحـة
ونالوا من الداريـن أشـرف منحـة وناهيك من فـخـر الأشج بمدحـه
يقـصر عن إيجـازها كل مهـضب

لهم سؤدد قد أعجـز الشعر وصفه ومن ذكـــرهم زهر تأرج عـــرفـه
كـمامـته طرسـى وبالسمع قطفـه وقـرة نالت خـاتم الـوحى كـفـه
وفـاز بهـا فوز السـعـيـد المنجب
محا شوقهم عن ناظرى طيب نومه وإن هواهم فى الحـــساب ويومـه
يفى بصـــلاة المتـــقى وبصـومـــه وما فـضل أصحـاب النبى وقـومه
لمن رام إحـــصـــاء له بمحـــسب
هو البـحر والخـضـر البحـار تمده هو النجم من يبـغى النجـوم ترده
هو القطر لا يرجى من القطر عـده ولكـنه ذخـــر وأجـــر أعـــده
وأجـعله أمنى وحـصنى ومهـربى
لخيـر الورى أخلصت دون وليـجة وسبطيـه أرثى ذا شجـون مهيـجة
وأصـحـابه حـبـــوا بكل أريجـة وأزواجـه والفضل فـضل خديجـة
وكل له فـــضل المصـــون المطيب
ثنا أمـــهـات المؤمـنين مـحـــسن فـــهن أمـــان لـلورى وتيـــمن
لهن على الـنسـوان فـضل مـبـين ولكنهـا كـانت ومـا كـان مـؤمن
سـواها فـنقـر فى البـــلاد ونقب
تقى الله فى أعـلى المراقى أجلهـــا حبـت وفرها تحوى المـفاخر كلـها
وحـيـا سـلام للســـلام مـحلهـا وسـبط الهدى منهـا لفـاطمة لهـا
فحسبك من فـضل بفضل مرجب

شهيـدان ذا جهر أو ذاغيـبة قضى  همـا قـرتا عين لأشـرف مـرتضى
وريحنـتـــاه من زمـــان به أضـــا  هما سـيدا الشبـان فى جنة الرضى
وخـير كـهول الأرض شـرق ومغـرب
وفى حجـرات المصطفى فصل منطق  وآيات بـرهان وحكمـــة[1] منتق
أذاع بهـا الزوجـات غـربا لمشـرق  وعـــائشـــة صـــديقـــة لمصـــدق
ملىء من التـقـوى رءوف مـؤدب
وكم سنن تقضى صـحائح طرقـها  بتـفـضـيل أم المؤمنين وسـبـقـهـا
على العلمـاء استـدركت وبحقـها  مـبـرأة جـاء الكتـاب بصـدقـهـا
وتكذيب إفـك الفـاجـــر المتكذب
ومـثلهـا جـبـريل وهى بخـدرها  على الشرف الباهى فأعظم بفخرها
ولم يأت وحى قط فى لحف غيرها  ومات رسـول الله ما بين سـحرها
إلى نحـرها توديع راض مـقـرب
ولا زوج للمـخـــتـار إلا مـبـرة  على الغـير خـصـتهـا من الله أثرة
شـمائـلها نسك وصـون وطهـرة  وكـــل لـنـــا أم هـنـــالـك بـــرة
على برها تحـبـو الرجال وتحـتـبى

(١) يشـير إلى قـوله تعـالى: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ... ﴿٣٤﴾﴾ [الأحزاب].

وخيـــر أناس يقـتـدى بـهـداهم سـراة رأوا خـيـــر الورى ورآهم
فـحـسـبهم فـضـلا به وكـفـاهم صـحابة صـدق من يطر بحمـاهم
فنـحن براء مـنه باعـــد وجـنب

أيا صـــاح دعنى من ثراء وعـــيلة ومل بى إلى صحب الهدى خير ميلة
أحـــبـــر ثناهـم كل يوم وليـلة وعـرج على الأنصـار أبـناء قـيلة
وبغـضـهم كـفـر فـعـذ وتحـبب

كـفـانى عـمـا بالقـوافى قـفـوته ثناء علـيـهم فـى الكتـاب تلوته
أمـانى وإيمـانى بـهم قـد رجـوته كـرام لهم محـيـا الرسول ومـوته
تأسوا وواسوا من جـواد ومحرب

تناهوا من الإيـثـار فى كل نصـرة إلى أن قـروا أرواحهـم كل شفـرة
حـضـــور ببـدر غـيـب عند بدرة يحـبون مـن وافى إليهم بـهجـرة
ويلقـاه منهـم كل سـمح مـرحب

صحـاب رسول الله فى الأرض أنجم ليـرشـد حـيـران وينجـاب مظلم
بهم فى الدنا نحمـى وفى الدين نعصم سـأقطع عـمرى بالصـلاة عليـهم
وأدأب فى حـبى لهم كل مـدأب

تفـتح نظمى فى الطروس خمـيلة فـأهديت أزهـارا بدمـعى بلـيلة
عسـاها أتت من عثرتـى مستـقيلة إليك رسـول الله منهـا وسـيلة
تناجيـك عن قلب بحبك مـشرب

فـؤاد بلفح البـعـد عنك تضـرمـا يطالع بـالفكر الحطيـم وزمـزمـا
ويلثم شـــوقـا مـنتـداك المكـرمـا يزورك عن شـحط المـزار مـسلمـا
ويلقـــاك بالإخـلاص لم يـتنكب
إلهى ذنوبـى كـالجـبـال وأكـــبـر ولكنهـا فى جنب رحمـاك تصغـر
ومالى سـوى مدح الرسـول مكفر ترجيت فـضلا منك يعـفو ويغـفر
وراجيك فى الداريـن غير مـخيب

انتهى التخميس الرائق الأبيات، للخالصية الباهرة المناقب والآيات.

وهذا البـيت الأخـير - وهو قـوله: (إلهى ذنوبى. . . إلى آخـره) زاده المخمس كله ليكون الختم به. ولم يزد بيتا غيره.

ولا خفـاء أنه - رضى الله عنه - زاد هذه القصـيدة بتخـميسـة حسنا، عاملنا الله وإياه بالزيادة والحسنى، وأنال جميعنا المقام الأسنى.

ومن بديع نظم ابن أبى الخصـال المذكور آنفا، قصـائده النبويات، التى عارض بهـا قصـائد حسـان بن ثابت - رضى الله عنه - فى رثاء المصطفى - ﷺ، وقد خـمس أبو عبد الله بن حبـيش المذكور الحسانيـات، ومعارضتـها الخصالية، وأفردها بتـأليف، رأيت أن أذكر ذلك بجملته، وكتب فى أوله ابن حبيش المذكور ما نصه:

الحدائق النيسانية، والطرائق الحسانية، تشتمل بحول الله - على تخميس المراثى الحسانيات التى طبقت بإحسانها ما تحت السبع الطباق، وعلى تخميس معـارضتها من الخـصاليات التى فـازت فى أساليبـها بخصل السـباق، تأليف محمد بن حبيش، انتهى.

قال - رحمه الله: تخميس الأولى من الحسانيات الأربع، التى عمرت من الإحسان أبهى مربع، محجبة فى انتساقها عن الغير، مرتبة على مساقها فى السير، ترثى سيد الخلق وخاتم الأنبياء، فتبكى بشجوها سكان الأرض وملائكة السماء، صلى الله عليه صلاة تتناهى فى تكريمه وإرضائه، وتقضى من حقه ما عجز العالمون عن قضائه، وعلى آله المنتخبين، وأهل بيته المطيبين، وسلم تسليما، ورضى الله عن صحبه الذين بدروا دعوته تصديقا، ومهدوا ملته تغريبا وتشريقا، ومن الله - سبحانه - يرجى العون والتيسير، فهو نعم المولى ونعم النصير.

أيبقى وجود والنُّبُوَّة تفقد بأرواحكم جودوا فما الدمع يحمد
أما هدكم ناعى الهدى وهو ينشد بطيبة رسم للرسول ومعهد
مبين وقد تعفو الرسوم وتهمد
مضى المرشد الهادى لحكم وحكمة وآلمت الإسلام أدهى ملمة
فما تخلع الأيام أوثاب ظلمة ولا تمحى الآيات من دار حرمة
بها منبر الهادى الذى كان يصعد
وفضفاض آلاء وضافى مكارم ومهبط وحى من إله العوالم
إلى خاتم الرسل السراة الأكارم وواضح آثار وباقى معالم
وربع له فيه مصلى ومسجد
بمأمورة القصواء قد كان خطها ونظم من در الهداية سمطها
نبى كساها الفخر تضفيه مرطها بها حجرات كان ينزل وسطها
من الله نور يستضاء ويوقد

مـبـادئ هدى تبلـغ الخلد غـايهـا يقربهـا من قلب ذى الصدق نـأيها
وفى الملأ الأعـلى تنشـر رأيهـا معارف لم تطمس على البـعد آيها
أتاها البـلى فـالآى منهـا تجـدد
ولم لا أوفـيـها من الحب جـهـده وقد حازت الفـضل الذى فاق عده
إذا زرتهـا بالقـلب أخـمـد وقـده عـرفت بها رسم الرسـول وعهـده
وقـبرا به واراه فى الـترب ملحـد
لقد خـددت خدى دمـوعا توردت صـحـائح آثار لأحـمـد أسندت
وآيات وحى فى المحـارب رددت ظللت بها أبكى الرسول فـأسعدت
عيـون ومثـلاها من الجفن تسـعد
صنوف الوجود الجم غيبا ومحضرا من الشهب والأفلاك والمزن والورى
وما أبصرت عينى وما ليس مبصرا يذكـرن آلاء الرسـول ومـا أرى
لهـا محـصيـا نفسى فنفـسى تبلد
فـلا جسم إلا حلة السـقم يرتدى ولا روح إلا رائح غـيـر مغـتـدى
ولا نفس إلا ذات وجـد مـجـدد مفـجعـة قد شـفهـا فقـد أحمـد
فظـلت لآثار الرسـول تعـدد
وقد حـبرت من كل مـدح حبـيره وقـد عبـرت عـمـا ينمى عـبيـره
بنظم كـمـا وشى النسـيم غـديره ومـا بلغت من كل أمـر عـشـيـره
ولكن لنفـسى بعـدمـا قد توجـد

سرت مهجتى تبغى الجنان وخلدها فـمـا يمـمت إلا المـدينة وحـدها
وقـد نـالت الأوطار لم تتـعـــدها أطالت وقوفا تذرف العـين جهدها
على طلل القبـر الذى فيه أحـمد
فطوبى لـنفس بالرســول تمسكت لقـد عطرت بين النفوس ومـسكت
وما الفوز إلا مـسلك فيه أسلكت فبـوركت يا قبـر الرسول وبوركت
بلاد ثوى فـيـها الرسـول المسـدد
فـيـا خـاتم الرسل المـكين المقـربا وأعلى الورى قدرا ونفـسا ومنصـبا
تقدست قـبل الكون تحبى وتجـتبى وبورك لحـد مـنك ضـمن طيـــبـا
عليـه بـناء من صـفـيح يـنضـد
لفـقد رسـول الله لم يسل مـؤمن فـللـكرب أرواح ولـلـنـدب ألسـن
لقـد شق يوم فـيـه للوحى مـدفن تهـيـل عليـه التـرب أيـد وأعـين
هناك وقـد غـارت بذلك أسـعـد
إمـــام لرسـل لم يزالـوا أئمـــة غـدا للعُـلا بدءا وللبـعث ختـمـة
وجلى عن الآفـاق ظلمـا وظلمـة لقـد غيبـوا حلما وعـلما ورحـمة
عـشـيـة عـالوه الثـرى لا يوسـد
نعـموا قـمرا كم ضـاء عنه نديهم وودهم لو قـــبل ذاك نعـيـــهم
وزادوا غليـلا إذ مـن الدمع ريهم وراحـوا بحزن ليس فـيـهم نبيـهم
وقد وهنـت منهم ظهور وأعـضد

قد اغـتبطوا بالوجد يغلون سـومه فـهم بين طرف شـرد الدمع نومـه
وسمع عـن السراء واصل صـومه يبكون من تبكـى السمـوات يومـه
ومن قد بكتـه الأرض فالناس ألمد
مـصـاب دهانا بالدواهى الفـواتك فـبـدل أنوار الضـحى بالحـوالك
وعـاض دموعـا بالدماء السـوافك وهل عـدلت يومـا رزيـة هالك
رزية يوم مـات فـيـه مـحـمـد
فـيـا ربنا ضـاع العـبـاد فـصنهم وقد ضـعفـوا عن صبرهم فـأعنهم
ليـوم بـعـاد قـرب الحـيـن منهم تقطـع فـيـه منزل الوحى عـنهم
وقـد كـان ذا نور يغـور وينجـد
فـأين زمـان رافل فـى قـشـيـبـه ببـهـجـة مـرآة ونـفـحـة طيـبـه
إذ الوحى من رب الورى لحـبـيـه يدل على الرحـمن من يقـتـدى به
وينقـذ من هـول الخـزايا ويرشـد
تحـرى حـراء راكع الليل سـاجـدا وأظمـا هجـيـرا يتـرك الماء واقـدا
وبالوحى أضحى مرشد الخلق راشدا إمـام لهـم يهـديهم الحـق جـاهدا
معـلم صدق إن يطيـعوه يسـعدوا
رحـيم بـأهل البـر يرفـع قـدرهم شـديد على الكفار يخـفت زأرهم
حـبيب إلى الزوار يـشبع وفـرهم عـفـو عن الزلات يقـبل عـذرهم
وإن يحـسنوا فـالله بالخـير أجـود

إذا جـاش أعـداء مـحـاهم بنصله وفى المحل يغنى عن غـمام ببـذله
وإن جلـت الجلـى تجلـت لأجلـه وإن ناب أمـر لم يقـومـوا بحـمله
فـمن عنده تيـسـيـر مـا يتـشـدد
أقـــام لأرباب الـديانة قـــسـطهم فقد فرسـوا فرس الأعادى وقبطهم
فترجو رضـاهم أو تحاذر سخطهم فـبـيناهم فى نـعـمـة الله وسطهم
دليل به نهـج الطريقـة مـقـصـد
نصـيح لخلق الله غيـبا ومـشهـدا مـوفيـهم النعمى مـوقيـهم الردى
مبـصرهم فى اليـوم شافعـهم غدا عزيز عـليه أن يجوروا عـن الهدى
حريص على أن يستقيموا ويهتدوا
أباد الأعـادى - والدعـاء سلاحـه فبالرعـب قبل الحرب عم افتـتاحه
قـوام البـرايا بـأسـه وسـمـاحـه عطوف علـيـهم لا يـثنى جناحـــه
إلى كنف يحنـو عليـهم ويمـهـد
وقد صيـروا الأملاك بالقهـر أعبدا وردوا جميع الأرض طهرا ومسجدا
وبدر الهدى يلتاح من وجه أحمدا فـبـــيناهم فى ذلك الـنور إذ غـدا
إلى نورهم سهم من الموت مقصد
ولما غـدا المختـار بالحق صـادعـا وبلـغ تنزيـلا وبث شـــرائـعـــا
دعـاه تـقـاه للجنـان مـســارعـا فـأصبح مـحمـودا إلى الله راجعـا
يبكيـه جـفن المرسلات ويـحمـد

فـحان لشـمس بالظلام التفـاعهـا وزلزل من شم الروابـى يفـاعـهـا
وحق لأصلاد الـقلوب انصداعـها وأمست بلاد الحـرم وحشا بقاعـها
لغيـبة ما كانت من الوحى تعـهد
وكادت قلوب أن تحس اخـتلافـها لفـقدان مـن أعطى هداه ائتـلافهـا
وعادت ربوع الأمن تشكو مخـافها قفارا سـوى معمورة اللحد ضـافها
فـقـيـد يبكـيـه بلاط وغـرقـد
تغيـرت الأشـيـاء حـزنا لبـعـده فـيـا ظلمـة الـدنيـا ويا نور لحـده
بكـاه مـصـلاه الأنيـس بورده ومـسجـده فـالموحـشات لـفقـده
خـلاء له فـيهـا مـقـام ومقـعـد
أرى الكعبـة العيـا لمنعاه أجـهشت بنوح وأدمت خدها حـين خمشت
وهمت بتمـزيق الستـور فأدهشت وبالجـمرة الكبـرى له ثم أوحـشت
ديار وعـرصـات وربع ومـولد
محا أحـمد من كان يعبـد صخرة ومن طلبوا أن ينظروا لله جـهرة[1]
ومن عـبـدوا كـهـلا وعـذراء برة فـبكى رسـول الله يا عـين عـبـرة
ولا أعـرفنك الدهر دمـعك ينفـد
ونوحى على من شـاد أشـرف ملة بوكـافـة هطـالة مـسـتـهلة
هى الغيص لكن لم تطق رى غلتى ومـالك لا تبكيـن ذا النعـمـة التى
على الناس منـها سـابغ يتـغـمـد

(١) يشيـر إلى قوله تـعالى: ﴿...فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ... ﴿١٥٣﴾﴾ [النساء].

فيا أمة الدين الحنيف المكمل نبيك والمعلى لمنصبك العلي
تنقل للفردوس أحفى تنقل فجودى عليه بالدموع وأعولى
لفقد الذى ما مثله - الدهر - يوجد
وما لى لا أفنى وأفنى تجلدى وأجعل مبكاى المورد موردى
وثوبى أكفانى وبيتى ملحدى وما فقد الماضون مثل محمد
ولا مثله حتى القيامة يفقد
أحب إلى رب وأحفى بأمة أبر بميثاق وأرعى لحرمة
أحن لِسُؤّال وأسدى لنعمة أعف وأوفى ذمة بعد ذمة
وأقرب منه نائلا لا ينكد
وهل أبصرت عينا مقر وجاحد بأعلى على من أحد ذى المحامد
وأكثر إعجازا وخرق عوائد وأبذل منه للطريف وتالد
إذا ضن معطاء كان يتلد
وأسمى سناء حين أسرى إلى السما وأبهى سنا مهما ارتدى وتعمما
وأمحى لجيش بالحصاة إذا رمى وأكرم صيتا فى البيوت إذا انتمى
وأكرم جدا أبطحيا يسود
وأوصل أرحاما وأقطع للطلى وأصفح عن جان وأصبح مجتلى
وأشجع مقداما وأسخى مؤملا وأمنع ذروات وأثبت فى العلى
دعائم عز شاهقات تشيد

وأصدع بالقرآن لله مخبتا وأنطق برهانا به الخصم أسكتا
وأهدى لأواب وأسطى بمن عتا وأثبت فرعا فى الفروع ومنبتا
وعودا غذاه المزن فالعود أغيد
كريم نمته من لى كرامه شريف علا فى الأنبياء مقامه
ضياء مساعيه ووحى كلامه رباه وليدا فاستتم تمامه
على أكرم الخيرات رب ممجد
على كل بر أن يذوب بلهفه ويغرق بالطوفان من فيض طرفه
على مرسل عم الأنام بعطفه تناهت وصاة المسلمين بكفه
فلا العلم محبوس ولا الرأى يفند
لمثواه قصد الأجر تزجى الركائب بعلياه عند الحشر ترجى الرغائب
صباح به تجلى لكفر غياهب أقول وما يلقى لما قلت عائب
من الناس إلا عازب العقل مبعد
لدى البعث أرجو فوزة بلقائه وقبل فنائى وقفة بفنائه
مديحى مدى عمرى حبيس علائه وليس هواى نازعا عن ثنائه
لعلى به فى جنة الخلد أخلد
إلهى قضيت الذنب فاقض اغتفاره بفضل شفيع قد رفعت فخاره
لعلى غدا والحب يدنى مزاره مع المصطفى أرجو بذاك جواره
وفى نيل ذاك اليوم أسعى وأجهد